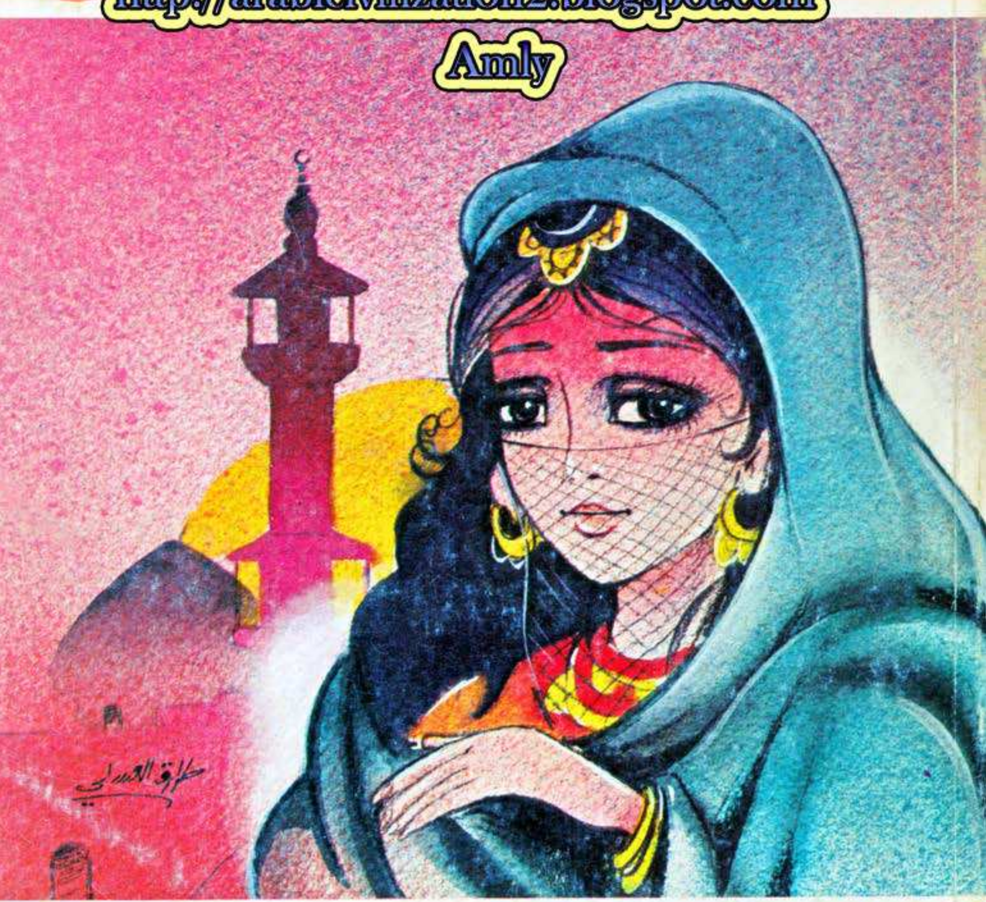
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

اليتيمة الساحرة ١



دار الأندلس

اليتيمة السّاحرة

تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

تمهيد

عثمان :

هو عثمان بن عفان ، بن ابي العاص ، بن امية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، ابن قصي . وامه ، اروى بنت كريز ، بن ربيعة ، بن حبيب ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، بن قصيّ . وكان يكنىّ في الجاهلية ، أبا عمر ، فلما كان الاسلام ، ولد له ، من رقية ابنة النبي ، غلام دعي عبدالله ، فكنّاه المسلمون : أبا عبدالله .

وعبدالله هذا لم يعش غير ستة اعوام ، فقد كانت وفاته في جمادى الأولى ، من السنة الرابعة للهجرة . وهذه اسماء ازواج عثمان في الجاهلية والاسلام :

رقية وام كلثوم ابنتا النبي وقد ولدت له رقية عبدالله الذي مرّ ذكره ، وفاختة بنت غزوان من بني قيس عيلان ، وقد ولدت له غلاماً دعاه عبدالله - هو عبدالله الاصغر ، وقد هلك ، وأم عمرو بنت جندب ، من الأزد ، وقد ولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم . وفاطمة بنت الوليد ، من بني مخزوم ، ولدت له الوليد ، وسعيداً ، وأم سعيد ، وام البنين بنت عيينة من بني فزارة ، ولدت له عبد الملك وعتبة ، وقد هلك الأول منهما ، ورملة بنت شيبة من بني عبد مناف ، وقد ولدت له عائشة وأم أبان ، وأم عمرو ونائلة ابنة الفرافصة ، من بني كلب ، وقد ولدت له مريم . وقال هشام الكلبي : ولدت نائلة ولداً آخر دعي عنبسة ، وقال الواقدي : ان لعثمان ابنة من نائلة تدعى ام البنين ، وهي التي كانت عند عبدالله بن يزيد بن ابي سيفان .

اسلامه وهجرته :

اسلم عثمان ، قبل دخول رسول الله دار الأرقم ، وكان ممن هاجر من مكة الى الحبشة ، الهجرة الأولى والهجرة الثانية ، ومعه فيها زوجته رقية .

صفته :

كان رجلاً حسن الوجه ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، رقيق البشرة ، عظيم اللحية ، اسمر اللون ، عظيم ما بين المنكبين ، كثير شعر الرأس ، يصفّر لحيته ، وتبدو على وجهه اثار الجدري ، واذا بانت ذراعاه بان الشعر الذي يكسوهما ، وقد تولىّ أمر الخلافة وهو شيخ ، لكن فيه همة الشباب .

***

عندما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول الله فحمد الله ثم خطب قائلاً :

أما بعد ، فاني قد حملت وقد قبلت ، الا واني متّبع ولست بمبتدع ، ألا وان لكم علي بعد كتاب الله وسنّة نبيه ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيا اجتمعتم عليه وسننتم وسنّ سنة أهل الخير فيا لم تسنوا ، والكف عنكم الا فيا استوجبتم، الا وانالدنيا خضرة قد شهيتالى الناس ومال اليها كثير منهم، فلا تركنوا اليها ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة ، واعلموا انها غير تاركة الا من تركها . الا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة ، 'عتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم ، أين أبنـــاء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة، ثم نزل فجلس في جانب المسجد وقال لمن معه :

لننظر الآن في أمر عبيدالله ، وكان عبيدالله ، بن عمر بن الخطاب ، قد قتل الهرمزان، الذي أسلم وأقام بالمدينة، كما قرأت في رواية هند والمنذر، وقتل رجلاً آخر من نصارى الحيرة يدعى جفينة ، وفتاة صغيرة هي ابنة أبي لؤلؤة ، قاتل أبيه، قتل ثلاثة في المدينة، بعد ان قتل أبوه ، وهذه حكاية القتل : مرّ أبو لؤلؤة قاتل عمربن الخطاب، بالهرمزان، وهو في فناء منزله وعنده جفينة وكان أبولؤلؤة يحمل خنجره الذي طعن به أمير المؤمنين ، فتناول الهرمزان الخنجر وقال له : ما تصنع بهذا يا أبا لؤلؤة ؟

قال: اخوّف به الناس ... وبينا الثلاثةيتحدثون، والخنجر في يد الهرمزان،

مرّ رجل آخر من أهل المدينة فرأى الهرمزان يدفع الخنجر الى أبي لؤلؤة ... ثم مرّ في الوقت نفسه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نهض الثلاثة عن مقاعدهم ، وسقط الخنجر ذو الرأسين . وانقضى ذلك اليوم ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، والرجل الآخر ، لا يفكران في ذلك الخنجر الذي رأياه ، فلما كان الصبح ، وقتل عمر ذكر عبد الرحمن ما رآه فقال للقوم :

مررت أمس بأبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وقد رأيت خنجراً يسقط بينهم على الأرض ، وهو ذو راسين نصابه في وسطه . فانظروا بأي شيء قتل عمر ...

ثم قام الرجل الآخر فقال : رايت الهرمزان يدفع الى ابي لؤلؤة خنجراً ذا راسين نصابه في وسطه ... فسمع عبيد الله بن عمر ما قاله الرجلان ، فاشتعلت النار في صدره ، ولكنه اقبل يعالج اباه المحتضر، وهو ساكت على غلّ، ثم عثر على الخنجر ومات ابن الخطاب ... فتناول عبيدالله سيفه ، وهو لا يقول كلمة ، وخرج حتى اتى المرزبان فقتله، ثم مضى الى جفينة وابنة ابي لؤلؤة فقتلها وجعل يقول: والله لاقتلنّ رجالاً ممن شرك في دم ابي وهو يعرّض بالمهاجرين والانصار، فلحق به سعد بن ابي وقاص ، فنزع السيف من يده وجذبه بشعره حتى ادخله داره وجعله سجيناً فيها حتى يرى الخليفة الجديد رايه فيه ، وكان رجل من الانصار يقال له زياد بن لبيد البياضي يحرّض عثمان على قتل عبيدالله ، قال :

الا يا عبيدالله ما لك مهرب | ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
اصبت دماً والله في غير حلّه | حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيءٍ غير ان قال قائلٌ | اتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمةٌ | نعم اتهمه ، قد اشار وقد امر
وكان سلاح العبد في جوف بيته | يقلّبه والأمر بالأمر يعتبر

فدعاه عثمان فنهاه ، فقال زياد :

ابا عمرو عبيد اللّه رهنٌ | فلا تشكك بقتل الهرمزان

فانك ان غفرت الجرم عنه   واسباب الخطا فرسا رهان
اتعفو اذ عفوت بغير حق   فما لك بالذي تحكي يدان

فأمره عثمان بان يكفّ عن مثل ذلك القول ، تلك هي حكاية عبيدالله . فلما جلس عثمان ، في جانب المسجد كما قرات ، امر باخراجه من دار سعد وقال لجماعة من المهاجرين والانصار : اشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام مـا فتق ، فقال علي : ارى ان نقتله ، فقال بعض المهاجرين: قتل عمر امس، ويقتل ابنه اليوم ؟

فقال عمرو بن العاص : يا امير المؤمنين لقد حدث هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان .

قال : انا وليّ المسلمين وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي ، ثم امر فاحضر ابن الهرمزان، فلما مثل بين يديه قال : يا بني، هذا قاتل ابيك وانت اولى به منا فاذهب فاقتله .

فقال للقوم : اتمنعونه ؟ قالوا : لا ! فلك قتله ، فنهض قائلاً : لقـد تركته لله ولكم .. فحمله الرجال، وذهبوا به الى منزله وهو على الرؤوس والأكف.

وقد طابت نفس عثمان لهذا العفو ، الذي منعه من ان يفتتح عهـد خلافته بالدماء ... وانصرف الى منزله ، ليبدأ بمـا يبدأ به الملوك عندما يتربعون في العروش .

***

كتابه الى عماله :

هذا اول كتاب كتبه عثمان الى العمال :

اما بعد ، فان الله امر الائمة ان يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة ... وليوشكن ائمتكم ان يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فـاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ... الا وان اعدل السيرة ان تنظروا في

امور المسلمين وفيا عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم .

كتابه الى القواد :

اما بعد ، فانكم حماة المسلمين وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير او تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فاني انظر فيما الزمني الله النظر فيه والقيام عليه.

كتابه الى الجباة :

اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق واعطوا الحق به ... والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها ... الوفاء الوفاء ... لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ... فان الله خصمٌ لمن ظلمهم ...

كتابه الى العامة :

اما بعد فانكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن امركم ؛ فان امر هذه الامة صائر الى الابتداع ، بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ اولادكم من السبايا، وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن ، فان رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم امرٌ تكلفوا وابتدعوا ...

* * *

وذكر عثمان ، بعد ان كتب كتبه هذه ، ان عمر بن الخطاب كان يقول :

اوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعد بن ابي وقاص فاني لم اعزله عن سوء.

فدعا سعداً وقال له : لقد جعلتك عاملاً على الكوفة .

فقال : عامل الكوفة ، المغيرة بن شعبة ، وهو بالمدينة .

قال : عليَّ بالمغيرة ، فلما رآه قال له: لقد عزلناك عن الكوفة وولينا سعداً، ان عمر بن الخطاب لم يعزله عن سوء كما تعلم ، وقد اوصى الخليفة من بعده بان

يجعله من العمال، فخرج المغيرة وهو ينظر الى الارض . ثم قال عثمان : ابن عبدالله ابن عامر ؟ فدعي عبدالله ، فقال له :

لقد وليناك امر سجستان ... تذهب اليها حتى تنتهي الى كابل . او تخضع من ذلـــك القطر الكبير للأسلام ما لم يخضعه عاصم بن عمرو . وكانت ولاية سجستان ، اعظم من ولاية خراسان . ثم جعل يستعرض اسماء الولاة والقواد في الاقطار ، في العراق وبلاد فارس والشام وفلسطين ومصر ، وجعل يقول :

ليبق هؤلاء العمال في اقطارهم وسننظر في أمرهم بعد حين ... فعل ذلك دون ان يتردّد، فكأنه اراد ان يلفت نظر قومه، الى تعجله في قضاء الامر الذي يفكر فيه ... وعثمان ، اول خليفة زاد الناس مئة ، في أعطياتهم ، وهو الذي وضع طعام رمضان .

***

كلمة لا بد منها :

نختصر لك الآن اخبار يزدجرد ، ملك الفرس ، ليسهل عليك فهم ما تقرأ دون أن ترجع الى الروايات السابقة . التي قرأت .

خرج يزدجرد ، قبل ان يستولي المسلمون على المدائن، الى جلولاء ثم انصرف منها الى حلوان هارباً من وجه الفاتح العربي وانت تذكر كل ذلك على ما نظن، وسار من حلوان الى الري وعليها أبان جاذويه احد مرازبة الفرس ثم انتقل منها الى اصبهان ثم الى كرمان ثم الى خراسان ،

وبنى في خراسان في مدينة تدعى مرو بيتـاً لناره وجعل يبعث رسائله الى مرازبته وقواده يوغر بها الصدور على العرب ويدعوهم الى استرجاع المجد، وكان عمر بن الخطاب قد ولى الاحنف بن قيس أمر خراسان فزحف الاحنف الى مرو يريد حرب يزدجرد ففر هذا منها الى مدينة اخرى ثم الى بلغ مستعيناً بخـاقان ملك الترك ، وقد استعاد هدوءه عندما أقبل ملك الترك بأهل فرغانة يريد ان يحارب المسلمين ، ويسترجع عرش فارس ، بل قل انه استعاد الامل بالرجوع الى

عرشه. وعلى هذا الامل الخلاب رجع مع خاقان زاحفين الى خراسان وعسكرا في مرو الروذ . وترك يزدجرد خاقان فيها ليحارب الأحنف بن قيس وانصرف هو الى مرو الشاهجان وعليها حارثة بن النعمان ليستخرج منها امواله ... وقد نال في مرو ما أراد واستخرج الأموال . ولكن أهل فارس منعوه من حملها الى ملك الترك ودعوه الى وضع يده في يد القائد العربي ، ولكنه ابى وكره ان تذل نفسه بالخضوع للفاتحين ... فقاتلوه واستولوا على امواله فلم ير الا ان يعبر نهر بلخ مرة ثانية ويلجأ الى الملك التركي الذي سبقه الى فرغانة تاركاً حرب الأحنف . ولم يزل مقيماً بين الاتراك زمن عمر بن الخطاب كله ، حتى كفر اهل خراسان ونكثوا العهد في ايام عثمان كما سيجيء .

* * *

هذا ما راينا ان نمهد بـه لروايتنا الجديدة وانت ترى ان هذا التمهيد لا بدّ منه .

- ١ -

كانت في قصر كسرى فتنة لأهل القصر . وكانت جارية من جواري بوران بنت كسرى يوم عصبت بوران جبينها بتاج أنوشروان الملك الفارسي العظيم . ولم تكن وحدهـا في ذلك القصر بل كانت هنالك طائفة كبيرة من الجواري جميعهن وصائف ونساء شرف في البلاط الفارسي . على أنها كانت أحسنهن وجهاً وأكرمهنّ محتداً وأعفهن نفساً.. أبوها شقيق رستم القائد الفارسي الكبير الذي قرأت أخبـاره في رواية هند والمنذر وأمها من سلالة سابور قـاهر العرب الذي يدعى ذا الاكتاف . قتل أبوها في واقعة الجسر في العراق ومـد الموت يده الى امها وهي في مقتبل الحياة .

أسمها جهان روز واسم أبيها أبان زرد، ولا نعرف لأمها اسماً. فلما احس أبوها بالموت، في تلك الواقعة التي كاد المسلمون يضيعون فيها الأمل التفت الى فتى من قومه يدعى شهريار ، هو أمينه وأحد أركان حربه ، وقال له :

احملني الى خيمة بهمن جاذويه ، القائد العام ، فحمله القوم الى تلك الخيمة ، ولم يكن بهمن فيها، بل كان يطوف على فرسه بين صفوف الجيش.فقال ابان زرد لشهريار والقوم يسمعون : سألفظ الروح قبل أن أرى قـائد الفرس واني اريد أن أوصي .

قال : سأنقل اليه ما توصيني به .

– بل أوصيك أنت فقد يعجز القائد عن القيام بما أعهد اليه فيه .

قال : أوص يا مولاي .

قال : انك من اهل خراسان ولا تعرف منزلي في المدائن .

– بل أعرفه يا مولاي فقد دعوتني اليه يوم جلوس بوران الملكة على العرش.

– وتعرف زوجتي ؟

– أجل وقد رأيتها في ذلك اليوم .

– وابنتي جهان روز ؟

– ما رأيت لها وجهاً في منزلك ..

قال : انها في قصر الملكة .

– في قصر بوران ؟..

– نعم ، فقد جعلتها بين الوصائف ، ثم قربتها حتى أمست في نظرهـا خير من في القصر من النسـاء .

– سأراها اذن عندما أبلغ المدائن .. قل الآن ما تشاء .

قال : لقد رأيت ان الحرب اشتعلت نارها بيننا وبين العرب .

– نعم .

– ويخيل اليّ ان لهيب هذه النار لا يخمده غير مرّ الزمان .

– تريد ان تقول ان هذه الحرب طويلة العمر ..

– هذا ما أراه .

ثم تنهد قائلاً : ان الجو مكفهر يا شهريار ، وقد تنتهي الحرب باضمحلال هذا الملك الذي ندافع عنه ..

قال : إن العرب أضعف من ان يثبتوا في المجال ، اكثر من هذا العام .

قال : إن القوم الذين يقتحمون الأنهـار ، ويصرعون الأفيال يثبتون العمر كله ... ومع ذلك فلتنتصر فارس فهذا مـــا أتمناه واني لأستعذب الموت مع هـذا الامل .

وحنى رأسه للالم المبرح الذي يقطع أحشاءه، فخاف شهريار أن يغمض الموت عينيه قبل ان يوصيه فقال : اوصِ الآن يا مولاي ..

فتعلثم لسانه ... ثم جعل يتمتم قائلاً : جهان روز ... ابنتي ... احمهـا من حادثات الزمـان ... وكن لها أباً ... أو اخاً ... أو زو ... جاً ... واسلم الروح ... فدمعت عينا شهريار الأمين وقال للقوم :

احملوا جثة الأمير الى مدافن القتلى وخبروا بهمن جاذويه بمـا سمعتموه ، ثم شيع الجثة وهو يقول في نفسه : لقد بدأت اشعر بأن لي في المدائن في قصر الملكة فتاة هي قطعة من الروح ..

وجعل يردد اسم جهان روز ... وأنين الجرحى ، واصوات الاستغاثة تملأ الفضاء ...

* * *

- ٢ -

اضطرب البلاط الفارسي ، في اواخر السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وثار القوم في فارس يريدون ملكاً من سلالة كسرى . لقد كرهوا — والعرب على الأبواب ، والعراق غائص في لجة من الدماء — ان تستبد بهم فتاة مثل بوران ، لا تعرف من أحوال الملك غير الجلوس على العرش . واحضروا نساء كسرى ، وسألوهن عن الذكور من ابنائهن، فأرشدتهم إحداهن إلى فتى في الحادية والعشرين من العمر ، هو يزدجرد ، فرفعوه الى العرش ، وألبسوه تاج الملك .

ويزدجرد ، هو الملك الفارسي الذي عرفت ، وقد مرّ ذكر جلوسه على عرش اجداده ، في روايتنا السابقة . ولم يكن يزدجرد من اولئك الفتيان الذين خبروا الزمان، واهل الزمان ..

لقد عاش عند اخواله كما يعيش المنفي الجاني . بل كما يعيش الطريد الخائف من الموت . ولم يخطر له ولأخواله ان الدنيا ستدور وانه سيمسي ملك الملوك ..

أجل ، كان يزدجرد مغضوباً عليه لا يجسر على الظهور ، بل لم يكن له وجود في نظر أهل فارس. وكيف يظن القوم انه موجود، وانه حي ، وسيري احد ملوكهم قتل جميع الذكور الذين يجري فيهم دم شهريار بن كسرى، ليستقيم له امر الملك ويستأثر بنوه بالتاج من بعده ؟! ولم يعلم شيري ، ولم يعلم اهل فارس ، ان ام يزدجرد دفعته إلى اخواله ، قبل حادثة القتل التي جرت في القصر الابيض فنجا من الموت .

انتقل يزدجرد ، من وراء الجدران الى اعظم عرش في ذلك الزمان ، وتلفّت فرأى الناس يحنون الرؤوس ويمرغون الوجوه عند قدمي العرش ، وابصر عظماء الدولة وقواد الجيوش يخاطبونه ساجدين وعيونهم تنظر الى

الأرض . وهو في الحادية والعشرين ... فراشه الديباج والخزّ ... ولباسه الطيالسة المصنوعة بخيوط الذهب! والتاج الذي يضعه على رأسه يشتري بثمنه، اذا باعه نصف الشرق ... والمال بين يديه يعبث به كما يعبث الطفل بحفنة من تراب !!.

وسادة الفرس ووزراؤهم ورؤساء عشائرهم يحرقون بخورهم في المواضع التي تطأها قدماه .. وحسان فارس من جميع نواحي الدولة يتهن عزاً ودلالاً في بلاطه العجيب. كل شيء حول يزدجرد يدعو الى الغرور والزهو وجميع مظاهر البلاط مظاهر فتنة واغراء ...



- ٣ -

خرجت بوران من بلاط الملك تريد ذلك القصر الذي أعده لها يزدجرد . ولم يشأ الملك إن يجود عليها بوصيفة منوصائف القصر.. ! بلى، لقد جاد بجاريتها الخاصة تعيش معها ما طاب لها العيش ! أجل إن الوصائف والجواري اللواتي يغص بهن البلاط ، ملك يزدجرد .. ملك الفتى الخارج من الظلمة الى النور ، ملك الشباب الجامح الوثاب .. ! لا تخرج حسناء من القصر إلا باذنه . واية فتاة تجسر على الخروج او تجسر على طلبه ؟؟ وقد تغيرت حياتهن ، فقد كنّ وصائف للملكة ، فأمسين جواري للملك ... بل قل امسى معظمهن بين ليلة وضحاها حظايا له ، واقبلت الوفود تظهر خضوعها للملك الجديد وتدعو له بالنصر .

وكان شهريار، الذي أوصاه ابان زرد بفتاته، قد شهد معارك كثيرة خرجت العرب ظافرة منها ، فملّ الحرب واستأذن قواده في الرجوع الى المدائن . وشهريار فتى أسمر الوجه جذاب الملامح تبدو على وجهه مظاهر الشرف والاباء . وكانت زوجة ابان زرد قد عرفت ان زوجها قد قتل يوم الجسر، فاستسلمت الى لوعتها ، وقضت لياليها تبكي ذلك الزوج الأمين، الذي عاشت معه عيش الرخاء والهناء ولكنها لم تقل كلمة لجهان روز ، ولم تشأ ان تفاجئها بذكر الموت. وبينا

كان شهريار راجعاً الى المدائن لينقل الى زوجة مولاه وصية زوجها ويبسط ظل حمايته على جهان روز ، مشى الموت بخطى مجنونة الى تلك الزوجة وانشب فيها مخالبه القاسية، فهوت كما تهوي الزهرة النضرة تصفعها العاصفة الهوجاء ، ونقلت جثتها الى مدافن الاشراف محمولة على اكف العظماء والنبلاء ، وقد دلّ الاسى البادي على الوجوه ، على ان القوم يشعرون بان المرأة الذاهبة الى القبر هي الشخص الوحيد الباقي من سلالة سابور . وقد يكون هنالك شعور آخر هو انهم كانوا يعلمون، انها زوجة شقيق رستم ورستم سيد القواد، وكبير رجال السيف . ولكن القوم يتعظون بالموت عندما يرون الموت ... فاذا احتجب موكبه عن العيون انصرفوا الى ما تعودوه من اللذات وضاعت لوعتهم بين مظاهر الحياة . لقد نسوا ، بعد رجوعهم الى المدينة ، حفيدة الملوك التي طواها التراب، وطلقوا دارها ، التي كانت تغص منذ حين بالنبلاء والاشراف فلم يبق في تلك الدار غير الجواري والغلمان اصحاب المروءة والوفاء .

وجهان روز نفسها شيعت جثة امها والدمع في عينيها ، والكآبة في قلبها ،دت تصرعها اللوعة عندما فاجأتها إحدى الجواري بقولها : ان اباها صرعه السيف! مسكينة جهان روز.. لقد جارت عليها الاقدار وهي في زهرة العمر، ودفعتها بيدين حديديتين الى اشداق الهوان والذل . بكت والديها ، وما رافقها في حياتها من هناء وعزّ ، وبكت بهجة الامس وقد ايقنت بأن هذه البهجة ، لن تعود .. واحست بالوحدة .. الوحدة الرهيبة القاتلة .. بل احست بالحاجة الى نصير تحتمي به من غدر الايام وتستعين بعاطفته وحنوه على جور الزمان ..

اجل ان عمها قائد الجنود وفارس كلها تعلق الامل على سيفه .. ويزدجرد نفسه يهش له ويجود عليه بابتسامة الرضى واركان الدولة ، ينظرون اليه نظرهم الى منقذ الوطن .. ولكنه رجل حرب وقد لا تجد فيه ذلك الامل الذي تعلل نفسها به ويزدجرد الملك ؟؟! وماذا يصنع يزدجرد .. انه سيجعلها حظية .. ثم يملها كما يمل سواها ويقذف بها الى هوة العار . وهذا اعظم واشد ما تلاقيه ، من ظلم الاقدار ... لقد اذن لها في تشييع امها ، دون ان يراها ، وأمر رئيس الخصيان ، بان يأمرها بالرجوع الى البلاط ، بعد شهر ... وهذا معناه انها

أسيرة ، وان تكون في القصر الملكي ... وانها عبدة وان تكن أمها من سلالة الملوك !!.

وأي أمل يخفق عليه فؤادها وهي في القصر ؟؟ ! أتحلم بالحرية وهي مقيدة بسلاسل من الذهب ... أم تطمح بالنور وهي داخل نطاق من الظلام ... انها شقية ... وقد لا تجد شقاء أبلغ من الشقاء الذي تحسّ به ... وليس في بلاد فارس ، من يستطيع انقاذها مما هي فيه . ومضت الايام الاولى ، وهي في منزل أبيها ، وليس بين الجواري والغلمان ، من يستطيع ان يخلق لها ظلاً للأمل . وعمها في ساحات الحرب ، بعيد عنها ، وقد يعجز وهو قريب منها ، عن ان يمد اليها يدالمعونة إلا اذا شاء يزدجرد، ويزدجرد بين نسائه وجواريه لايبالي بالنفس المعذبة والقلب الكئيب ... والحرب ، بما فيها من خطر وهول ، لا تخرجه عن استهتاره ولهوه ...

***

– ٤ –

أقبل شهريار الخراساني الى المـــدائن في ليلة من ليالي الشهر الاخير من السنة الثالثة عشرة ، وكان الليل قد ذهبت طائفة منه ، ولم يشأ ان يصبر الى الصباح.. إن في صدره من عواطف الاخلاص والوفاء ما لا يستطيع معه الصبر .

مشى بخطى متثاقلة الى منزل مولاه . وعندما دنا منه ، رأى من خلال احدى النوافذ نوراً يروح ويجيء ؛ فقال في نفسه : هذه هي غرفة المرأة المنكودة الحظ التي خسرت زوجها ،

واستأذن في الدخول ؛ فبرز له احد الغلمان قائلاً : من انت ايها الفتى ؟

قال : رجل من رجال أبان زرد .

– : وماذا تريد ؟

– احمل من القائد رسالة الى زوجته . فغصّ الغلام بالبكاء ثم قال : ولكنك لا تجد هذه الزوجة .

– وأين هي ؟

– لقد كرهت العيش بعد مولاي وآثرت اللحاق به الى القبر !! فدفعه بيديه ثم دخل وهو يقول : ويلك أتهزأ بي في مثل هذا الموقف ايها اللعين ؟!

قال : لا والله ، وانما انقل اليك ما جرى ، وانا قد كفنت مولاتي بيدي ..

ورفع صوته بالبكاء ؛ فأحسّ شهريار ان الارض تدور به ، وهو يكاد يسقط على الارض .. لقد جاء ينعي للمرأة زوجها ، فاذا الغلام ينعي له الزوجة ! وأي شيء يصنعه في المنزل ، بعد هذه المفاجأة ؟ أيـــدخل نادباً الضحيتين ، وباكياً الزوجين ، وهو الوصي الذي يحمل العزاء لجهان روز ؟ أم يخرج الى حيث يقضي الليل بالرثاء ، ثم يذهب الى البلاط في الصباح ليبتسم للفتاة قائـلاً لها : انـكِ لم تخسري ابويك وأنا حي ؟

وخيل اليه ان الجدران ستنقض على رأسه ... فاستند الى الباب وقد حبس انفاسه ، ثم جعل يمسح دموعه الصامتة وهو ينظر الى الارض نظرات مجنون . ولم يلبث حتى صحا من ذهوله ، ففتح الباب بهدوء وهو يقول : متى كان ذلـك ايها الغلام ؟

– منذ عشرة ايام .

قال : لا تنقلوا الخبر الى جهان روز فأنا سأتولى الامر .

– ولكنها عرفت كل شيء .

– ومن خبرها بذلك ؟

– جارية امها واثنان من القواد .

–ولم ترافق امها الى القبر ؟

– بلى ، وستمكث بهذا المنزل شهراً ثم تعود الى البلاط . فتنهد قائلاً : وهي هنا الان ؟

– نعم .

– وأستطيع ان اراها ؟

فتردد الغلام قليلاً ثم قال : سأستأذن لك .. ولكن لا أعلم ماذا أقول .

- تقول لها إن رجلا من رجال الجيش ، قدم الساعة لينقل اليها وصية أبيها.
- وما هو اسم الرجل ؟
قال الا تذكر انه كان لمولاك أمين من خراسان يدعى شهريار ؟
- بلى ، ويخيل اليّ اني أعرفه ، اذا رأيته .

قال : انا هو فانظر الى وجهي ... فتفرس الغلام فيه ثم قال : اجل لقد عرفتك فانت شهريار .

قال : ادخل الآن .

وكانت جهان روز في حجرتها ، وهي تذرف الدموع ، وأمامها جاريتان تسألانها بكآبة وحزن ان تكف عن البكاء ، فمثل الغلام بين يديها قائلاً : بالباب رجل يريد ان يرى مولاتي جهان روز ،

فذعرت الفتاة قائلة : من رجال البلاط ؟

- لا، بل من رجال مولاي أبان زرد وهو قادم من ساحة الحرب،فكفكفت دموعها وجعلت تقول : لم يبق لابان زرد رجال.. أنه من رجال الملك وقد جاء يأمرني بالرجوع .

قال: اعرف الرجل يا مولاتي فقد كان أحب الفتيان الى مولاي وهو أمينه.

فقالت احدى الجاريتين : اذكر اسمه .

قال : شهريار .

قالت: وانا اعرف شهريار يا مولاتي فليدخل .

فشعرت جهان روز بشيء من العزاء ، ثم قالت : لينتظرني في قاعة الجلوس.

ودخل شهريار والبكاء يتردد في صدره ؛ ثم اقبلت جهان روز تتهادى بين الجاريتين ، وقد هامستها احداهما قائلة : انه شهريار نفسه ؛ فجثا الخراساني على ركبتيه وقال : ما جئت لأذكر الحادثين الرائعين في هذه الساعة ، بل اتيت لأفي بالوعد الذي عاهدت مولاي ، قبل موته على الوفاء به ؛ فمدت يدها اليه قائلة : يخيل اليّ اني اسمع صوت ابي القتيل يخاطبني الآن ... انهض وخبرني بما سمعت.

فنهض وهو لا يرفع رأسه ثم قال : لقد أراد مولاي ، أن يجعلني على ضعفي حامياً لابنته جهان روز ، التي هي احدى وصائف الملكة ...

ورفع عندئذ عينيه فاضطرب وكأنه لمس قضيب الساحر ... لقد شعر بعد تلك النظرة ، ان عاطفة اخلاصه لمولاه، وعاطفة اشفاقه على ابنته أمستا عاطفة حب !!! وأحسّ بالغرام يتغلل في فؤاده ويدب بين الضلوع ... أجل لقـــد أصابته تانك العينان السوداوان في القلب ... وأوحى اليه الهوى ذلك الوجه الذي تعلوه الكآبة ، وتغمره الاحزان ...

وكانت جهان روز قد استندت الى جاريتها ، وجعلت تتفرس في ذلك الفتى الذي تتردد بين شفتيه تلك الالفاظ التي رددها أبوها قبل أن يلفظ الروح . ثم لجأت الى احد المقاعد وقد تفجرت من عينيها الدموع ، فقال شهريار وصوتـه يرتجف : خير لي ولك ان انصرف الليلة على أن أعود عند الصباح .

– بل تبقى ، فان هذا البكاء الذي تراه ، مظهر من مظاهر العزاء ... قل الآن كيف قتل أبي .

قال : ليس من الرأي ان اذكر الآن ما لا اطيق ذكره . لقد عرفت ذلك من سواي .

– ولكني أريد انتصف لي ذلك البطل، وهو يجود بنفسه في سبيل وطنه...

– لقد مات كما يموت جميع القواد في الحرب! ولكن بعد ان قتل من العرب خمسة رجال .

– وأين كان بهمن جاذويه ؟

– كان بعيداً عن الجسر يدفع الناس الى الساحة التي تهرق فيها الدماء وكان يقول :

اقذفوا بالعرب الى الماء .

فخفضت صوتها قائلة : ولفظ أبي روحه وهو في الساحة ثم ضاعت جثته...

– بل نقلناه وهو جريح الى خيمة بهمن ولم يلبث حتى أغمض عينيه وهو يردد اسم ابنته جهان روز ..

قالت : اذكر الآن وصيته .. فاراد في تلك الساعة ان يكون رجلاً ، فلم

يستطع ، وفضحته دموعه المنحدرة على خديه ، كان ذلك القتيل احب الناس اليه .. فبكت الفتاة مثله ، وايقنت عندئذٍ ان لها شريكاً في مصابها ، بل أيقنت ، وهي بين يدي لوعتها الثائرة ، ان شهريار ، هو المعزي الذي ارسلته اليها الاقدار . وتكلمت الدموع، بتلك البلاغة الصامتة، التي هي همس الروح.. وشهريار ساكت يعالج بكاءه ..

فقالت : الوصية يا شهريار .

قال : انها بعض كلمات ذكر بها مولاي اهل بيته ..

– ولكن اريد ان اسمع هذه الكلمات كما هي :

قال : تمتم القتيل اسم جهان روز ثم قال والروح تحشرج في صدره : انها وصيفة بوران الملكة . فاحميها ، وكن لها أباً ، أو أخاً .. وتردّد شهريار ولم يستطع ان يقول الكلمة الاخيرة : أو زوجاً .. على ان جهان روز عرفت ان هنالك لفظة اخرى اراد الفتى كتمانها .. ولعلها عرفت ان تلك اللفظة تعني الزواج .. فأحست ان في صدرها عاطفة جديدة ، تهدأ معها اللوعة ، فقالت : لقد كنت بين وصائف بوران .. قبل ان يجلس يزدجرد على العرش . وتنهدت تنهد المرأة الخائفة .

فقال : وقد انتهت مهمتك في البلاط ?

– بل أعود اليه بعد ان يمر الشهر .

– وماذا تصنعين فيه ?

– ان للملك ثلاث زوجات وقد يمسين أربعاً ..

– وكيف يقولون انه في الحادية والعشرين ?

– اجل في الحادية والعشرين وقد تزوج النساء الثلاث وهو عند اخواله .

– وانت الآن من وصائفهن ??

– نعم ، ثم ارتجف صوتها قائلة : ومن يعلم فقد يحاول الملك غداً ان يجعلني من حظاياه فأخسر كل شيء ..

فذعر الفتى، وجعل يحدق اليها بعينين ملتهبتين، ثم قال: لا أظن ان يزدجرد يفعل ذلك وانت ابنة ابان زرد !!

– ومن يبالي بأبان زرد وهو في القبر ؟

– اذا نسي الملك ابان زرد فهو لا ينسى قائد جيشه الاكبر ..

– عمي ؟

– نعم فهو اعظم رجال الدولة اليوم .. فجعلت تهزّ رأسها وتقول : اخشى ان يعمد هذا العم الذي هو القائد الاكبر الى ما لا يخطر لاحد من الناس .

– الى ماذا ؟

– الى ان يحملني بيديه ويقول للملك : هذه ابنة اخي ابان زرد اجعلها عبدة لك ! !

قال : اتظنين برستم الظنون ؟

– ولماذا لا اظن وقد لمست بيديّ الاثنتين عنايته بي ؟!! قل يا شهريار ألم تكن انت اقرب الناس الى ابي !

– بلى ..

– ألم يمرّ على موته بضعة اشهر ؟

– بلى

– وعمي رستم الم يبلغه خبر هذا الموت ؟

– لقد بلغه ذلك بعد ثلاثة ايام .

– وماذا فعل ؟؟ أبعث الينا جماعة من اركان حربه ، تحمل الينا تعزيته ام ارسل الى امي كتاباً يظهر فيه لوعته على اخيه ، واهتمامه لامرها وامر جهان روز ؟؟! ان شيئاً من هذا لم يصنعه ولم يخطر له الا ان يكون سيد المحاربين واول المقربين الى الملك .

قال : قد يكون فعل ذلك وانت لا تعلمين ..

– بلى اعلم وتعلم الجواري انه لم يفعل شيئاً مما ذكرت ، فأراد ان يدافع عنه بصفته جندياً فقال : لا تلوميه ، فالعرب اعداؤنا في العراق اليوم ، وهو يعد العدة للقضاء عليهم ليسلم الوطن .

قالت : كنت اظن اني استحق كلمة عزاء من هذا العم الذي تدافع عنه والذي جعلته قساوته شريكاً للقدر الذي جار ..

قال : سيفعل غداً ما لم يفعله اليوم .

– اجل ، وسينتزعني من فم الاسد الذي يتحفز للوثوب .

قال : اراك تنظرين الى الناس كأنهم جميعهم أعداء .

– بل انظر اليهم كأنهم ذئاب .. لقد قتل ابي في ساحة الحرب ، ثم لحقت به امي بعد حين ، فلم ارَ من اولئك الناس الذين غمرهم فضل ابان زرد ، غير الجفاء ، ولم يقم بين اهل المدائن ، بل بين اهل فارس ، من يعطف عليّ الا جواريّ اللواتي يضمهنّ هذا القصر !!

– والا فتىّ من خراسان هو .. انا .. !! اتريدين ان تثقي بوفائي كما كنت تثقين بمولاي ؟

قالت : انك قادم باسم ابي فلا استطيع الا ان اثق بما تقول .. ولكن هذا الوثوق سيضيع .. !

– لماذا ؟

– لاني اسيرة في قصر يزدجرد وانت في ساحة الحرب !

قال : لي عام كامل اقضيه خارج الساحة .

– وكيف يكون وفاؤك ، وانت لا تراني ، وانا لا اراك ؟

قال : سأطلب الى الملك ان يأذن لك في الخروج من قصره .

– وتجروء على ذلك ؟

– نعم ، وسأقول له ان ابان زرد ، امرني قبل موته ، بان افعل .

– واذا أبى ؟

– اجثو عند قدميه ، واستحلفه بتاجه وعرشه ، ثم اذكره بذلك القتيل الذي اوصاني بابنته ونفسه تحشرج في الصدر ..

– وتظن ان يزدجرد يلين لمثل هذا القول ؟

– بل اعتقد ، وسأمثل غداً بين يديه واطلب جوابه ..

قالت : نفسي تحدثني بان القدر سيتمادى في جوره .

– اما انا فلا اشك في عطف الملك وسترين اني كنت على صواب ... وكان

قلبه يضطرب ، وقد احسّ ان حياته ستكون شقاء اذا لم تكن جهان روز ، بهجة هذه الحياة .. ونهض وهو يهمّ بالذهاب .. ثم تردد كأن في صدره شيئاً آخر تمنعه لوعة جهان روز، من ان يبوح به، ورأت الفتاة هذا التردد فقالت له: اتنصرف الآن ؟

– اجل فلم يبق لي ما اقوله بعد ان وثقتِ بي ..

– ومتى ترجع غداً ؟

– اقابل الملك غداً ثم أعود .

– وتمكث العام كله بالمدائن ام بخراسان ؟

فصبغ الحياء خديه ، وتلعثم لسانه ، ثم مـا لبث ان استعاد عزيمته فقال : سأمكث بالبلد الذي تمكثين به ! فغمر العزاء فؤادها فقالت : ان بلدي المدائن كما ترى .

– وأنا سأبقى في المدائن الى الابد ؟

قالت : هب اني بقيت اسيرة في قصر يزدجرد وانت لا تستطيع الدخـول اليه عندما تشاء ؟

قال : استحلفك بتراب ابيك وامك الا تذكري هذا الاسر فأنا لا اطيق ان اعترف بوجوده .

– ولكنه موجود .

– بل هو زائل ولا يستطيـع يزدجرد نفسه ان يعمد اليه .

قالت حقق الله أملك فأنا لا يطيب لي الا ان اقيم العمر كله بهذا المنزل لأرى فيه المخلصين لي ، من الجواري والغلمان ..

– بل لترى فيه فتى من خراسان لا يعيش الا بهذا الاخلاص الذي تذكرين.. اجل يا جهان روز .. سيكون شهريار الخراساني غلاماً من غلمان هذا القصر ، بل عبداً من عبيده .. وسيبذل دمه ويجود بحياته ، في سبيل الفتاة التي كان ابوها أحب الناس اليه . ثم استطاع ان يقول قبل ان ينصرف : ان شقاء جهان

روز هو شقاء شهريار ، ولوعتها لوعته ، وهناءها هناؤه ، والى اللقاء .. وخرج والدموع تتساقط على خديه .

فقالت لجاريتيها : لقد لمست الوفاء بيديّ وأحسست بالعزاء .

فقالت احداهما : انه كان يريد ان يقول شيئاً آخر .

قالت : أصبتِ ، وأنا قد فهمت كل شيء ..

***

- ٥ -

لم ينم شهريار ليلته ، فقد كان يحلم بوفائه ، ويعلل النفس بالمنى ، فلما طلعت شمس اليوم الثاني ، غدا على قصر كسرى واستأذن على يزدجرد .

وهذا معناه انه استأذن على إله فارس !! نعم ، كان ملك الفرس ، في ذلك الزمان ، في مظاهر عظمته وعزّه ، وجلوسه للناس ، يشبه الآلهة التي تذبح الذبائح على اقدامها المقدسة ! الحياة والموت في فمه ، وهو يهب العز لمن يشاء ، ويقضي بالذل على من يشاء ..

قيل ليزدجرد ، ان رجلاً من رجال الحرب يرغب في المثول بين يديك وهو من الذين شهدوا واقعة الجسر .

قال : ادخلوه فقد يكون رسول احد القواد .. ومشى الى مجلسه الخاص والغلمان بين يديه يحملون المباخر. ودخل شهريار .. ثم سجد متهيباً صامتاً وكاد وجهه يلامس الارض ، فنظر اليه يزدجرد ، كما ينظر الى احقر عبد من عبيد بلاطه ثم قال : ارفع رأسك !! ..

فرفعه .. فقال : من انت ؟

- عبد من خراسان .

- واسمك ؟

- شهريار .

روز هو شقاء شهريار ، ولوعتها لوعته ، وهناءها هناؤه ، والى اللقاء .. وخرج والدموع تتساقط على خديه .

فقالت لجاريتيها : لقد لمست الوفاء بيديّ وأحسست بالعزاء .

فقالت احداهما : انه كان يريد ان يقول شيئاً آخر .

قالت : أصبتِ ، وأنا قد فهمت كل شيء ..

***

- ٥ -

لم ينم شهريار ليلته ، فقد كان يحلم بوفائه ، ويعلل النفس بالمنى ، فلما طلعت شمس اليوم الثاني ، غدا على قصر كسرى واستأذن على يزدجرد .

وهذا معناه انه استأذن على إله فارس !! نعم ، كان ملك الفرس ، في ذلك الزمان ، في مظاهر عظمته وعزّه ، وجلوسه للناس ، يشبه الآلهة التي تذبح الذبائح على اقدامها المقدسة ! الحياة والموت في فمه ، وهو يهب العز لمن يشاء ، ويقضي بالذل على من يشاء ..

قيل ليزدجرد ، ان رجلاً من رجال الحرب يرغب في المثول بين يديك وهو من الذين شهدوا واقعة الجسر .

قال : ادخلوه فقد يكون رسول احد القواد .. ومشى الى مجلسه الخاص والغلمان بين يديه يحملون المباخر. ودخل شهريار .. ثم سجد متهيباً صامتاً وكاد وجهه يلامس الارض ، فنظر اليه يزدجرد ، كما ينظر الى احقر عبد من عبيد بلاطه ثم قال : ارفع رأسك !! ..

فرفعه .. فقال : من انت ؟

– عبد من خراسان .

– واسمك ؟

– شهريار .

فقهقه قائلاً : اري عبيد خراسان يحملون اسماء ملوك الفرس !! ان جدّنا يدعى شهريار وقد تكون انت من ولده !!

فاضطرب الفتى لاستخفاف يزدجرد ، ولهذه اللهجة المنفرة يخاطب بها الملك رجال جيشه .

ولكنه لم يجب ، ثم قال يزدجرد : ومن أرسلك الينا ؟

– قائد من قواد فارس صرعه السيف . قـــال : كذبت فقوادنا جميعهم احياء .. فجعل الخراساني يتفرس في هذا الملك الذي رفعته الاقدار الى العرش.. ثم تمتم قائلاً : لم امثل بين يدي مولاي لأنقل اليه الاكاذيب !! قلت اني رسول قائد من قوادك ولم أكن كاذباً .

قال : اذكر اسمه .

– ابان زرد يا مولاي .

فقال دون ان يتردد: لم يذكر امامنا هذا الاسم من قبل .. من هو ابان زرد؟

– شقيق رستم القائد الاكبر ..

– شقيق رستم ولا يعرفه الملك ؟

– نعم يا مولاي .

– ومتى قتل ؟

– قبل ان تجلس يا مولاي على عرش فارس .

– ولكنك تقول انك رسوله الينا .

– اني رسوله الى صاحب التاج الفارسي .. وقد كانت بوران ملكة يوم لفظ ابان زرد روحه في واقعة الجسر التي خسرتها العرب .

قال : وقد كانت بوران ملكة .. نعم .. اذن فأنت رسوله الى بوران وان الملك ليطيب له ان يسمع حكايتك .. قل الآن ما تشاء .

قال : لقد جعلت بوران الملكة بين وصائفها فتاة تدعى جهان روز .

قال : فتاة تدعى جهان روز .. ثم ماذا ؟

– وهذه الفتاة هي ابنة القتيل ابان زرد .

– وهي ابنة القتيل ابان زرد .. وبعد ذلك ؟

– فلما احسَّ ابوها بالموت ، دعاني اليه وجعلني أباً لفتاته ، وطلب اليَّ ان التمس من الملكة اخراجها من البلاط ، لأستطيع ان اقوم بما عهد اليَّ فيه .

فقال هازئاً : وهل قال لك احد ان بوران تقيم اليوم ببلاط الملك ؟

– لا يا مولاي ، فأنا أعلم ان الملك وهب لها قصراً تقيم اليوم به .

– وكان عليك ان تعلم ان الفتاة التي أمست ابنة لك تقيم معها في ذلك القصر .

– بل هي في بلاطك يا مولاي وبين جواريه ..

– ومن قال لك ذلك ؟

– هي نفسها فقد رأيتها أمس في منزل أبيها ، وهي فيه باذن منك ، فجعل يزدجرد ينظر الى غلمانه وهو لا يفهم شيئاً مما يسمعه ، ثم قال : رأيتها انت أمس ؟؟

– نعم .

– وكنت تعرفها من قبل ؟

– لا !

– وماذا تصنع في ذلك المنزل وهي من جواري الملك ؟

– خرجت اليه لتشيّع امها الى القبر !

فوضع يده على جبينه ثم قال لحاجبه : عليَّ برئيس الخصيان. ولم يلبث ذلك الرئيس حتى سجد عند قدميه ، فقال له : أتعرف جارية من جواري البلاط تدعى .. جهان روز ؟

– أعرفها يا مولاي ؟

– وأين هي الآن ؟

– خارج البلاط وستعود اليه في آخر هذا الشهر .

– ومن اذن لها في الخروج منه ؟

– انا يا مولاي وقد أمرتني انت ان أفعل !

– وكانت من وصائف بوران ؟

– أجل ، على ان الملك أراد أن تبقى الوصائف جميعهن في بلاطه ، ولم يشأ أن يعطي بوران غير جارية واحدة .

قال: لقد ذكرنا ذلك الآن..ولكننا لا نعرف جهان روز ولم نرَ لها وجهاً.. أتقول انها من الحسان ؟

– بل أقول انها زهرة من ازاهير الربيع ..

– وكيف لا يعرفها الملك ؟

– لان في بلاطه مئة جاريه هنّ أجمل حسان فارس .

فقال لشهريار : لقد وصف لنا هذا الخصي الآن جاريتنا التي ذكرت ، فماذا تلتمس من الملك ؟

– ألتمس منه أن يهبها لعبده شهريار الخراساني .

فقال وكأنه يخاطب نفسه : رآها عبدنا الخراساني فأحبها ، ثم رأى ان الملك لا يليق بها ، فأرادها لنفسه ..!

قال : عفواً يا مولاى فأنا لم يخطر لي غير الوفاء أرضي به نفسي ونفس ذلك القتيل الذي قضى حياته وهو يدافع عن أمته .

– اي انك تريد ان تقوم بواحد من أمرين ، اما ان تعنى بجهان روز عناية الوالد بولده ، واما أن تجعلها زوجة لك .

قال : اني لم أفكر في الزواج يا مولاي .

– اذن فكرت في الأمر الآخر وملك الفرس يستطيع ان يقوم به كما تقوم به انت .. والتفت الى رئيس الخصيان قائلاً : اريد أن ارى جهان روز الساعة فخرج الرجل دون أن يتكلم ، وكان شهريار يرتجف من الغضب وهو لا يجسر على ان يقول كلمة .

ثم قال يزدجرد : سننظر في امرك أيها الخراساني عندما تجيء جهان روز ..

فقال في نفسه : يريد أن يستعرض الجمال قبل ان يجود بجوابه فالويل له .

ثم خطر ليزدجرد ان يعبث به فقال :

لماذا خصك ابان زرد بوصيته ولم يعهد بها الى أخيه ؟

قال : كان رستم بعيداً عنه ، وكنت أنا من رجال حربه ومن أقرب الناس اليه .

قال : هب ان الملك لم يؤمن بما قلته له .

قال : تشهد لي طائفة من أركان الحرب ويستطيع الملك أن يسأل بهمن جاذويه الذي كان يقود الجيش يوم الجسر .

– ليس لبهمن جاذويه رأي في هذا ، ان الرأي لرستم وحده ، فهو عم الفتاة والقائد الذي نثق به .

– اذا أراد الملك امراً فعله دون أن يشاور الناس !

– ولكننا نريد أن نعمد الى المشورة في مثل هذا الأمر .

قال : استحلفك بدم القتيل يا مولاي .

قال : يقتل كل يوم ألف رجل في الميادين ويتركون بنيهم بين يدي القدر الساخر يفعل بهم ما يشاء ، أفلا يطيب لك وللقتيل الذي يخاطبنا باسمه ان تعيش جهان روز بين يدي الملك وفي ظله ؟

– ان فارس كلها تعيش في ظل الملك وليس هذا ما أراده ابان زرد .

قال : تموت ارادة ابان زرد عندما يريد يزدجرد !! لقد طلب اليك ان تكون أباً لابنته يوم كانت بوران ملكة الفرس . اما اليوم فقد صار يزدجرد ملكاً ويزدجرد وحده هو الذي يحمي الضعفاء ويكون أباً للفقراء !

وظل يعبث به وهو بين وسائد الديباج ، وشهريار جاثٍ على ركبتيه ، حتى أقبل رئيس الخصيان وغلمانه ، بينهم جهان روز ، فرأى الملك مظهراً من مظاهر الفتنة وآية من آيات الجمال . وكانت جهان روز تتعثر بخجلها وتكاد من خوفها تسقط على الأرض . تلك هي المرة الاولى التي ترى فيها الملك وجهاً لوجه . وقد قام في ذهنها ورئيس الخصيان يدعوها الى البلاط ، ان الأقدار كتبت لها الشقاء الى الأبد ، في البلاط الفارسي .. فلما توسطت القاعة ، أومأ إله الفرس الى الغلمان بالانصراف وخاطبها قائلاً : لم نكن نعلم من قبل ان اباك قتل في العراق ،

ولو عرفنـــا ذلك لاظهرنا لجميع عظماء الدولة انك أمسيت ابنة للملك ، وانك سيدة الوصـــائف والنساء في البلاط ، فجثت بالقرب من شهريار وجعلت تمتم الفاظ الشكر ..

ثم قال الملك : أتعرفين هذا الخراساني ؟

فايقنت عندئذ بأنه يريد ان يتبين صدق الرجل فقالت: ما عرفته إلا أمس.

– وهل كان من رجال أبيك كما يقول ؟

– أجل يا مولاي فغلمان أبي يثبتون ذلك .

قال : متى دخلت البلاط ؟

– بعد مرور الشهر الاول على ملك بوران .

– وطابت لك الاقامة به .

– وأي امرىء لا تطيب له الاقامة بقصر الملك .

قال : والآن ؟

– والآن ماذا يا مولاي ؟

– أتؤثرين البقاء فيه على الخروج منه ، ام تؤثرين الفقر والذل على نعمة الملك وفضله فأحست الفتاة المنكودة الحظ ، انها لم تقف في حياتهـــا موقفاً أصعب من هذا ...

أتقول للملك : خير لي ان اصون شرفي ويكتنفني الفقر خارج قصرك ، من أن أتمرغ بالذهب ولا شرف لي ؟! أم تقول : الموت وأنا في هذا القصر ، خير من الحياة وأنا بعيدة عنه ؟!

الا تعلم جهان روز ، انها اذا أغضبت يزدجرد خسرت حياتها وخسر شهريار حياته وهل تطيق العيش في البلاط، وهذا الفتى النبيل الذي ارسلته اليها السماء، يعود الى العراق ؟ مسكينة .. لقد ضعضعهـا ذلك السؤال الفجائي فهي لا تعلم ماذا تقول ..

وكان الملك يبتسم وعيناه تلمعان .. وقد عرف ان الفتاة تتردد في الجواب ، فقال : قولي يا جهان روز .

– ليس لي ما أقوله يا مولاي .

– ولكن الملك يأمرك بذلك .

لو قتلني الملك الآن عند قدميه لما فعلت ..

قال انهضي فقد اذنّا لك في الجلوس .

ففعلت ما أمرها به وهي ترتجف ، ثم قال : لقد جاء هذا الرجل يسألنا أن نأذن لك في الخروج من البلاط لتعيشي في ظله .!

– ذلك ما أوصاه به أبي يا مولاي .

– وصدقت انت ما يقوله ؟

– نعم يا مولاي .

– إذن فأنت تؤثرين العيش معه على العيش في البلاط .

فسكتت ..

فخيل الى الملك عندئذٍ انها آثرت عليه هذا الخراساني .

ولم يبق إلا ان يغضب ، ويهيج ، ثم يثور ، فقال : قم يا شهريار .

فوقف الفتى وقد تعبت ركبتاه ، فقال : تستطيع الآن ان تقول لروح القتيل الذي وصّاك ان يزدجرد الملك لم يعبأ بوصيته ، ولم يسلّم اليك ابنته ، وان ارواح القتلى جميعها لا تقدر على اخراجها من هذا القصر .

فحاول ان يستعطفه ، فأسكته قائلاً : كلمة واحدة تقولها تبعث بك الى القبر .. احذر ان تخرج هذه الكلمة من فمك واسمع ما نأمرك به . واستوى جالساً وهو يصدر امره : انت تعلم بأي مكان يقيم رستم وجيشه ، فاخرج من المدائن في هذا اليوم،وسر الىهذا الجيش حتى تنتهي اليه بعد بضعة ايام. والويل لك ايها الخراساني اذا خطر لك ان تهزأ بأمر الملك . واومأ الى رئيس الخصيان وهو يقول : واجعل انت هذه الفتاة في القاعات التي هي في الجناح الشرقي فقد اصبحت من حظايا الملك .

ونهض قائلاً : إذا مرّت عشرة أيام ولم تكن ايها الخراساني ، في جيش رستم فدمك حلال لكل فارسي .. اخرج.. واذهب انت ايها الخصي بفتاتك الحسناء.

ومشى ، والغرور في برديته ، وهو ينظر كالسكران ، الى جـانبيه . ودفع الحجـاب شهريار بالحراب حتى أخرجوه من القصر !! ونار الغرام تتـأجج في صدره ، ونار الحقد في عينيه ..

* * *

- ٦ -

مرت ثلاثة أعوام، خسر فيها ملك الفرس عرشه ، وأكرهته سيوف المسلمين على ترك عاصمة ملكه ، الى جلولاء ، ومنهـا الى حلوان كا مر ، ومعه نساؤه وحظاياه ، بينهن جهان روز وهي حبلى ، وقد جعلتهـا الاحزان ، وخشونة الخصيان في البلاط جلداً على عظم . وكان يزدجرد قد ملّها ، ولم يكن يطيق وهو في جلولاء ان ينظر اليها كا ينظر الى نسائه.وليس في ذلك شيء من العجب فقلب جهان روز ، قلب فتاة خنقت الأقدار عاطفتها الاولى ، ودهمتها الحادثات وهي في فجر العمر ، وقلب يزدجرد ، قلب فتى عطشان الى العز واللهـو ، تضطرم في صدره نار الشهوة الطائشة ، وتهيج في داخله ثورة الجنون ..

احبها كا يحب كل عذراء حسناء في قصره وملأ حجرتها القريبة من قاعاتـه الخاصة جواهر وذهباً ، وأحاطها بالجواري والغلمان يسجدون لها كا يسجدون له !! على ان حبه كان حباً جانياً كا ترى ؛ هكذا يحب النمر فريسته ، وهكذا يعطف الوحش الضاري على الظبي الضعيف ، الذي تلقيه الاقدار بين مخـالبه الدامية . وجهان روز ، تبكي ابويها ، وتبكي حظها ، وتبكي عاطفتها التي خنقتها يد الظالم ، وتضطرب ، ويستولي عليها الذعر ، كلما نظرت الى الملك المحسن اليها ، وكلما فكرت في احسانه !! ولكن الضعيف المنكود الحظ ، لا يثبت امام القوي المستبدّ، الا كا يثبت الغصن النضير امام العاصفة الهوجاء ! لقد قام في ذهن يزدجرد ان جهان روز ستستسلم ، ولكنها لم تفعل بل كانت تحتجب عن عينيه ، وتستخفي ، ثم تتردّد ، ويتلجلج صوتها ، في خلق الاعذار ، حتى رأى اخيراً ان اللين «بضاعة» لا تليق بالملوك، فعمد الى الشدة. ولم تلبث جهان روز حتى امست ، بفضل شدته ، من حظاياه ... وكان الملل قد تغلـّل في قلبه ...

لقد رأى فتاةً متكبرة جاهلة .. لا تعرف قدره .. ثم راى جمالهـا يذبل ، ونضارتها تزول . فابتسم ابتسامة الاستهزاء ، وحول وجهه عنها ، حتى خيلّ اليها والى اهل البلاط ، ان ليس لها وجود !!

وكانت الدنيا تدور ... وسعد بن ابي وقاص ، ينتقل فاتحاً من بلد الى آخر ، ويمشي بخطى جبارة الى قمة المجد ... حتى ارتفعت اصوات تكبير المسلمين على شاطىء دجلة . عند المدائن ، وفرّ يزدجرد . ثم سقطت العاصمة ، وسقطت جلولاء ، وتهيأ القعقاع بن عمرو للحاق بيزدجرد الى حلوان .

* * *

- ٧ -

كان بين جنود الفرس ، الذين نجوا من الموت ايام القادسية ، رجل في مقتبل عمره قطع السيف يده اليمنى ، وشوّهت الجراح جبينه وعنقه . وقد رأى قواده ورفاقه في الجيش ، انه كان يقتحم الصفوف لتبتلعه لجة الموت ..

والموت لا يدنو منه ، بل عرفوا ان الموت ، كان احب اليه من الحياة ! اجل لقد عرف الجيش ان في صدر هذا الرجل هماً تخور عنده القوى ، ولكنهم رأوا صبره اعظم من همّه ورأوا جلده يحجب لوعة نفسه . كان صادقاً في قوله ، صادقا في حربه ، قضى الشهور والاعوام في ساحات القتال ، لا يتألم ولا يشكو .. ولا يطيب له الا ان يداعب السيف ... وكان يقول اذا سالوه : بي همٌّ لا ينسيني اياه الا القبر ، وقد نقل مع جرحى الفرس الى المدائن ، ثم شفاه الله ففرّ مع ابناء قومه الذين فرّوا الى جلولاء ، ثم الى جلوان ، وكان فيه من المقربين الى الملك الفار . على انه لم يمر شهران على وجود الملك في حلوان ، حتى بلغه نبأ سقوط جلولاء ، وفرار جيشه الى خانقين .

ثم اقبل رسله يقولون : استولى القعقاع بن عمرو على خانقين ، وهو يهم بالزحف الى حلوان . فقال لرجاله : نسير الى الري فنجمع فيه الجنود ونسترجع العرش ، وأمرهم بأن يتهيأوا للرحيل . وبينما هم يفعلون، ورئيس الخصيان ينظر

في شؤون النساء ، ويعد عدتهن ، اقبلت احـدى الجواري تقول له : ان جهان روز فاجأها المخاض وستلد اليوم ، فتردد الرجل قليلاً ، ثم دخل على الملـك وخبره بما سمع ، فقال يزدجرد: اتذكر لنا جهان روز ايها اللعين ونحن لا نطيق ان يذكرها احد ؟

قال : اني مكره على ذلك يا مولاي ، لانك سترحل الى الري في هذا اليوم، وأنا لا أعلم ماذا اصنع .

قال : نرحل وتبقى جهان روز في هذا المنزل !!

– ومن يبقى معها من الجواري ؟

– لا نأذن لاحدى الجواري في البقاء بل يرحلن جميعهن . !

– ولكن المرأة ستلد وهذا المولود هو ابن مولاي الملك .

– ان الملك لا يريد ان يعترف بالطفل الذي تلده جهان روز !! لقد عكرت علينا هذه المرأة صفو الملك ، وجار القدر على الملـك منذ جعلها بين حظاياه . فهي شؤم على التاج الفارسي وعلى يزدجرد .. اخرج وانظر فيا تصنعه لنرحل اليوم.

قال : سأفعل ما يأمرني به مولاي بعد ان اقول كل شيء .

– وهل بقي لك ما تقوله ؟

– نعم يا مولاي ، اني لم انس قط ان جهان روز كانت أحب الناس اليك كما اني لا استطيع ان انسى ، ان الجنين الذي يتململ في احشائهـا سيحمل اسم يزدجرد .

قال : اما الحب الذي ذكرت فقد انتهى امره ، وامـا ان يحمل الطفل اسم ابيه فذلك ما لا نعبأ به !!

قال : كلمة اخرى يا مولاي !

قال : لقد كثر كلامك واني اخشي ان تخسر عنقك .

– لك ان تضرب عنقي يا مولاي اذا رأيت اني غير مخلص لك .. قلت انك لا تبالي بالطفل الذي لا ذنب له ولكنك تبالي بما يقال عنك غداً عندما يستولي

قائد العرب على هذا القصر

– وماذا يقال غداً ؟

– ستقول العرب : لقد دبّ الذعر في قلب يزدجرد حتى انه ترك زوجته وطفلها بين اشداق الموت وفرّ الى الري .

– بل يقولون : ان المرأة جارية ملّها الملك فألقى بها مختاراً بين يدي عدوه.

قال : هب لها اذن شيئاً من المال يا مولاي .

قال : خير لي ان يقتلها الفقر من ان تعيش .

– هذا ما لا تفعله الملوك يا مولاي .

قال : انصرف واعطها ما شئت .

– وهل رأيت يا مولاي ان المال بين يدي اهبه لمن أشاء ؟ فضحك كما يضحك المجنون ثم قال : ادعُ قهرمان البلاط . فدعاه ، فقال له الملك : اعطِ رئيس الخصيان ما يشاء من المال . فخرج والخصي وراءه ، وكان الرجل ذو اليد الواحدة في الرواق ، وقد سمع كل شيء ، فقال له الخصي : امشِ فلي اليك حاجة ، فتبعه وهو ينظر الى قاعة يزدجرد وعيناه ترسلان شعاعاً من نار ، حتى انتهى الثلاثة الى الحجرة التي جعل فيها مال الملك ، فأخذ رئيس الخصيان منه ما يزيد على حاجة جهان روز ، وانصرف مع الرجل وهو يقول له : ان احدى حظايا الملك ستلد اليوم ونحن مكرهون على الرحيل وهي باقية .

قال : عرفت ذلك من الجواري وهي تدعى جهان روز .

– ولكن الملك سيأخذ جميع خدمه وجواريه لا يبقى احداً منهم في هذا القصر .

– وماذا تريد ان اصنع ؟

– أريد ان اشاورك في هذا الامر فأنت من اصحاب الرأي . فتظاهر الرجل بالتفكير ثم قال : لمن هذا المال ؟

لجهان روز .

– اذن نشتري ببعضه احدى نساء هذا البلد .

– وتجعلها جارية للمرأة ؟

– أجل ، وتكون في الوقت نفسه مرضعاً للطفل ..

قال : هذا هو الرأي، ولكن ماذا نصنع بهذا المال وجهان روز لا تستطيع ان تحتفظ به ؟

– نختار رجلاً نسلمه اليه الآن ، على ان يعطيها اياه بعد شهر .

– واين نجد هذا الرجل ؟

– انه في هذا الرواق ، وانت تراه بيد واحدة ، وقد شوّهت الجراح وجهه .

– انت ؟!

– نعم انا !

– وتبقى في حلوان شهراً ؟

– بل ابقى العمر كله اذا كان في ذلك خدمة لك ..

– والعرب ؟

– سأخضع لقائد العرب عندما تقع عليه العين ، وسيرى هو اني لست من الاعداء لأني لا اصلح لحمل السيف .

قال : لقد نسينا امر آخر لم نفكرّ فيه .

– ما هو ؟

هو ان الملك لا يأذن لك في البقاء .

فابتسم قائلاً : سأظهر للملك اني لاحق به ثم استخفي عن العيون ..

– واين تضع هذا الذهب ؟

– أضعه في مكان لا تمتد اليه يد انسان .

– وتقسم لي انك لا تنفق منه درهماً واحداً الا باذن جهان روز ..

– بل اقسم لك اني سأبذل حياتي في سبيل من ذكرت .. والان ارجو ان تجيبني عما أسألك .

قال : اسأل ..

قال : اي شيء يدعوك الى العناية بجهان روز وقد غضب عليها الملك ؟ .

قال : ان لأبيها فضلاً عليّ فهو الذي جعلني من خصيان البلاط ، يوم كان يزدجرد طفلاً يلعب عند اخواله ، وهو الذي سأل بوران الملكة ان ترفعني الى منصب الرياسة ، وقد ذكرت ذلك كله منذ بضعة أشهر ، وكنت قد نسيت !.

ثم قال : ولو لم اكن موجوداً في قصر يزدجرد لماتت الفتاة من القهر .

قال : وفي اي شيء استحقت هذه الشقية غضب مولانا ؟

– لا تذكر هذا فذكره يفطر القلب . كان الملك يحبها وهي تبغضه . وكان يعطف عليها عطفه على احب نسائه اليه وهي تنفر منه ، وعندما كان يبتسم لها ابتسامات الرضى كانت تقابل ابتساماته بالبكاء ..

– يخيل الي ان لها سراً لم يعرفه الملك .

– أجل ، اما انا فقد عرفته .

– وتذكره لي ؟

– نعم ، فقد كان بين رجال ابان زرد فتى من خراسان ، أحبه الرجل ، وأوصاه قبل موته بأن يكون زوجاً لجهان روز ، فلما جاء يسأل الملك اخراج الفتاة من بلاطه، طرده من ذلك البلاط، وأمر فجعلت جهان‌روز بين حظاياه .

– وماذا جرى بعد ذلك ؟

– قضت الفتاة ايامها تبكي ابويها اللذين طواهما الثرى ، وتلوم القدر الجائر الذي منعها من ان تزف الى ذلك الخراساني !

– وهل كانت تحبه ؟

– أحست بالحب يوم حمل اليها الفتى وصية ابيها ، وكانت تشعر بالعزاء عندما يقوم في ذهنها انها ستزف اليه .

– ومن خبرك هذه الاسرار ؟

– هي نفسها ... فقد امست وحيدة في البلاط ، مغضوبا عليها من الملك ، فباحت لي بكل شيء، وكانت تطلب الموت كل يوم لتحتجب عن عيني يزدجرد!

فحوّل وجهه ليخفي دموعه، ثم قال اعطني المال. فناوله ذلك الجراب الذي

جعلت فيه دنانير كسرى .. وهو يقول : سأرى جهان روز الآن ، وانقل اليها كل شيء ، وأسألها ان تثق بك وبما تقوله كما تثق بي .

– أما انا فسأخرج الساعة واشتري المرآة التي ذكرت ..

قال : تعجل في أمرك قبل ان نرحل ..

قال : سترى المرأة بين يدي جهان روز قبل ان تغادر هذا القصر . ومشى في ذلك الرواق الطويل ، ثم احتجب في الدهاليز . فقال رئيس الخصيان في نفسه : ما رأيت أكرم خلقاً وأعظم نفساً من هذا الرجل المشوه الوجه .. واني لأرحل ، وانا مطمئن قرير العين ..

* * *

– ٨ –

اجتمعت فلول الجيش الفارسي في حلوان ، صفين متقاربين ، عند غروب الشمس .

ثم تقدم صف منها الملك واهل بيته، وبعض المخلصين من رجالهوسار الصف الآخر وراءه ليحميه من اعدائه !! ان يزدجرد يفر كما يفر الجبان . انه في طريقه الى الري .. ولكن الصفوف التي تفر مثله من ساحات القتال ، لا تستطيع ان تحميه .. مشى ، وعيناه تنظران الى الوراء خوفاً من المسلمين .. وكان يوصي القائدين اللذين جعلهما خليفتيه في حلوان بأن يدافعا عن البلد كما تدافع الابطال ، ولم يخطر له ان يوصيهما بتلك الضحية المنكودة الحظ ، جهان روز ، غير ان رئيس الخصيان اوصاهما بها ولم ينسَ ان يقول لهما كلمة ، عن ذلك الرجل الذي جعل نفسه لها خادماً . ولكن وصيته لم تثمر ، فان الزيني ، احد القائدين ، قتل عند دخول الجيش العربي ، وخسر سنوم ، القائد الآخر ، لجأ الى الفرار قبل ان يريا وجه جهان روز .

احتجبت شمس ذلك اليوم ، وقد امسى يزدجرد خارج المدينة ، فودعها بنظرة كما ودع المدائن ، وكما ودع جلولاء ، وكان يعلل النفس بأمل الرجوع ،

رافع الرأس ظافراً بعدوه !! ولم يبق في القصر الذي كان مقيماً به، غير امرأتين اثنتين ، جهان روز والمرضع ، والرجل الذي عرفت . على انه لم يشأ ان يدخل الحجرة التي تلد فيها زوجها يزدجرد ، بل آثر الرواح والمجيء في الرواق ، حتى تحتاج اليه المراة الاخرى فتدعوه . وكان الهم بادياً على جبينه ، وقد انتقلت به الذكريات الى زمن مضى ولن يعود ، وقد ارخى الليل سدوله ، وبات القصر في ظلام رهيب. وبينما هو يعالج كآبته، سمع صراخ طفل .. فرفع عينيه الى السماء كأنه يشكر الالهة . ثم تمتم قائلاً : ويل لك ايها الزمان الذي تذلّ الاطفال ... ابناء الملوك .. وتجور على الابرياء .. وغاص في لجة من الذهول .. ثم صحا من ذهوله على صوت استغاثة ، هو صوت جهان روز . ثم ساد السكوت .

فدبّ الذعر في قلبه وحبس انفاسه ليسمع ما يقال .. وكانت المراة المرضع تقول : انها طفلة يا مولاتي وهي تشبه الآلهة ... فقالت جهان روز ، وصوتها يرتجف متقطعاً : ليتها لم تولد فسترث من امها الذل والشقاء .. اين الرجل الذي ذكروه لي .

– انه في الرواق .

– ليدخل فانا احسّ بالموت يقترب مني بصورته الرهيبة ..

قالت : لقد فرّ الموت الآن، وسيفر بعد قليل، هذا الألم الذي تشعرين به ..

– ولكن الم النفس لا يزول، وخير لي ان اموت .. ليدخل الرجل في هذه اللحظة فأنا اريد ان اراه ، ففتح الباب بهدوء ، وظهر الرجل على عتبته . فأومأت اليه بان يدنو ، ففعل ، وهو يكاد يسقط على الارض . فجلست تتفرس في عنقه وجبينه المشوهين . . ثم قالت : اانت الرجل الذي عهد اليه في العناية بي ؟ فأرخى نظره الى الارض قائلاً : نعم يا مولاتي الملكة !! فقالت وهي تبتسم هازئة: لو كنت ملكة كما تقول لكان لي فراش اضع عليه هذه الطفلة التي ابصرت الوجود الآن ..

قال : في القصر كل شيء وقد ترك لك الملك ما تحتاجين اليه .

فتنهدت قائلة : لا تقل ملك !! ان هذا الرجل الذي يدعونه يزدجرد ليس

ملكاً وليس له اخلاق الملوك .. انه رجل يمشي الى غايته فوق دمـاء الابرياء ، وينشر لؤمه ونذالته مستهيناً بجلال التاج وعظمة الملك .

– ولكنك زوجته ..

– بل انا حظيته .. بل انا ضحيته .. بل انا احقر جارية من جواري بلاطه اللواتي يتملقنه كل يوم . والتفت عندئذ الى المراة قائلاً : احملي الطفلة وارضعيها في غير هذا المكان .. فخرجت المراة وهي ساكتة ، فقالت : يظهر لي انـــك شديد الاخلاص لمولاك .. فكن كيف شئت .. وليبق لك اخلاصك .. ولكني لا ارجع عما اقوله حتى يفاجئني الموت .. قلت ان الملك نذل .. وسأعترف لك بكل شيء لتضمحل من ذهنك صورة الملك النبيل ، وتقوم مقامها صورة الرجل المستهتر العباث بالاعراض !!

قال : لم اكن قط مخلصاً للملك كما تقولين !

– تقول هذا وانت من رجاله ؟

– بل اقوله وانا من جلاديه ؟

قالت لا تخدعني ايها الفتى .

– ان الرجل الذي شوهته الحرب، وصبر على مصيبته صبر الرجال لا يخدع احداً .

– وكيف كنت بين المقربين اليه ، من مرازبة البلاط ؟

– اردت ان يكون لي شأن في بلاطه ، لأعرف ما اريد ان اعرفه ، وقد تمّ لي ما اردت !

– اذن كان اخلاصك من الشفتين .

– نعم ، فهذا الملك الذي تلعنينه ، والذي عبث بك وانت حظيته ، عبث بي وانا جندي من جنوده ، ادافع عن عرشه !

فارسلت اليه نظرة جديدة ، مضطربة ، ثم اشارت الى يده المقطوعة قائلة : وهذا اثر من آثار الدفاع .

– بل هو اثر من آثار الرغبة في الموت ... لقـد اقتحمت الصفوف والقيت

بنفسي تحت ظل السيوف ، فلم يشأ القضاء ان يمد اليّ يده ، وكرهت ان اقتل نفسي لاني لست من الجبناء . فارتسم الالم على جبينها الاصفر وجعلت تقـول : انك اذن شقي مثلي ، فاذا اردت ان تعزي نفسي المتألمة ، فقصّ عـليّ اخبار شقائك .

قال : ليس في هذه الاخبار يا مولاتي الملكة ما يعزّي النفوس . يكفي ان تعلمي ان في الصدور قلوباً تحمل من الهم ما تحملين .

قالت : استحلفك بهذه الطفلة البريئة ان تذكر لي كل شيء .

— خير لي يا مولاتي ان ادفن سري في هذا الصدر حتى ينتهي العمر .

— بل تبوح به لشقية على فراش الموت . فرفع راسه وتلاقت العيون، فجعل قلبها يخفق بشدة ، والرجل يقول : علة شقائي يزدجرد الملك .

فصاحت قائلة : ويلاه .. ان العلة واحدة . وماذا فعل يزدجرد ؟

— استخف بي ثم سلبني الفتاة التي احببت ..

فوضعت يدها على صدرها المضطرب وقالت وأين رأى هذه الفتاة ؟ فتردد ، ثم جالت الدموع في عينيه ، ثم خفض صوته قائلاً : لقد نسيت .. لا .. اني لا اريد أن أذكر شيئاً .

قالت : لا تنسَ اني سأموت في هذا الليل .

— بل تعيشين .. وتخرجين الى النور ..

— ولكن .. لا تتردد فقد أقبل الموت .. قل أين رأى يزدجرد هذه الفتاة ؟

— رآها .. في .. بلاطه !

— وماذا كانت تصنع فيه ؟

— كانت وصيفة .. من وصائف .. بوران الملكة .

— واسمها ؟

— واسمها ... اني لا اطيق ان اذكر هذا الاسم .

— بل .. تذكره قبل أن اختنق ..

قال : جهان .. روز .

— وانت .. ألست .. شهريار ؟

– بلى .. اني شهريار .

فارتجفت شفتاهـــا ، وقد وقف ذلك الاسم العذب ، عند تينك الشفتين الصفراوين ، ثم أحست بيدين حديديتين تحبسان انفاسها ، ثم انتقلت باغماء حاد الى عالم آخر ، فذعر الرجل وجعل يستغيث ؛ فاقبلت المرأة ، وأخذت تعالج ذلك الاغماء ... والطفلة تبكي ... وشهريار يقول : يا خيبة الأمل انهـا قد مـاتت ..

فقالت المرضع : بل هي حية ، وهذا صدرها يعلو وينخفض، ولم تكف عن المعالجة حتى استفاقت جهان روز ، ونظرت الى ما حولها نظرات هي الذهول بجميع صوره . ولم تلبث حتى قالت : لتخرج المرأة مع الطفلة ، فكأنها كانت تريد ان تبوح لحبيبها بما يجول في ذلك الصدر الضعيف ؛

فأومأ الفتى الى المرأة بالانصراف ثم قال : جهان روز .. لقد جمعتنا الأقدار على رغم يزدجرد ...

فغمرت جبينها مظاهر اليأس وتمتمت قائلة : ليتها لم تفعل ! فصاح قائلاً : ويلي ، ماذا أسمع ! فهمت بالجلوس ، فلم تستطع ، وخانتها قواها التي حطمتها الأحزان،فمدت يدها اليسرى، يدها المرتجفة الصفراء التي تشبه ايدي الأموات، ولامست يده المقطوعة وهي تقول : اريد أن أعيش يا شهريار .. ولكن الموت لا يريد ذلك وسينتزع مني هـــذه الحياة قبل أن يبزغ الفجر .. نعم ليت هذه الأقدار لم تجد باللقاء ، وليتني مت وانا في المدائن قبل ان اراك وقبل ان تخرج هذه الطفلة الى عالم يعيش فيه يزدجرد !

فانحنى يقبل تلك اليد الممدودة اليه والدموع تتلألأ في عينيه وكان يقول :

لا تذكري الموت يا جهان روز ، بل اذكري ان الشمل قد اجتمع ، واننا سنقضي ما بقي من العمر ، على شاطىء الفرات، عند الحيرة ، حيث لا نرى ظلاً للملك المستبد ..

قالت . ذلك أملٌ يطيب لنا ان نعلل النفس به ، ولكنه أمل ضائع فالموت سينشب مخالبه ، ويفصلني عمن احببت. وتجلدت، ثم اسودّ جبينها كأنها تصارع

عاطفة الضعف التي جاشت في الصدر ثم قالت وهي تتكلف الهدوء. والآن قص عليّ أخبار هؤلاء العرب الذين يطاردون يزدجرد .

قال : أنتحدث بالحرب في مثل هذه الساعة ايتها الحبيبة ؟

– أجل فحديث الحرب يلذ لي ، واني لأشعر بالراحة وانا في القبر ، عندما تنزع العرب التاج عن رأس الظالم وتجعل عرشه موطئاً للنعال! قل لي يا شهريار. أيستطيع يزدجرد ان يقهر العرب ويستعيد ملكه ؟

قال : لم يبق لأهل فارس امل بالعروش ، ولو بعث سابور وكسرى من قبريها لما استطاعا ان يعيدا العرش الذي حطمه السيف العربي .

– ويزدجرد ؟ أيقتل ام يحمل ماله ونساءه كل شهر من بلد الى آخر هارباً من عدوه ، مستميناً برجال الحرب من قومه ؟

قال : اما اليوم فهو يجد في بلاد فارس موضعاً يلجأ اليه ، ويضع فيه ذهبه واما في الغد ، فالويل من يوم ، تقفل العرب فيه جميع الأبواب وتملأ جنودها جميع الاقطار ..

– آه من لي بمن يحفظ حياتي لأرى يوم يزدجر ! ان ذلك اليوم سيجيء وانا في القبر .

– بل ترين ذلك بعينيك الاثنتين ، وستقولين ليزدجرد وهو في يد عدوه : اذكر ماضيك يا ملك الفرس . وانزل الى قبرك معفراً بالذل ..

قالت : لا تحدثني بالاحلام يا شهريار ... قلت لك اني سأموت ، فاسمع ما أقوله لك ولا تستسلم الى لوعتك .

وكان الفتى قد رأى على وجهها في تلك الساعة صور الموت ، فوضع رأسه بين يديه وجعل يبكي ويرسل الزفرات .

قالت : ان الزمان يا شهريار ، لا يجود علينا بساعة اخرى .. اصغ الآن الى ما اوصيك به واحلف انك لن تنسى منه كلمة. فارتفع صوته في البكاء ، ثم رفع رأسه وجعل ينظر اليها وعاطفة الحب والوفاء تلمع في عينيه ..

– احلف يا شهريار فقد خـــارت القوى وانا أحس ان الساعة قد دنت .

فحلف انه سيكون وفياً لهـــا وهي في قبرها ، كما كان وفياً وهي في الحياة ؛ فانفرجت شفتاها عن ابتسامة هي ابتسامة اليأس يتلألأ فيها نور الامل، ثم قالت: لقد جعلك ابي عند موته، أباً لابنته ، وانا اجعلك الآن في هذه الساعة الرهيبة، والداً لهذه الطفلة ، فهل ترضى ؟

– اني راضٍ بكل ما تقولين .

قالت: خبرني رئيس الخصيان ان يزدجرد جاد عليّ ببعض المال قبل فراره.

– نعم .

– واين هو ماله ؟

– في هذا القصر .

– وهل رأيت انه يكفي الطفلة ؟

– يكفي الطفلة وامها العمر كله .

– ومتى تنتهي العرب الى حلوان ؟

– يقول أهل البلد ان جيش القعقاع بن عمرو ؛ سيكون هنا بعد يومين .

– وفي اي امر فكّرت .

– فكّرت في امر واحد هو اني سأخضع للقعقاع واسأله ان يجعلني ويجعل جهان روز في حمايته .

– احسنت ، فالعرب خير من قومك . ثم ماذا ؟

– ثم اصبر حتى تمنّ الآلهة بشفاء جهان روز ، فانصرف معها الى البلد الذي يقيم به يزدجرد ، فأوغر عليه فيه الصدور وادل القوم على كل موضع يلجأ اليه.

– ولكن جهان روز لا تنصرف معك ، كما ترى ، بل تبقى في حلوان..

قال : اذا تمادى القدر في جوره ، عمدت الى شيء آخر .

– ما هو ؟

– هو ان ادفع المال الى هذه المرضع.. وأعهد اليها في حماية الطفلة ، ثم اقتل نفسي وابقى حيث تبقين ..!

فهزت رأسها قائلة : ولكنك أقسمت انك ستكون وفياً لي وانا في القبر .

– نعم .

– واين هو هـــذا الوفاء الذي ذكرت ؟ تموت جهان روز ، فتقذف انت بابنتها الى هوة لا قرار لهـا ثم تقتل نفسك ؟ انه وفاء غريب لا تنطبق الصدور على أغرب منه . !

– وهل تموتين واحيا ؟

– نعم ، فحياتك التي تملكها اليوم لا تملكها غداً .؟ انها لابنتي التي أوصيك بها الآن . ! انها لجهان روز الشقية التي عاهدتها على الوفاء وهي تلفظ الروح ... انها لهذا الحب المقدس الذي خنقه يزدجرد !

وارتجفت شفتاها وهي تبكي ، دون ان تظهر في عينيها الدموع ، اجل ، ان دمعها قد جف، كما جفـّت تلك النضارة في ذلك الوجه الفتان ، فحنى الفتى رأسه للقدر الجائر قائلاً : كفى فسأعيش .

– وتعدني بذلك ؟

– نعم فحياتي منذ الآن ، هي لابنتي ..

وقد أراد ان يقول ، ابنتي .. لتنام جهان روز في قبرهـــا قريرة العين ، فقالت : اما وقد ابتدات ان تكون اباً فليدنُ الموت فانا لا اخافه .. ان هذه الكلمة التي قلتها كانت بلسما لجراح هذا القلب ..

وسكتت قليلاً ثم قالت : اسمع يا شهريار ، لقد كنت اريد ان تحمل جثتي الى المدائن وتوضع في القبر الذي وضعت فيه جثة امي ، ولكن المدائن خرجت من ايدي الفرس الآن ، وجيوش العرب تمتد منهـا الى حلوان فليس من الراي ان تفعل !

فأراد ان يجاريها فيما تفكر فيه، وهو لا يصدق ان القضاء يجسر على انتزاعها من يده .

فقال : وماذا اصنع ؟

– تحمل هذه الجثة في قبر يجاور قبور اهل حلوان ، وتكتب على حجره

هذه الكلمات : هنا ترقد ابنة القائد ابان زرد ، دون ان تذكر اسمي ودون ان تقول اني كنت من نساء يزدجرد ..

– بل اكتب : هنا ترقد جهان روز ، ضحية الظالم ..

– احذر ان تفعل ذلك ايها الحبيب .. فانا لا اريد ان يعلم اهل فارس اني كنت ضحيته ، ولا اريد ان تعلم ابنتي انها ابنته ...

قال : سيقوم في ذهن الطفلة ، عندما تكبر ، انها ابنة شهريار الخرساني ..

– نعم ، وهذا ما اطلبه اليك حتى ، تبلغ الطفلة السنة الخامسة عشرة .

– وعندئذٍ ؟

– عندئذ تقول لها انها ابنة الملك الفارسي الذي خسر ملكه ، وان امها نزلت الى قبرها وهي تلعن هذا الملك ..

– واذا استرجع يزدجرد ملكه ؟

– هذا لا يخطر لي فانا ارى الخراب والدمار ينشران ظلهما فوق فارس ، كما قلت انت ، ومع ذلك ، فاذا استوى النذل في عرشه من جديد ، فأرسل انت من يقول له : ان جهان روز ولدت طفلة ، منذ خمسة عشر عاماً ، وان هذه الطفلة التي تقيم بين العرب لا تريد ان تراك ، وهي تلعنك وتلعن التاج الذي تلبسه ، والعرش الذي تجلس عليه .

– اذن فأنت تريدين ان تمسي الفتاة عربية .

– اجل اريد ان تنشأ بين العرب لا بين اهل فارس، وان تبغض جميع امراء الفرس ، الذين يعيشون في بلاط ملكهم ، هازئين بالضعفاء مستخفين بالاشقياء.. وان لا تثق حياتها كلها بفارسي من هؤلاء .

– وان تتزوج فتى من العرب .

– نعم ، وهذا الفتى تختاره انت او ترضى به .

قال : وان احبّت فتىً من قومها ؟

تذكر لها عندئذ وصيتي هذه ، وتلعنها باسم امها اذا أمعنت في هذا الحب ، ثم تظهر لها نفسك وتتخلى عنها الى الابد !

ثم قالت : والان لنتحدث بأمر يزدجرد ، اني لا اوصيك بقتله لانــك لست سفاكا للدماء ، ولكني اوصي بأن تكون عينا عليه ،في احتجابــه وظهوره ، ورواحه ومجيئه وان تمنعه بالحيلة والدهاء من استرجاع التاج ، ليقضي حياته كلها معذباً ذليلاً خائفا ، كما قضت حياتها في قصره تلــــك الفتاة التي كانت بجمالها وعظمة نفسها فتنة المدائن ، والتي كانت تدعى جهان روز .

قال : أما انا فسأقتل هذا الجاني اذا قدرت مستخفا به وبأمرائه ، والمخلصين له ولا اذكر عندما يطرحه القدربين يدي إلا انه قاتلي وقاتل احب الناس اليّ .

قالت : انك اذا فعلت تخطفتك السيوف .

– وهذا ما ارغب فيه .

– والطفلة ؟

– اني لا اعرض ليزدجرد ، الا بعد ان تصبح طفلة فتاةً وتجاوز الخـامسة عشرة من العمر .

قالت : افعل ما تشاء ولكن اوصيك خيراً برئيس الخصيان ، فقد ذكرفضل أبي وكان مخلصا لي حين لم اجد حولي احداً من المخلصين .

قال : اني لا انسى هذا الرجل ما بقيت .

– وبقي امر آخر اخشى ان ألفظ الروح قبل ان اذكره .

قال : اذكريه .

قالت : أرجو ان تستبدل هذه المرضع الفارسية بمرضع مـــن نساء العرب عندما تدخل العرب حلوان . وبينا هي تقول هــذا ، اضطربت فجأة اضطرابا شديداً وخفق قلبها مجنوناً ثائراً وجعلت عيناها تختلجان وقد انطفأ نورهما .

ثم صاحت قائلة : هذا هو الموت اقبل يسألني ان اتخلى عن الروح .. الطفلة يا شهريار .. ضعها على هذا الصدر الذي سيسكت خفقانــه .. واجعل شفتيها تلامس شفتيّ لأحمل معي ذكرى هذه القبلة الى القبر .

الملوث بالعار والذي تباح فيه اعراض النساء . شهريار .. اني اريد ان اراها

قبل ان يختطفني الموت، فدخلت المرأة وقد سمعت صراخها، وجثت عند فراشها وهي تقول : هــــذه هي الطفله يا مولاتي انها تبتسم للنور .. فتناولتها بيديها المرتجفتين وضمتها الى صدرهـا تطبع على جبينهاوخديها قبلات الام ، ثم تمتمت قائلة : العرب .. ابنتي . . يزدجرد .. لا تنس يا شهريار .

وسقطت الطفلة من يديها على الفراش وهي تبكي ، فكأنها شعرت في تلك اللحظة بان امها امست جثة خرساء .

وكان شهريار ذاهلاً .. فلما رأى الطفلة تسقط على صـدر امها انحنى يتفرس في تينك العينين الجامدتين ، وذلك الوجه الحامل صورة الموت ، وهو لا يصدق ما يراه .. ثم عرف انه خسر حبيبته الى الابد ، فأقبل يرثيها كأنها قطعة مـن روحه .. ويبكي ذلك الشباب الغض الذي صرعه القدر الجائر . بل يبكي غرامه الذي كان شقاء . بل يبكي ذلك اللقاء الذي كانت عاقبته الموت ، ثم جعل يقول رحمة يا جهان روز ، واصبري حتى تري قاتلك في ايـــدي قاتليه ، بل اصبري حتى تفتح الطفلة عينيها لفجر الحياة . واخـــذ الطفلة بين ذراعيه يذرف على صدرها دموعــه ، وقضى الليل كله وهو يخاطب الجثة بلغة المحبين . حتى طلع الصبح وقد قرّح البكاء جفنيه . وكانت المرضع قد شاركته في البكاء . ولكنها رأت انه يكاد ينسى نفسه ، فقالت له : الا ترى يا مولاي ان تعد للجثة قبراً ؟

قال : ماذا ؟! أتدفن جثة جهان روز اليوم ؟! اني سأبكيها حتى يدب فيها البلى وحتى يفتح لي الموت ذراعيه . !

ثم ذكر وصيتها فقال : لا . بل ادفنها . في هذه الساعة فقد كتب لي ان ادفن الات منذ ثلاثة اعوام ، ثم ادفن اليوم ابنتها التي احببتها اكثر من الوجود قومي ايتها الحبيبه ، ورافقيني الى القبر ، لأدفن فيها عاطفتي واملي وبهجة الحياة. وكان بكاؤه يشبه بكاء المرأة تخسر وحيدها ، وذراعاه تضمان الطفلة التي جار عليها الزمان . وكان يخاطبها قـائلاً : ابكي امك ايتها الطفلة والعني اباكِ الذي يسمونه ملك الملوك .

ودفنت جهان روز في السنة السادسة عشرة للهجرة، ولم يكن لابنتهـا أسم تعرف به ، كما رأيت .

* * *

- ٩ -

كان عثمان بن عفان ، شديداً على ولاته ، قاسياً على عماله ، يعزل هـذا والناس يرون انه لا يستحق العزل ، ويولي الاخر والناس يرون ان الولاية هبطت عليه من السماء .

وقد لا يسمي الناس ، هذا التعجيل في العزل والتعيين ، قساوةً وشدة .

عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولىَّ سعد بن ابي وقـاص ، كما قرأت في هذا الجزء . وكان عبدالله بن مسعود ، صاحب بيت المال في الكوفة . فلما قدم سعد استقرض من عبدالله مالا ، ومرت على ذلك سنة وبعض اخرى ، وهو لا يستطيع ان يدفعه ، وعبدالله يتقاضاه ويلح في طلبه وسعد عاجز . حتى كان يوم جلس فيه سعد للناس ، وعنده ابن اخيه هاشم بن عتبة ،

فدخل ابن مسعود وقال له : اذ المال فهو مال المسلمين .

قال : سأفعل عندما يتيسر لي .

- بل تدفعه اليوم .

قال : ما اراك الا ستلقى شراً . هل انت إلا ابن مسعود ، عبد من هذيل .

قال : أجل والله اني لابن مسعود وانك لابن حمينة .

فقال هاشم : انكما لصاحبا رسول الله ينظر اليكما .

وكان في سعد حدّة ، فطرح عوداً كان في يده ورفع يديه قائلاً : اللهمَّ رب السموات والارض .

فقال عبدالله : ويلك ، قل خيراً ولا تلعن .

قال : اما والله لو لا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك .

فخرج عبدالله سريعاً ولم يلبث حتى كتب الى عثمان فغضب عثمان عـلى الاثنين وكتب الى سعد : لقد انتزعنا الولاية منك فتنحّ عنها .

وكان الناس يظنون انه سيعزل عبدالله ، ولكنه لم يفعل ، بل أقره على عمله وكتب الى الوليد بن عقبة : ارحل الى الكوفة فقد وليناك امرها بعد سعد .

وكان الوليد عاملاً لعمر بن الخطاب ، على ربيعة بالجزيرة ، فقدم الكوفة ، ولم يتخذ في ايام ولايته ، باباً لداره .

وجعل ينظر في امور الناس ، وهو احب الولاة الى الرعية حتى بلغه ان أهل أرمينية ترددوا في دفع الجزية التي كانوا يـــدفعونها منذ السنة الثانية والعشرين . وكان بالكوفة ، في ذلك الحين اربعون الفاً من رجال الحرب يغزو منهم الري واذربيجان ، كل سنة عشرة الاف . فاستأذن الوليد الخليفة في الغزو ، ثم جعل سلمان بن ربيعة الباهلي على مقدمته ، وخرج هو في جماعة الناس يريد ان يمعن في ارمينية حتى دخل اذربيجان . فأمر سلمان بن ربيعة بان يغزو ما يطيب له من الارض ، وبعث بعبدالله بن شبيل في اربعة الاف الى ناحية اخرى يقتل الرجال ، ويسبي النساء والاطفال حتى ترتفع اصوات الاستغاثة من كل قطر ، ويقبل القوم على دفع ما عليهم من المال .

فاغار الرجلان وكان الظفر حليفاً لهما ، ثم طلب اهل اذربيجان ان يصالحوا الوليد على ثمانمائة الف درهم ، وهو ذلك الصلح الذي تمّ يوم غزا القوم حذيفة بن اليمان في خلافة عمر ، بعد حرب نهاوند ، فصالحهم ، ثم انصرف وقـــد ظفر وأصاب حاجته ، وملأ يديه مالاً حتى دخل ارض الموصل ، ونزل مكاناً يقال له الحديثة . وبينا هو فيها ، أتاه كتاب من أمير المؤمنين يقول فيه :

اما بعد فان معاوية ابن ابي سفيان كتب اليّ يخبرني ان الروم ستغزو المسلمين بجيش عظيم ، وقد رأيت أن يمدهم اخوانهم من اهل الكوفــة ، فاذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته واسلامه ، في ثمانية او تسعة او عشرة آلاف ، من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام .

فقام الوليد فقال : ايها الناس لقد ابليتم في هــذا الوجه بلاء حسناً وردّ الله عليكم البلاد التي كفرت وفتحتم بلاداً لم تكن قد فتحت ، وقد كتب اليّ امير

المؤمنين يأمرني بأن اندب منكم من الثمانية الى العشرة الاف ، يمدون اخوانهم من اهل الشام ، فقد جاشت عليهم الروم وفي ذلك الأجر العظيم .

فقالوا : سمعنا فأطعنا ، فانتدب من تشاء .

قال : انتدبت سلمان بن ربيعة .

فلم تمر ثلاثة ايام حتى خرج ثمانية الآف رجل مع سلمان ومضوا حتى دخلوا أرض الروم ، مع اهل الشام . وكان على جيش الشام، حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري . واغار الجيشان ، فأظفرهما الله وافتتحا حصوناً كثيرة كان اهلها قد امتنعوا حتى بلغها ان قائد جيش الروم سيفاجئها برجاله ، في الموضع الذي كانا فيه .

وكان حبيب بن مسلمة صاحب كيد ودهاء ، فقال لسلمان : مرْ المسلمين بان يمكثوا بمواضعهم حتى يجيء قائد الروم ؛ ففعل القائد الكوفي ذلك ، واقام الجيش لا ينقل احد منه قدماً حتى اقبلت صفوف الروم وخفقت أعلامهم في الفضاء . فقال سلمان عندئذ : والآن ؟

قال حبيب : اما الآن فسنبيتهم وستراني في آخر الليل في سرادق قائدهم !؟

وسمعته امرأته ام عبدالله بنت يزيد الكلبية ، فقالت له : أين موعدك ؟

قال : سرادق القائد الرومي او الجنة . وعندما جنّ الليل ، وآوت الروم الى خيامها لم يبق منهم خارج الخيام غير الحرّاس ، انقض المسلمون على تلك الخيام يقتلون من فيها ويمنعون اصحابها من الفرار ، ومشى حبيب بن مسلمة الى سرادق القائد والسيف في يده يصرع به الرجال القائمين على حراسته، حتى انتهى اليه ؛ فما راعه غير امرأة تدخله قبله واذا هي زوجته ام عبدالله !!. اجل ، لقد كانت تلك المرأة اسبق الرجال الى سرادق الرومي، وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق .

وسارت الرسل الى المدينة تحمل البشرى الى عثمان ، وكان ذلك في السنة الخامسة والعشرين . على ان عثمان لم يتناول هذه البشرى ، حتى فاجأه ، من الناحية الثانية ، خبر ذعر له ، هو ان الروم في الاسكندرية نقضوا صلحهم ،

وعوّلوا على قتال المسلمين ، فكتب الى عمرو بن العاص ، في مصر ، يأمره بأن يؤدبهم .. وكان المقوقس صاحب مصر ، ثابتاً على صلحه ، ولم يشأ ان يشارك أهل الاسكندرية فيما هموّا به . وقــد عرف عمرو بن العاص ، ان الروم في القسطنطينية ، بعثوا بجيش كثير ، يكون عوناً لاخوانهم في ذلك القطر . فقاد جنوده الى الحرب ، والتقى الجيشان ، عنـد الاسكندرية ، فاقتتلا قتالاً شديداً طاب الموت فيه لكل عربي ، فانهزم الروم ، وتبعهم المسلمون حتى ادخلوهم البلد ودخلوا وراءهم يقتلون ويسبون ، حتى انتهوا الى قائدهم الأكبر فقتلوه . ورأى ابن العاص ان يهدم السور العظيم الذي يحيط بالبلد ، فأمر بهــدمه ، وتركت الاسكندرية بدون سور . وخلا الجوّ بعد ذلك للاسلام ، في بـلاد فرعون ، ثم خطر لعبدالله بن سعد بن ابي سرح وهــو من جند مصر ، ان يغزو افريقيا ؛ فاستأذن عثمان ، فاذن له ، ثم أمر عبدالله بن كافح بن عبد القيس ، وعبدالله بن نافع بن الحصين ، بان يلحقا به بالرجال ، ويجتمعا بجيشه في موضع سمّاه لهما .

وخرج الجميع حتى قطعوا أرض مصر ووطأوا ارض افريقية ، وكانوا في جيش يبلغ العشرة آلاف من ابطال المسلمين . فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ورجعوا ، وهم لا يريدون ان يتوغلوا خوفاً من ان تغلبهم في الداخل كثرة الرجال . وكان عثمان قد عزل ابن العاص عن خراج مصر ، وولى أمره عبدالله بن ابي سرح .

وبقي عمرو بن العاص ، عاملاً لعثمان على الجند ، ولكنه كره ان يكون خراج مصر في يد سواه .. ثم حدث بين العاملين ، ما يحدث بين رجلين يتنازعان النفوذ .

فكتب عبدالله بن سعد الى عثمان يقول : ان عمراً كسر الخراج ..

وكتب اليه عمرو يقول : ان عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب !.

فكتب عثمان الى عمرو : تنحّ عن الولاية وانصرف ، فقــد وليتّ عبدالله الخراج والجند ..

فغضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان . وكان ابن ابي سرح ، يريد ان

يحدث حدثاً يكون له أثره في الدولة . وكانت افريقيا القريبةمن مصر، موضوع تفكيره ؛ فاستأذن عثمان في الغزو مرة ثانية، والاستكثار من الجيش . فاستشار عثمان من عنده من رجال الصحابة ، فكانوا جميعهم من هذا الرأي . فاختار عندئذٍ اشجع من في المدينة من الرجال ، بينهم جماعة من اعيان الصحابة فيهم عبدالله بن عباس وسواه وامرهم بالمسير الى مصر ومنها الى طرابلس الغرب . فلما انتهوا الى برقة لقيهم من فيها من المسلمين ثم ساروا جميعاً الى طرابلس فنهبوا ما حولها ثم امعنوا في السير الى الداخل .

وكان عامل القيصر على ذلك القطر ، اميراً اسمه جرجير تمتد امارته من طرابلس الى طنجه . وكان يحمل الخراج كل سنة الى مولاه . فلما بلغه خبر المسلمين ، أعدّ عدة الحرب ، وجمع جيشه واهل البلاد حتى أمسى عددهم مئة وعشرين الفاً جميعهم من رجال البأس . وعاصمة الامير مدينة يقال لها سبيطلة فيها داره وبيت ماله ومؤونته وسلاحه ، واركان حربه ، ومعظم ابناء قومه . فقال عبدالله لقومه : الى عاصمة جرجير ايها المسلمون. فردد القوم كلمته، ومشوا مؤمنين بقوتهم ، كما تعودوا أن يفعلوا في الميادين .

على ان امير الروم لم يشأ ان يجعل عاصمته مجالاً للخيل ، بل خرج منها الى مكان بينها وبينه، يوم وليلة، واقام به ينتظر وصول عدوه . واقبل ذلك العدو وعلى رأسه ابن ابي سرح ، ولكنه لم يبرز الى الساحة ولم يشهر سيفاً ، بل عمد الى قلمه يكتب رسالة الى جرجير ..

ذلك دستور لا يغيره قواد المسلمين ، ينزلون ارض العدو ، فيكتبون اليه يدعونه الى الاسلام او الجزية ، قبل ان تسيل الدماء .

فلما انتهى كتاب عبدالله الى جرجير ، هزأ به وبكاتبه واستصغر أمر هؤلاء العربان الاجلاف رعاة النوق ..

ومولاه القيصر نفسه، استصغر امرهم من قبل .. ثم أبى ان يكتب جواباً، بل اكتفى بان يقول للرسول : قل لهذا العربي الذي ارسلك ان الجواب هو الحرب ! واشتعلت نار الحرب غير انها كانت حرباً لم يخطُ المسلمون فيها خطوة

الى الأمام ، ولم يرجعوا الى الوراء . كانوا جيشاً قليلاً ، أمـــام طوائف من الجيوش ... وهم في بـــلاد يجهلون ارضها ولا يرون امامهم فيها ، غير السهول الجرداء ... وقد انقطع خبرهم عن أمير المؤمنين .. فدبّ الذعر في قلبه ، ودعا عبدالله بن الزبير قائلاً له : ترحل الساعة مع طائفة من القوم فتكون عونـــاً لاخوانك ثم تأتيني باخبارهم . فانطلق عبدالله حتى أتى تلك الناحية البعيدة عن الحجاز.. فلما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين، وارتفعت اصوات الهتاف للخليفة .

فقال امير الروم لقومه : اي شيء هذا ؟

قالوا : اقبل من الحجاز جيش جديد ..

ثم رأى الزبير قتال الجيشين.. تتلاحم السيوف كل يوم من الصباح الى الظهر فاذا أذّن المسلمون الظهر عادوا وعاد الروم الى خيامهم . فلم يعجبه ذلك الصنف، من القتال . فلما كان الغد، شهد نزول الجيشين الى الساحة، ولكنه لم يرَ ابن ابي سرح مع رجاله . فسأل عنه فقيل له انه في خيمته !!

قال : وماذا يصنع ؟

– لقد سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن ابي سرح فله مئة ألف دينار وازوجه ابنتي .. فهو يخاف على جيش المسلمين اذا قتل !.

فترك الساحة واقبل على خيمته يقول له : تأمر الآن منادياً ينادي : من أتاني برأس جرجير الرومي أعطيته مئة ألف وزوجته ابنته وجعلته عاملاً عـلى بلاده.. فأمر مناديه ففعل ذلك .. فكان خوف جرجير اشدمن خوف عبدالله. ثم قال ابن الزبير عند المساء : ان امر الحرب على الصورة التي رأيت، يطول مع هؤلاء ، فهم في كثرة ، والبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين .

– ما الرأي ؟

– الرأي ان نترك غداً جماعة من ابطالنا في الخيام ، وهم في لباس الحرب ، ومتهيئون لخوض المجـــال ، ثم نخرج نحن في بقية الجيش فنقاتل الروم حتى يضجروا .

– وبعد ذلك ؟

– يرجع المسلمون والروم بعد ذلك الى خيامهم ، فيركب من في الخيام من المسلمين وعليٌّ بالباقي .

قال : نستشير اعيان الصحابة .

قال : شاور من تشاء .

فوافقوه في الرأي ، وصبروا الى الصباح . وفعل عبدالله عند الصباح ما ذكره امس ، ترك ابطال المسلمين في الخيام ، وخيولهم مسرجة ، وايديهم على السيوف ، وهم ينتظرون الأمر . ومضى الآخرون يسعّرون النار ، ويبذلون القوى كلها في ذلك اليوم حتى كان الظهر وارتفعت اصوات المؤذنين. فهمّ الروم بالانصراف . فتصدى لهم ابن الزبير واتعبهم في القتال.. ثم عاد عنهم مع قومه، والقى الفريقان السلاح ...

ولكن عبدالله لم يلقِ سلاحه ، بل كان يطوف بين الخيام قائلا : سيوفكم ايها الابطال . وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يشعر الروم بهم حتى خالطوهم . وليس عليهم سلاح وليس امامهم خيل . وجرت الدماء ، وانتشرت الاشياء ، وحصدت سيوف المسلمين رؤوس الاشراف والقواد والابطال حتى ضيع الروم الأمل . وعبدالله بن الزبير يبحث عن جرجير ويقتحم بفرسه الصفوف حتى وقعت العين على العين فضربه ضربة هوى بعدها جثة بدون روح . وتفرقت صفوف القوم تهرب من الموت .

وبعد أن تمّ النصر للمسلمين، خطر لهم ان يفتحوا عاصمة الامارة، فمشو اليها، وفلول الروم تمعن في الصحراء فراراً من الموت ، ثم احاطوا بها من النواحي الاربع فلم تلبث حتى سقطت ، كما سقطت قبلها مدن الشام والعراق وفارس ومصر . وكان نصيب عبدالله بن الزبير ، مئة الف ، وابنة الأمير الرومي . على ان ابن ابي سرح لم يكتفِ بما تمّ له ، بل اراد ان يكون الفتح كاملا ، فبثّ جيشه في البلاد يسبي ويقتل ، ويضم الارض وراء الارض ، الى ملك الاسلام ، حتى دان لأمير المؤمنين ، ذلك القسم الواسع من ذلك القطر .

وأقبلت طوائف العشائر تستسلم الى الفاتح وتطـــلب الصلح . ثم ارسلت الرسل الى المدينة تحمل اخبار الفتح الى عثمان . وعــاد عبدالله بن ابي سرح الى مصر، وكان مقامه بافريقية سنة وثلاثــة اشهر لم يخسر في خلالها غير القليل من المسلمين . وبعث بالمال الكثير الى أمير المؤمنين وذلك هو المــال الذي غنمه في الحرب ، واقام بمصر .

وقدم عمرو بن العاص المدينة ، ودخل على عثمان ، وعليه جبة يمانية محشوة قطناً ، والغضب في عينيه .

فقال له عثمان : ما حشو جبتك يا عمرو ؟

قال : عمرو !..

قال : قد علمت ان حشوها عمرو وانا لم أرد هذا وانما سألت أقطنٌ هو ام غيره ...

ثم قال : هل تعلم يا عمرو ان تلك اللقاح درّت بعدك ... «وهو يريد ان مصر ازداد خيرها بعد عزله اياه» .

فاجابه قائلاً : وان فصالها ، هلكت .

«وهو يعني ان الاسلام خسر الكثير من رجاله». فآثر عثمان السكوت، ولم يلبث عمرو حتى خرج والحقد يملأ قلبه.. وهو يفكر في تلك الولاية التي انتزعت منه ...

قنسرين وقبرص :

في السنة السابعة والعشرين ، غزا معاوية بن ابي سفيان ، قنسرين ، فكان في غزوه ، قضاء الله على الارض . ثم رجــع الى دمشق ، وهو ينظر الى البحر بشوق وشغف ، كما ينظر الفاتح الى البلد الذي يطمع فيه . لقد سأل معاوية عمر ابن الخطاب ، ان يأذن له في غزو الروم في البحر ، وكان يقول له : ان بـــلداً بالشام يسمع اهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم.. وهو يريد ان للروم داخل البحر ، مدناً قريبة من الشام ، وعمر بن الخطاب لا يصغي الى سؤاله ولا يجود

بالجواب ، حتى لجّ معاوية في الطلب وضمن له النصر ؛ فكتب عمر الى عمرو بن العاص يقول :

صف لي البحر وراكبه ! فكتب اليه عمرو : اني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ان ركن خرّق القلوب، وان تحرك ازاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلةّ ، والشك كثرةّ ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق . فلما قرأه عمر ، كتب الى معاوية : لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وتالله لمسلمٌ واحد احبّ اليّ مما حوت الروم فاياك ان تعرض لي . فصبر معاوية مكرهاً حتى استوى عثمان في مقعد الخلافة . فأعاد رجاءه ، وعثمان يأبى، وهو يلحّ حتى رضي ، ولكنه كتب اليه :

لا تنتخب الناس بل خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فأحمله وأعنه . ففعل معاوية ما أمره به ، وخرج معه جماعة من الصحابة منهم ابو ذر ، وابو الدرداء، وعبادة بن الصامت ومعه زوجته ام حرام .

وكان أمير البحر ، عبدالله بن قيس الحارثي ؛ فلما انتهوا الى قبرص ، رأوا ان عبدالله ابن ابي سرح امير مصر ، قد انتهى اليها بسفنه ورجاله . على ان معاوية كان امير الجيشين .. فقتل المسلمون وسبوا ، ثم آثر اهل قبرص الصلح على الحرب ، واقبلوا يعرضون الجزية ، وامراء المسلمين مجتمعون ، بينهم ابو الدرداء ، وجبير بن نفير . وكان أبو الدرداء يبكي !! فقال له جبير : مـا يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الاسلام؟ فضرب بيده على منكبيه وقال : ثكلتك امك يا جبير ما أهون الخلق على الله اذا تركوا أمره ، لقد كان هؤلاء أمة ظاهرة قاهرة لها الملك والسلطان ، فلما تركوا أمر الله صاروا الى ما ترى . واذا ذل قوم فليس لله فيه حاجة ...

وقد وقع الصلح على جزية هي سبعة الاف دينار يؤدونها الى المسلمين في كل سنة ويؤدون الى الروم مثلها ، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك ، كما انه ليس لهم ان يغزوهم وعلى الروم ان يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم. وكان ذلك الصلح في السنة الثامنة والعشرين، وقد تزوج عثمان نائله ابنة الفرافصة

وكانت نصرانية ، وبنى داره الزوراء بالمدينة . وكان معاوية أول من غزا الروم في البحر ، وفي عهده بينه وبين اهل قبرص ألا يتزوجوا من الروم الا باذنه .

* * *

- ١٠ -

تصدّى خليفتنا يزدجرد ، في حلوان ، للقعقاع بن عمرو ، عندما اقبل الى المدينة على رأس جيشه الظافر . وقاتلاه عند أسوارها قتال القوم الذين خسروا كل شيء ... ولكن ذلك القتال كان وبالاً ، فقد قتل أحدهما في أول جولة ، ولجأ الآخر الى الفرار لاحقاً بمولاه . وفتحت أبواب حلوان للفاتح العربي ، واقبل الفرس مستسلمين، خاضعين للقوة الجبارة التي أكرهت ملكهم المعظم على التخلي عن العرش . وكان منادي القعقاع ينادي : من لم يخضع مختاراً أخضعه السيف ، فلم يبق رجل من رجال الحرب الا القى سلاحه . ودخل المسلمون عند غروب الشمس وقد أعد لهم القوم المنازل والقصور . فبينا القعقاع في منزله وعنده وجوه قواده ، دخل جندي يقول : ان بالباب رجلا من اهل حلوان يريد ان يراك ..

قال : لا يطيب لي ان اجلس للناس في هذا الليل .

- ولكنه يلحّ في طلبه ويأبى ان ينصرف الا بعد ان تأذن له في الدخول .

- قال : لم يجيء هذا الرجل في مثل هذه الساعة إلا لأمر .. عليّ به ..

فدخل .. فرأى القعقاع على نور السراج ، فتى اسمر الوجه جذاب الملامح ، على جبينه آثار الكآبة ، والدموع في عينيه ! وليس لهذا الفتى غير يد واحدة ، فقال القائد : فارسي ؟ - نعم يا مولاي .

- ومن أنت ؟ - شهريار الخراساني !

- ويلك ، من خراسان وتقيم بهذه الارض ؟

- أجل وقد دفعتني اليها يد الاقدار ..

- إذن كنت في ساحات القتال .

- لقد شهدت حرب القادسية وخسرت يدي فيها ..

قال : ونحن شهدنا القادسية ولم نرك .

– أما أنا فقد رأيتك يوم قدمت من الشام مع هاشم بن عتبة .

– في يوم أغواث ؟

– نعم ، وقد تقدمت هاشماً وجعلت أصحابك عشرات ..

– قال صدقت ، وماذا صنعت بعد القادسية ؟

– ارسلوني وانا جريح الى المدائن فمكثت بها حتى تركها الملك .

– وبعد ذلك ! – جئت معه الى جلولاء .

قال : يظهر انه جعلك من رجاله ..

بل جعلت نفسي من غلمان قصره بعد ان عجزت عن حمل السيف .

– ثم أتيت حلوان ومكثت بهـــا الى اليوم ... ولكن كيف فرّ يزدجرد وبقيت انت ؟

وجعل ينظر اليه نظرات الغضب ، فقـــال لقد آثرت البقاء بأمر مولاك لتكون عيناً على المسلمين ..

قال : خير لي ان تضرب عنقي من ان تظن الظنون بي.. لقد بقيت لاراك، انت القعقاع بن عمرو ، واسألك قضاء حاجة لي .

– اذكر حاجتك الآن .. فمسح دموعه قائلاً : اريد ان اصير مسلماً !

فضحك وقال : ومتى رغبت في الاسلام ؟

– منذ همّ يزدجرد بالفرار من حلوان .

– والغاية من اسلامك ؟

قال : اما غايتي فهي ان افعل ما تفعلون وأعبد الله الذي تعبدون .

– وليس لك غرض آخر ؟

– لست من اصحاب السيف كما ترى ، لاكون من أصحاب الاغراض .

قال : نحن لا نخاف سيوفكم يا اهــل فارس ، ولكن نخاف ان يغدر احدكم بقائد من القواد ، وهو في فراشه !!

قال : لم يخطر لي قط يا مولاي ، منذ أصبحت رجلاً ، ان أخون احداً أو

أغدر بأحد .. اني من أولئك النـاس الذين يحفظون العهود ويبذلون الحياة في سبيل المروءة والوفاء .

– ولك في حلوان أهل ؟

فتنهد قائلاً : كانت لي زوجة منذ ثلاثة أيام .

– وطلقتهـا ؟

– بل انتزعتها مني يد الموت وهي ترقد الآن في قبر جعلته لهـا بين صخور الوادي .

– ولك بنون ؟

– لي طفلة قذفت بها امها الى الوجود قبل ان تموت ..

– ومتى فر يزدجرد ؟ منذ اربعة ايام .

– أي قبل ان تولد طفلتك . – نعم يا مولاي .

– اذن كنت مكرهاً على البقاء لا لتعتنق الاسلام بل لتكون عند فراش زوجتك .

قال : لو أردت الفرار للجأت اليه، وتركت زوجتي في هذا البلد وانا واثق بان الجيش العربي لا يمد يد السوء الى النساء ..

قال: ألا تعلم ان هذا الجيش يسبي ؟

– بلى ، ولكنه لا يسبي النساء وهنّ في منازلهن الا اذا حمـل ازواجهن السيف وتصدوا له في الميادين .

قال : أراك خبيراً بالحرب أيها الخراساني .

لقد كنت خبيراً يا مولاي ، امـا اليوم فقد نسيت كل شيء ، ولولا الطفلة التي ذكرت ، لاثرت الموت على الحياة !

وفضحته الدموع ، فحنى رأسه يكفكفها بيديه المرتجفتين ، فقـال القعقاع لعبدالله بن قيس شقيق الاحنف بن قيس ، وكان حاضراً : ماذا ترى أيها الامير؟

– أرى ان للرجل سراً يكاد يخنقه ..

قال : ألك سر يا شهريار ؟ – أجل يا مولاي .

– وهل تبوح لنا به ؟

– ليس سري من الاسرار التي ترددها الشفاه ..

– ولكن نعدك بالكتمان ..

قال : وعد صادق لا أشك فيه ولكني لا استطيع ان ابوح بشيء .

فقال عبدالله بن قيس : أهو سرّك ام سرّ زوجتك ؟

– سرّ الاثنين ..

– وهل كان الملك يعلم انك باقٍ في حلوان ؟

– كان يعلم اني لاحق به .

– اذن خدعت ملكك وتركته في الموقف الصعب الذي يحتاج فيه الى المخلصين من قواد جيشه ، ورجال بلاطه !

– رأيت زوجتي تصارع الموت ففعلت مافعلت .

قال : لقد قلت الآن انك ستصير مسلماً والمسلمون يفعلون غير ذلك .

– مـــاذا ؟

– انهم يؤثرون ملكهم على نسائهم وكان عليك أن تفعل هذا .

قال : قد يكون للمسلمين ملك يستحق ما تقول !

– ويزدجرد ؟؟

فتردد قليلاً ثم قال : أما يزدجرد فلا يستحق الا اللعنة !

– اذن فانت لا تحبه !

فارتجفت شفتاه وجعل يقول: لا ابذل حبي لرجل لا يحب احداً! اني ابغض يزدجرد وابغض كل فارسي لا يبغضه !!..

قال : لقد فهمت شيئاً من سرك الآن فهو يتعلق بالملك .

– نعم يتعلق بالملك ولكنك لا تعرف اليوم شيئاً عنه .

– ومتى أعلم ذلك ؟

– بعد خمسة عشر عاماً اذا بقيت انا وبقيت انت !

قال نحن رجال الحرب وقد يحصدنا السيف غداً ..

– اذا هلكنا جميعاً دفن السر في قبورنا الى الابد .

فقال عندئذ للقعقاع : سيكون هذا الرجل اصدق ابناء قومه اسلاماً .. اني اضمنه وارضى بأن اسأل عما يفعل ..

قال : اجلس يا شهريار فقد قضينا حاجتك .

– ولكن لي حاجة اخرى ايها الامير .

– ما هي ؟

– هي اني اريد ان تعيش طفلتي المنكودة الحظ .

– ونحن نريد ذلك .

– اذن ارجو ان تجدوا لها مرضعاً من نساء العرب

– ومن يرضعها اليوم ؟

– احدى نساء حلوان .

قال : يكفي ان يكون لها مرضع صالحة .

– أما انا فلا ارضى الا بأن ترضع حب العرب من ثديي عربية ..

قال : انك تغالي بحبك يا شهريار .

– اجل وسيرافقني هذا الغلو الى القبر .

قال : عليك ان تنظر في أمره يا عبدالله .

فابتسم قائلاً : ان الله مع هذا الرجل ومع طفلته .

– وهل تعرف لها مرضعاً ؟

– عرفتها فهي زوجتي أم عامر .

– لقد ذكرت الآن ، فالطفلة التي ولدتها لك في جلولاء ماتت في خانقين . ولكن أترضى بأن تحتضن ابنة الرجل .

قال : انت تعلم انه ليس لي من البنين غير طارق ، وطـــارق من زوجتي الاولى ، وهو اليوم عند عمه الاحنف ..

– اذن لم يبق الا ان يحمل ابنته الى منزلك .

– ليحملها الليلة اذا شاء فستكون امعامر والدةلطفلته حتى تجاوز العامين.

– على انه يجب ان يكون شهريار بالقرب منها .

قال : سافعل يا مولاي فانا لن اترك الجيش الا عندما تكبر .

- وتنتقل معنا من بلد الى آخر ؟

- وهل تظن اني اعتنقت الاسلام لآوي الى منزلي واعيش فيه كما يعيش الخاملون ؟ اني والله لا ارضى بأن يكون في الجيش العربي رجل أشد اخلاصاً للعرب ، من هذا الرجل الذي يخاطبك الآن .

- ولكنك خسرت يدك في دفاعك عن الفرس ..

- اذا كنت قد خسرت يدي وانا فارسي فسأبذل حياتي وانا عربي ..

- وماذا يستطيع ان يفعله الرجل ذو اليد الواحدة ؟

- ان شهريار الخراساني ، يستطيع ان يفعل ما لا تستطيع ان تفعله طائفة كبيرة من الجيش !!

قال : أتغزو اهل فارس بجند من العرب ؟ — لا ..

- أتقتحم صفوف الفرس في الميادين بصدر فرسك ؟ — لا ..

- اتحمل السيف تبري به رقاب الاعداء او الرمح تطعن به الصدور ؟

- وهل تجعل أبناء خراسان جنوداً للاسلام ؟ — لا !!.

- وما تصنع إذن وانت عاجز كما نرى لا تقدر على خوض الميادين ؟

- أصنع العجائب وابدأ بها الساعة ..!

قال : هات !

قال : قل لي أيها الأمير ، أخرجت من جلولاء غازياً أم ماذا ؟

- لي غرض آخر غير الغزو وهو ان اقبض على يزدجرد الملك .

- ولماذا يريد الجيش العربي ان يقبض عليه ؟

- ليصفو له الجو في دولة فارس ..

- واين هو يزدجرد الآن ؟ لقد قيل لك انه في حلوان فغزوتها ولكنك لم تره وانت لا تعلم أين هو ..

- سأعلم ذلك .

- أجل ، ولكن بعد ان يمر الزمان .. أفلا تشتري بنصف مال حلوان ، رجلاً يدلك على المكان الذي فرّ اليه ؟

– تريد ان تقول انك انت ذلك الرجل .

– نعم وهي الخدمة الاولى التي أخدم بها العرب .

فقال عبدالله : صدقت فليس أحب الى قواد الجيش من هذا ! الى أي بلد لجأ يزدجرد ؟ – الى خراسان .

– ولكن خراسان أرض واسعة كما تعلم فأين ينزل ؟

– في مرو الاولى التي يقال لها الشاهجان .

ثم ينتقل منها الى مدينة اخرى ثم الى غيرها وهو يجمع أنصاره ويبرز ويستخفي حتى ينتهي العمر ...

– يفعل ذلك مرتين أو ثلاثاً أيها الأمير . – وبعد ذلك ؟

– يسقط في الشرك الذي يعدّه له رجل من رجال بلاطه !!

قال : ومن هذا الرجل ؟

– هو انا فقد أقسمت اني سأدفع يزدجرد الى أيدي أعدائه .

– واذا عجزت عن هذا فماذا تصنع ؟

فوضع يده على جبينه قائلاً : خير لي ان لا أرى هذا الملك ، فقد يفاجئني الموت بعد ان أراه .

– إذن لقد عدلت ..

– بل رأيت لي رأياً آخر احفظ معه حياتي التي هي لطفلتي ..

– أي انك ستعيش بعيداً عن الناس حتى تكبر الطفلة .

– لا ، ولكني سأعيش بين العرب الذين أمسيت منهم ، وأحصي على الملك انفاسه ، في اختبائه وظهوره ، ورواحه ومجيئه ، حتى يعلم الجيش كله في أي موضع يضع اللعين قدمه وهذه هي الخدمة الثانية التي أبذلها للجيش الفاتح .

فمدّ يده اليه قائلاً : اذا كان هذا فانا عبدالله بن قيس اعاهدك على الوفاء .

وابتسم القعقاع وقال: وأنا أزيد على هذا انك منا ، وان لك ما لنا وعليك ما علينا وستكون ام عامر منذ الليلة ، اماً لطفلتك .

فأشرق جبينه وجعل يقول : لقد كنت واثقاً من قبل بأني سأجد عزائي بين قواد العرب الذين يطاردون يزدجرد . ونهض وهو يهمّ بالانصراف ، فقال له : اخرج معه يا عبدالله واحمل الطفلة الى منزلك .

فانصرف الاثنان حتى أتيا ذلك المنزل الذي ماتت فيه جهان روز ، فحمل شهريار الطفلة ، وجعل يضمها الى صدره وهو يهامس جهان روز قائلاً : نامي في حلوان ايتها الحبيبة فعين شهريار لا تنام الا بعد ان ينام يزدجرد في حفرته ..

وكانت ام عامر زوجة عبدالله ، من نساء بني أسد ، وقد قتل زوجها الاول وابنها عامر في اول جولة جالتها خيل العرب في العراق . ولم تلد لعبدالله غير طفلة ماتت في خانقين كما مرّ . اما طارق بن عبدالله، فهو في سنته الخامسة، وقد أراد عمه الاحنف ، سيد قومه ان يجعله بين اهل بيته ، ولم يكن يخطو خطوة الا اذا نظر اليه يلعب مع ولده وغلمانه . أجل ، كان وجه الغلام الضاحك ، وجماله الجذاب ، يبعثان الفرح الى قلب الاحنف الفارس العربي الجبار . وكان الاحنف واثقاً بأن طارقاً سيكون له شأن بين العرب .. وكان يقول لاخيه عبدالله : لا يرجع طارق اليك الا عندما يحمل السيف غازياً في سبيل امته . وعبدالله لا يخالف اخاه في امر ولا يستطيع الا ان يرى ما يراه الاحنف، رئيس آل قيس ، ورئيس عشيرته .

* * *

- ١١ -

نحن الآن في السنة التاسعة والعشرين ، وقد اكفهرّ الجو في بعض النواحي التي استولت عليها العرب ، ايام عمر بن الخطاب . كان المسلمون يفتحون هذا البلد ، ثم يرون ان يجعلوا عليها عاملاً مسلماً ، كما كانوا يرون ان يجعلوا على البلد الآخر ، عاملاً من الاعجام . وهم يعالجون بذلك سياسة الدولة ، ويخدّرون بالمناصب أعصاب المتنفذين من اهل فارس ، واصحاب السؤدد والسلطان . وهؤلاء المتنفذون فئتان، فئة تؤثر الهدوء ، في ظل الخليفة، على الثورة والحرب وفئة ترى الراحة والشرف ، في الرجوع الى ظل يزدجرد ، حتى نكث بعضهم

عهده ، وحمل لواء العصيان. ورددت العرب في كل قطر، اخبار عصيانه ؛ فقيل لأبي موسى الاشعري والي البصرة : لقد كفر الاكراد ، وثار من حولهم من اهل الجبل والسهل ؛ فقال لقومه : الى الحرب ، انكم رجالها وخواضّو الغمرات . فعمدوا الى السلاح ، ولكنهم كانوا يحتاجون الى الخيل والنوق ، تحملهم وتنقل اشياءهم الى الميادين ، فقال ابو موسى : الفضل في الجهـاد لمن يسير الى عدوه ، على قدميه ..

فقال بعضهم : لقد طاب لنا السير على الاقدام ؛ وقال آخرون : لا والله لا نعجل حتى نرى ما يصنعه ابو موسى ، فلما تهيأوا للرحيل عن البصرة، خرج من قصر ابي موسى اربعون بغلاً وفرساً تحمل ما يحتاج اليه ، ثم اقبل هو على فرس له . فتعلقوا بعنانه وجعلوا يقولون :

الفضل في الجهاد لمن يمشي .. فارغب فيما رغبتنا فيه ..

وهو راكب ولم يرَ ان يترك فرسه . فانصرفوا الى المدينة يقصون على الخليفة ما سمعوه ورأوه، وبينهم رجل يقال له غيلان بن خرشه. فلما قابلوا الخليفة قال غيلان : يا أمير المؤمنين أنصفنا من ابي موسى .

– وماذا صنع ؟

فخبّره بما صنع ثم قال : انه يهزأ بالمسلمين وما كل ما نعلم نحب ان نقوله .

قال : من تحبون ؟

قال : اما منكم خسيس فترفعوه ، أما منكم فقير فتجبروه ؟ حتى متى يأكل هذا الشيخ الاشعري هذه البلاد !! ان لنا في كل احد عوضاً من هذا العبد الذي أحيا أمر الجاهلية فينا .

فأطرق عثمان ملياً ثم قال : لقد عزلنا ابا موسى وجعلنا عاملنا على البصرة فتى في مقتبل العمر .

فقال القوم : من هو يا أمير المؤمنين ؟

– عبدالله بن عامر الذي ولَيناه أمر سجستان .

قالوا : لا نعرفه ولكن رضينا به .

فكتب اليه يدعوه الى المدينة ثم أمّره على البصرة، وصرف عبيدالله بن معمّر الى اقليم فارس ، وعمير بن عثمان بن سعد الى ناحية من نواحي سجستان، وأمين ابن أحمد اليشكري على ناحية اخرى، وعاصم بن عمرو، شقيق القعقاع بن عمرو الى كرمان . وقدم بن عامر البصرة ، وهو من بني عبد شمس ، وابن خال عثمان وعمره خمس وعشرون سنة . وكان من فتيان العرب البسلاء ، فلما انتهى الى البصرة ، وخبر أرضها وأهلها ، نقلوا اليه ان عاصماً بن عمرو مات ، وان اقليم فارس جميعه نكث عهده ، وثار على عبيدالله من معمر الذي مرّ ذكره . فأعدّ عدته للزحف الى ذلك الاقليم ، وقبل أن يغادر البصرة بلغه ان الجيش العربي لجأ الى الفرار من وجه الفرس وان قائده عبيدالله قتل في الميدان ، عند باب بلد يقال له اصطخر. فرأى عبدالله ان ينظر في أمر جيشه من جديد، واستنفر اهل البصرة جميعهم ليزحفوا الى مقر الثورة ، وجعل على مقدمته عثمان بن العاص الثقفي .

وعثمان بن العاص، من اولئك القواد الذين عبروا البحر من عمان والبحرين، مع ابي العلاء الحضرمي ، في خلافة عمر . والتقى الجيشين في اصطخر التي قتل عند بابها ابن معمّر ، ويزدجرد نفسه ، من وراء الستار ينفخ في صدور قومه ، روح التمرد والحرب . ولكن القدر كان قد خان يزدجرد ، فان جيشه تراجع امام القوة الجبارة التي تزعزع الجبال، ثم حصد السيف معظم رجال ذلك الجيش، وفرّ من بقي منه الى نواحي الصحراء وبطون الاودية. وكتب عبدالله الى الخليفة يبشره بالظفر . فأجابه عثمان : اذا اتاك كتابي فاجعل اقليم فارس خمسة اقسام ، وأمّر عليها هؤلاء الرجال، هرم بن حسان اليشكري، وهرم بن حيان العبدي، والخرّيت بن راشد ، والمنجاب بن راشد ، والترجمان الهجيمي، وانت تعرفهم، واجعل اقليم خراسان ستة ، وليكن الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرة اليربوعي على بلخ ، وخالد بن عبدالله زهير على هراة ، وامين بن احمر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور ولا تتردد في الرجوع الى البصرة مع من يبقى من الجيش. ففعل الرجل ما أمره به ولم يلبث حتى رجع ،

وانصرف كل رجل من الولاة الى عمله . وكان الاحنف بن قيس اسبق الناس الى ناحيته ، ومعه اخوه عبدالله وطارق ابن اخيه وهو في الثامنة عشرة من العمر .

وتعب المسلمون في البحث عن يزدجرد ، ولكن الارض ابتلعته وجعلت له في جوفها ملجأ يقيم به . واختار الاحنف مرو الاخرى ، التي يقال لهـــا مرو الروذ ، حاضرة لولايته ، وجعل عيونه في كل بلد يبحثون عن ملك الفرس .

* * *

- ١٢ -

بين المروين ، مرو الشاهجان ، ومرو الروذ ، منازل صغيرة ، على شاطيء النهر يقيم بهافريق من العرب والفرس، الذين عجزوا، وقدأطلوّا على الشيخوخة القاسية، عن حمل السيف، بينها منزل هو أكبرها ، تقوم عن جانبه الذي يجاور النهر ، حجرات صغيرة، تمد البهجة حولها رواقها الضاحك وينشر الهدوء فوقها ظله . وانـــك لترى فيه عبدين من عبيد الفرس ، ورجلاً عربياً جاوز الكهولة اسمه سنان من بني سليم ، وزوجته عمرة ، وكهلا آخر لا ينتمي الى عشيرة من عشائر العرب .. وفتاة في الثالثة عشرة فتانة المحاسن ، السحر في وجههـا وفي عينيها هي ابنته.. وهي سيدة المنزل وصاحبة الامر فيه، وأبوها الذي لا عشيرة له تكفيه ابتسامة تبدو على ثغرها الفتان .. والمنزل واسع رحب، وله فناء ذو سور عال ، اعدّه صاحبه لنزول الغرباء الذين يمرون بين المروين . ولم يكن لتلك الفتاة اسم ، فقد كان ابوها وسنان عمرة ، يدعونها اليتيمة ، واذا ذكرها الغرباء النازلون في دارها قالوا : اليتيمة الساحرة .. أجل، كانت ساحرة في كل شيء، في قامتها الهيفاء وصوتها العذب ، وعينيها الفاترتين، بل كان جمالها أبعد أثراً من السحر .

وكان القوم يتناقلون اخبار ذلك الجمـال ، ويتحدثون بتلك المظاهر الخلابة التي تبعث الاعجاب الى الصدور.. حتى انتهت تلك الاخبار إلى المروين، وجعل البعض يقول للبعض الآخر : انها ابنة امير عربي يكتم الناس اسمه واسم عشيرته نعم ، ان اباها اليوم عربي ، ولكنه كان فارسياً ، ومن صغار القواد في جيشي

بهمن ورستم ، وكان يدعى شهريار الخراساني ... انه شهريار الخراساني ... انه شهريار بوجهه المشوّه وملامحـــه الجذابة ... وقد جعله الهم المبرّح كهلاً قبل الاوان .. لقد انقضى على موت جهان روز ثلاثة عشر عاماً كانت ايامها كلها ذكريات ، فيها الالم والكآبة ..

كان شهريار المنكود الحظ، يذكر ذلك القصر الذي ماتت فيه حبيبته حظية يزدجرد ، ويذكر تلك الساعة الرهيبة التي لفظت فيها الروح ، بل كان يذكر ، والحزن يملأ فؤاده ، ذلك الملك القاسي الذي حول وجهه عن حظيته وهي على فراش الموت .

ثم ينتقل بالذكرى ، الى العهد الآخر، يوم ألقى باليتيمة ، بين يدي أم عامر، زوجة عبدالله بن قيس ، لترضعها حب العرب. وكان يستعيد ماضيه ، بكل ما فيه ، باكياً غرامه الذي خنقه الملك ، مستعيناً على جور الزمان، بابتسامة الطفلة الطاهرة تجود بها شفتاها من حين الى حين .

ظلت ابنة جهان روز عامين كاملين في حضن ام عـــامر ، عشرة اشهر في حلوان ، واربعة عشر شهراً في الكوفة ، بعد ان انصرف اليهـا سعد بن أبي وقاص والمسلمون .

وشهريار لا يفارقهـا ، كالعبد الامين القائم على خدمـة مولاه . حتى أمست جبال فارس وسهولها ميادين للقتال ، فتفرق شمل العرب في كل قطر ولحق كل قائد بالجيش الذي جعله عمر بن الخطاب قـائداً له ... ثم قتل عمر ، فبدأ أمير المؤمنين عثمان يولي ويعزل كما قرات ، وقضت الحروب المستمرة التي لم تخمد لهـا نار ، بأن يفارق الاخ اخاه ، ويبعد الوالد عن ولده . فاختار الخراساني ، مرو الشاهجان مقاماً له ، وهو بلباس العرب وعليه عمامة العربي والنـاس ينظرون اليه كما ينظرون الى كل غريب،ولا يعلمون اي رجل هو. وقد رأى في مرو سناناً وزوجته عمرة ، وهما فقيران وقد خبرا الزمان ، فضمهما اليه وجعلها خادمين لليتيمة، ثم اشترى عبدين من عبيد فارس انس فيهما الاخلاص والوفاء له وللطفلة الساحرة التي يفديها بحياته وقضى ايامه كلها في البحث عن يزدجرد ، يترك منزله

شهراً ويعود اليه فيمكث بضعة أيام ، ثم يعود الى الطواف في أرض خراسان ، ليلمس بيديه الارض التي وضع فيهـــا الملك الظالم قدميه . وكان يزدجرد كثير الخوف ، ينتقل الى هذا البلد في ظلام الليل ، وهو بلباس اهل خراسان ، لينفخ روح الثورة في صدور الزعماء ، ثم يعود منه الى بلدٍ آخر ، وهو بلباس أهـــل العراق ، ليشتري بذهبه الكثير انصاراً للعرش . والارض نفسها لا تحس به .. والقوم الذين يقيم بينهم لا يعلمون من أين يجيء والى اي بـلد يذهب . لقد كره الملك المخلوع أن يسلبه العرش الفارسي اولئك العرب الاجلاف(بزعمه)،فحاربهم برجاله وماله، ولكنه رأى انه أعجز من ان يسترد ما خسر فاستولى عليه الخوف. الخوف من الموت، ولم يستطع رغم خوفه ، الا ان يغذّي الثورة بالوعود والذهب فقد يخلق الزمان ما لا يخطر له .. وعلمته التجاريب الخبث والدهاء ، فقد كان يبتسم لعدوه والنار تتأجج في صدره ويغضب على رجاله وهم أحب الرجال اليه وأملت عليه الحادثات ان يحتفظ بسره لا يبوح به لأحد من المقربين، ولا يظهره الا اذا اكره على اظهاره . يمشي فيتبعه القوم ، وهم لا يدرون الا انهم يتبعونه.. فاذا انتهى الى غايته ابتسم لهم كأنه يقول : حسبكم هذا..!!

وابو اليتيمة الساحرة لا يهدأ ولا يمل من الطواف ، ولم يكن يخشى ان تقع عليه عين الملك ، فهو في نظره من المخلصين ! على انه لم يره ، ولم يكتب له ان يسجد عند قدميه كما كان وهو في بلاطه .

كان يعلم انه في هراة ، فيدخلها متحجباً مستخفياً عن العيون وبينا هو يتتبع الآثار ويسمع الاخبار ، يخرج يزدجرد الى نيسابور، فيخرج هو من ناحية اخرى ليقرأ سره ، ولكنه لا يلبث حتى يسمع ان الملك انتقل الى طوس ليمكث بهـا بضع ساعات ، ثم ينصرف منها الى جوف الارض ...

ولو كان هنالك رجل غير شهريار ، لملّ هذا الطواف المضني وآوى آمنا الى منزله للعناية بالفتـاة التي هي قطعة من روحه . ولكن عزيمـة شهريار جبارة لا تلين ، وغرامه الصامت الطاهر لا يموت ... وجثة جهان روز ماثلة أمام عينيه ومـــا هي غاية الخراساني من طوافه ? انك لتظن انه سيضع خنجره في صدر ملكه على مرأى من رجاله ثم يقول لهم : اضربوا عنقي فأنا قاتله .. لا .. انه لم

يكن يريد القتل ولو استطاعه ، ولكن كانت له غـاية اخرى هي ان يلبس من جديد لباس المخلصين ويقص على الملك حكاية من حكايات المـاضي كما سيجيء . نعم ، كان يستطيـع ، بالقليل من الصبر ، ان يرى الملك ولو ارتفع الى الغمام ، ثم يطعنه طعنةً تزهق معها روحه ، ولكنه كان يخاف اذا فعل ، ان يخسر حياته ، وهو يريد ان يعيش !! وحياته ليست له ، بل هي لابنته .. وقد عاهد الله على ان يجعل هذه الحياة ملكاً للصغيرة الحسناء . فاذا قتل ، خسرت اليتيمة أباها الذي ارسلته اليها السماء.. وقد تقذف عاصفة العالم الهوجاء الى بحر لا قرار له ... ذلك ما كان يخافه شهريار ، وهو واثق بأنه سيبلغ بصبره ، غايته من يزدجرد .

والزمان لا يرحم صعلوكاً ولا يصفو لملك ...

***

- ١٣ -

مرّت الاعوام وابو اليتيمة لا يجد سبيلاً الى بلوغ الغاية ، حتى ثارت خراسان ثورتها ، باغراء يزدجرد ، وقتل عبيدالله بن معمر ، ثم أخمد النار عبدالله بن عامر والي البصرة ، وجعل الاحنف بن قيس عـــلى المروين . فرأى شهريار لفكرة خطرت له ، ان يختار له منزلاً بين المروين ، على شاطيء النهر ، ويجعل جانباً منه لأهل بيته ، والآخر للغرباء ، وهو المنزل الذي وصف لك منذ لحظة . وكان قـد عرف ، ان عبدالله بن قيس مقيم بمرو الروذ عنـد أخيه الأُحنف وهو من أركان حربه . وعبدالله صاحب الفضل على اليتيمة ، وزوجته أم عامر ، أمهـا بالرضاع . فخطر له أولاً أن يلجـأ اليه وينزل في داره ، ولكن خاف أن يرى فتاته فتىً من فتيان العرب النبلاء ، فيستهويه جمالها ، ويسقط في شرك الغرام ، ثم يسأله ان يجعلها زوجة له ، وهو لا يستطيـع ذلك إلا بعد أن تصبح في الخامسة عشرة من العمر .. وتلك هي وصية جهان روز التي لا تتغير منها كلمة . تعرف اليتيمة سرّها عندما تبلغ السن التي ذكرنا ، ثم تزف الى فتى عربي تختاره هي ، دون ان يكون في زواجها ظل للاكراه .. ذكر شهريار ذلك فآثر البقـاء عند

الشاطيء، على النزول في موضع يعسكر فيه الجيش العربي، ويكثر فيه الناس. وكان قد انتهى الى أهل المروين ، ان على ذلك الشاطىء منزلاً أعـدّه صاحبه للغرباء من الامتين فنزل فيه الراحلون منهم والراجعون وكانوا يصفون لمن يرون جمال تلك الفتـاة الساحرة التي تبتسم للاضياف ... ولم يمر شهران حتى أمسى ذلك المنزل ملجأ يلجأ اليه القوم . ففي احدى الليالي، أبصر شهريار بين أضيافه رجلاً من الفرس عليه طيلسان كأنـه من رجـال الدين ، ومعه فتى هو ولده ، وعبد لهما .. وقد قرأ على وجهي الرجلين سطور النبالة والعز . فخيل اليه انه رآهمـا قبل تلك الساعة ، ثم ذكر صاحب الطيلسان ، وعرف انه من مرازبة فارس وقوادها ويدعى ماهوية. وقد كان بين القواد الذين شهدوا حرب القادسية، وان ولده يقال له براز ؛ فقال في نفسه : قد يكون للرجلين علاقة بالملك، ثم قام في ذهنـه انهما من الجواسيس الذين يطوفون في ذلك القطر لحساب يزدجرد ، فهش لهما مرحباً ، ثم دعاهما الى حجرته ليقضيا ليلتهما فيها دون ان يزعجهما الآخرون، وكان يبتسم لهما كأنهما من اصدقائه.. فآنس فيه ماهويه، ليناً وأدباً، وطاب له ان يحدثه بالفارسية التي يحسنها على رغم لباسه العربي، فقال له: اللباس لباس العرب واللغة لغة الفرس ، فمن أيهم انت ؟

قال : عربي كما ترى ، ولكني احب اهل فارس فامي منهم وقومهـا احب اليّ من قومي .

– وأبوك حي ؟

– قتل في الموصل وماتت أمي بعد فتح المدائن !

– وهذه الفتاة ؟

– هي ابنتي وقد فاجأ الموت امها يوم ابصرت هي الوجود .

– وأي حرب شهدت مع قومك ؟

– يوم الجسر، وأيام القادسية وجلولاء وحلوان .

ووضع يده على جبينه متظاهراً بالتفكير ثم قـال : اذكر اني رأيتك في القادسية ، يوم قطعت يدي، وقد كنت بين القواد ..

قال : أصبت فقد قاتلت العرب في ذلك اليوم ، ولكن ذلك القتال انتهى

بالفشل كما انتهت الحروب قبله وبعده .

قال : من حق الفرس ان يدافعوا عن ارضهم ولو خسروا كل شيء .

– وماذا ينفع الدفاع اذا كان هنالك ملك مثــل يزدجرد يقرب الخونة من امرائه ويبعد المخلصين .

– ولا اطيق ان اذكر اسمه .

فظن شهريار انها حيلة منه ، فقال : ما سمعت من قبل ان الناس يبغضون ملوكهم !!

– اما انا فقد أبغضت يزدجرد ولست بنادم على ما افعل ..

قال : أيطيب لك ان تذكر لي اسباب هذا البغض ؟

– اذكرها ولا ابالي فهو يفرّ من بلد الى آخر تاركاً عرشه نافخاً في الصدور روح الحرب وهو جبان .

قال : لا تلم الملك الذي يبذل جهده ليسترجع ملكه .

– بل ألومه عندما يخرج من بلاطه خروج الجبناء ، ويقرّب اليه طائفة من الانذال يطوفون معه في الاقاليم ليجمعوا المال ، ويقذفوا برجال فارس الى لجة الفناء والعار ، ويدفعوا البلد الآمن الى اتون النار .

– إذن كان يجب ان يبقى في المدائن ويدافع فيها عن التاج..

– أجل،وكان عليه ان يحمل سيفه امام قومه قائلاً لهم:الموت خيرمن الفرار.

– ولكنه قد فر كما ترى فلم يبقَ إلا ان يعد العدة من جديد ليطرد العرب من بلاده ، ويمحو بقوة السيف عار ماضيه .

– أقسم لك بجميـع الآلهة انـــه لا يعلم ماذا يصنع .. يثور قومه ، فيخمد العرب نار ثورتهم، ثم يختارون منهم عمالاً على البلاد ، فيجيء يزدجرد ، ويدفع باكاذيبه ووعوده أولئك العمال الى الخيانة فتندلع بين ليلة وضحاها ألسنة النار التي اخمدها الفاتحون .. ثم قال : هذه مرو الشاهجان ، لقد جعل اميركم العربي رجلاً عاملاً له عليها وهو يظن انه مخلص للعرب .

– اعرف هذا الرجل فهو يدعى سنجان ، وقد رأيته في قصره .

قال : انه ابن اخي وقد كنت واثقاً بهدوئه واخلاصه لمن ولاّه .

ولكن يزدجرد لا يريد ان يبقى على اخلاصه، بـــل لا يريد ان تحقن الدماء .

– وماذا صنع ؟

– ما يصنعه كل يوم مع جميع العمال . يملأ يديه ذهباً ويدعوه الى العصيان ، ثم يعده بأن يجعله أميراً من امراء البلاط !

– وهل فعل ذلك ؟

– نعم ، ولا يمر شهر حتى يحمل القوم لواء ثورتهم ويخرجوا عن الطاعـة .

– وكيف دخل يزدجرد مرو والعرب حولها وعيونهم على الضفتين ؟

– لم ترَ له مرو وجها ولكنه يرسل رجاله ومعهم الذهب وهم يرددون وعوده ؛ فتبين شهريار الصدق في عيني الرجل ، ولكنه ايقن بأنه لم يكن يبالي بدماء قومه تهرق في سبيل يزدجرد ، بل كان طامعاً بالسلطان . وهو يريـد ان يكون عاملاً للعرب على مرو، بدلاً من ابن اخيه ، فقال له : والى اين أنت ذاهب الآن ؟ – الى مرو الروذ

– وتريد أن تقيم بها بعيداً عن الحرب ؟.

بل أريد أن أرى والي المروين الذي يقال له الاحنف بن قيس .

– وتعرفه ؟

– لا أعرف من رجال العرب غير القواد الذين رأيتهم في الميادين .

– وهل من حاجة يقضيها لك ؟

– اقصّ عليه خبر سنجان ، ومساعي يزدجرد ، ثم أسأله ان يختار له عاملاً من أصحاب الوفاء .

فضحك قائلاً : وهل تظن ان الأحنف يسمع لك وانت من اعدائـه ، ومن القواد الذين حاربوا قومه في العراق ؟

– اذا لم يسمع لي ، رجعت الى بلدي ، ثم احمل اهلي واشيائي وارحل عـن مرو الى ارض ليس فيها ظل ليزدجرد .

قال : لقد رأيت رأياً .   – ما هو ؟

– هو ان تسأل الاحنف أن يوليك .

قال : اتقسم لي انك من المخلصين للعرب ؟

– أقسم لك اني أؤثر الخضوع للعرب على الخضوع ليزدجرد .

قال :ستكون بعد ايام عاملاً على مرو الشاهجان .

– واي شيء اوحى اليك بهذا ؟

– خاطر خطر لي وسترى اني صادق. ولكن للاحنف شروطاً سيذكرها لك وستخسر حياتك اذا نسيت منها شرطاً واحداً .

– وتعلم انت هذه الشروط ؟

– أعلم بعضها فهو سيجعلك عينا على الملك والويل لـك اذا رأيته في مرو ولم تقبض عليه .

قال : اذا جاء فهو لا يجيء وحده .

ولكن العرب لا يبالون برجاله بل يكفيهم ان يسقط هو في الشرك .

قال : اذا عهد اليّ الاحنف في ذلك فعلت .

– وعليك أن تذكر للعرب المكان الذي يلجأ اليه يزدجرد اذا عرفته دون أن تتردد في الامر .

– وأعد اني سأفعل هذا .

اذن بقي علينا أن نقضي الليل ثم نرحل عند الصباح .

وانصرف الى حجرة يصرف فيها ليلته وهو يخاطب نفسه قائـلاً : سأجعل هذا الامير الطامع آلة في يـدي وسأذكر كل شيء لعبدالله بن قيس فهو لم ينس شهريار الخراساني ولم تنس ام عامر تلك الطفلة التي احتضنتها عامين كاملين .

* * *

– ١٤ –

هذه أصابع الفتنة تمتد بين المسلمين الى الكوفة ، وعاملها الوليد بن عقبة والى

الشام وعاملها معاوية بن ابي سفيان . وهذه نار الثورة تتأجج في طبرستان وخراسان من جديد يسعرها يزدجرد الذي لا يهدأ الا اذا استرجع عزّه وعرش اجداده ، وكان ذلك في مطلع السنة الثلاثين . في الكوفة والشام ابطال اشداء من العرب وعشائر رفعت الاسم العربي الى العلياء . ولكن الشر بسط ظله فوق البلدين ، وكادت السيوف تخرج من أغمادها ليخضبها المسلمون بدماء المسلمين !! كلمة واحدة يقولها أحدهم تخلق الفتنة الدامية ، وبادرة واحدة من بوادرالطيش تمسي حربا يضطرب لها ركن الملك !

ولولا هيبة الاسلام وهيبة الخليفه ، لكان السيف وحده في ذلك الزمان سيد الاحكام . غضب عثمان على سعيد بن أبي وقاص والي الكوفة ، فنحّاه عن الولاية كما قرأت ، وجعل عليها الوليد بن عقبة ، الذي كان عاملاً على عرب الجزيرة لعمر بن الخطاب في السنة الثانية من خلافته. فقدم الوليد، وكان احب الناس الى الناس وارفقهم بهم ، بل كان اباً لكل عربي مهما تكن منزلته في قومه قضى في الكوفة خمسة اعوام ليس على داره باب !! الناس يحضرون مجلسه ويخرجون في النهار وفي الليل ، فيالصباح وعند الفجر دون ان يكون هنالك غلام يستأذن لهم . دار يدخلها من يشاء من القوم ، عندما يشاء ، وكان في الكوفة رجل من اصحاب النبي ، يقال له ابو شريح الخزاعي ، وقد تحول اليها من المدينة ليدنو من الغزو . فبينا هو ليلة على سطح منزله ، استغاث جارٌ له، فأشرف ، فإذا بشباب قد بيتوا ذلك الجار وجعلوا يقولون له: لا تصح ، فانما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذا الليل . وكان المستغيث رجلاً من عشيرته ، من خزاعة ، وبينه وبين اولئك الشباب عداوة سببها الزهو والغرور ، وقد خرج اليهم بسيفه ليدافع عن نفسه . فلما رأى كثرتهم استصرخ ، فجعل ابو شريح يصيح بهم ، ولكن السيوف كانت قد غاصت في جسد الفتى المنكود الحظ فهوى قتيلاً على باب داره وليس في الدار من يشاركه في الدفاع. ومشى القوم كما يمشي الظافر ، وسيوفهم مخضبة بدم البريء على رأسهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن ابي مورع من بني اسد ، وشبيل بن ابيّ ، وغير هؤلاء من الفتيان . فغدا ابو شريح على الوليد يقص عليه ما رآه .

قال اتشهد ؟

– أجل ويشهد ابني فقد رأى ما رأيت ، وارتفعت اصوات القوم، هـــذا يناصر القاتل وهذا يطلب بدم القتيل ، والوليد ينصح لهم بالهدوء ريثما يكتب الى الخليفة يسأله رأيه . وبعث برسوله في اليوم نفسه الى عثمان ،

فكتب اليه عثمان يأمره بقتلهم دون ان يصغي الى الشفاعات . فأمر بهم ابن عقبة ، فقتلوا على باب القصر في الرحبة ، وكان عمرو بن عاصم التميمي حاضراً فجعل يقول :

لا تأكلوا ابداً جيرانكم سرفاً   اهل الدعارة في ملك ابن عفان
ان ابن عفـــان الذي جربتم   فطم اللصوص بمحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً   في كل عنق منهم وبنان ...

والقتل يبعث الهيبة والخوف ..

فسكت القوم ولكن على غلّ ، وحقدوا على الوليد ووضعوا عليه العيون، ثم جعلوا يتآمرون عليه ليخرجوه من الكوفة ذليلاً معزولاً . وماذا يصنعون مع رجل مثل الوليد ؟

انهم يقولون لأمير المؤمنين : رأينا الوليد يشرب الخمر فينتهي امره .

وهم في ذلك ، اقبل رجل يقول لهم : هل لكم في الوليد يشارب صديقاً له !

فثاروا وجعلوا يقولون لوجوه اهل الكوفة : هذا اميركم عاكف على الخمر يشربها مع رجل من طيء .

فمشى الناس معهم يريدون منزل الوليد وباب المنزل الى المسجد؛ فلما فوجيء بهم ، نحىّ شيئاً كان امامه وادخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه والوليد ساكت ، فاذا هو وعاء فيه تفاريق عنب ، وانما نحّاه استحياء ان يروه وليس عليه الا التفاريق .. فقاموا فخرجوا واقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان اخماداً للنار .. وقد كره ان يتحدث بالأمر ويفسد بين القوم .

اما هم فلم يسكتوا ولكنهم صبروا بضعة ايام ثم اقبلوا يقولون لعبدالله بن مسعود صاحب بيت المال : الوليد يشرب الخمر ، واذاعوا ذلك حتى رددتـه الأفواه ...

فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ..

وبلغ ذلك الوليد ، فأرسل اليه فأتاه ، فعاتبه قائلا : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً مثل هؤلاء بما أجبت ؟ اي شيء استتر به يا عبدالله ؟

قال : كلمة قلتها لم أرد بها شراً ، وانتهى العتاب الى افتراق الاثنين على تغاضب ولم يكن بينهما اكثر من ذلك .

على ان الحقد ملأ قلوب القوم الذين قتل الوليد ابناءهم وامسوا على حال لا سبيل معها الى الصبر ، فندبوا ابا زينب الأزدي ، وابا مورع الاسدي للشهادة عليه . وجعلوا يحضرون مجلسه ويتظاهرون بنسيان ما مضى . فبينا هم معه يوماً في البيت ،نام الوليد وتفرق القوم. ولكن أبا مورع وأبازينب لم ينصرفا، بل تناول أحدهما خاتمه ثم خرجا وقد تم لهما ما أراداه . وكان للوليد امرأتان في المخدع ، بينهما وبين القوم ستر : احداهما بنت ذي الخمار ، والاخرى بنت أبي عقيل .

فلما استيقظ الوليد لم يرَ خاتمه فقال لزوجتيه : اين خاتم الامارة ؟

فلم يجد عندهما منه علماً ، فقال : من بقي في الدار من القوم ؟

فقالت بنت ذي الخمار : رجلان لا نعرفهما .

قال : صفيهما لي .

قالت: على احدهما خميصة وعلى الآخر مطرف وصاحب الخميصة أقربهما اليك.

– أقصير هو ؟

– نعم وقد رأيت يده على يدك .

قال : هذا والله ابو زينب والآخر أبو مورع وقد أرادا أمراً .

ووثب فبعث بمن يبحث عنهما فلم يقدر عليهما، لأنهما كانا قدخرجا من الكوفة يريدان المدينة ومعهما جماعة من اهل الشر . ولم يلبث الوليد حتى رأى رسول امير المؤمنين يأمره بالمجيء اليه ، فخرج حتى اقبل الى مجلس عثمان وفيه وجوه الناس .

فقال عثمان للرجلين : بم تشهدان ؟ أتشهدان انكما رأيتماه يشرب الخمر .
فخافا .. ثم قالا : لا . !
— وماذا اذن ؟
— دخلنا عليه وهو يقيء الخمر وهذا خاتمه اخذناه وهو سكران .
قال : ما يقيء الخمر الا شاربها ...
فقال الوليد : يا امير المؤمنين انشدك الله فوالله انهما لخصمان .
قال: لا يضرّك ذلك فانما نعمل بما ينتهي الينا فمن ظلم الينا فالله وليّ انتقامه، ومن ظُلم فالله وليّ جزائه .

واومأ الى سعيد بن العاص قائلاً : اجلده .
فجلده سعيد ، ونشأت منذ ذلك الحين عداوة بين اهـل الاثنين ، ثم قـال الخليفة : لقد عزلناك يا ابن عقبة وولينا سعيداً .

قال : افعل ما يطيب لك يا امير المؤمنين . فصرفهم ، وصدر الوليد يغلي ، والمتآمرون يحيطون بسعيد بن العاص ويتملقونه وقد بدأوا يحرقون البخور . وخرج سعيد يريد الكوفة وهم معه ، فلما انتهوا اليها صعد سعيد المنبر فحمدالله ثم قال : والله لقد بعثت اليكم وانا كاره، ولكني لم اجد بداً اذا أُمرت .. الا ان الفتنة قد اطلعت عينيها ووالله لأضربن وجهها حتى اقمعها . ونزل وجعل يسأل عن اهل الكوفة حتى عرف ما أراد ان يعرفه فكتب الى عثمان يقول : ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم فلا ينظر فيهم الى ذي شرف او بلاء ..

فأجابه عثمان اما بعد ففضّل اهل السابقة ممن فتح الله عليهم البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، الا ان يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به ، واحفظ لكل واحد منزلته واعطهم جميعهم بقسطهم من الحق ، فأرسل سعيد الى وجوه الناس من اهـل الفتح فقال : انتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبيء الجسد.. فأبلغونا ذي الحاجة لننظر فيها على ما يريد العدل ويريد امير المؤمنين، فارتفعت الاصوات تسفّه هذا الرأي وكأنما الكوفة كانت يبساً شملته نار ... فلم يستطع الوالي الا ان يشاور مولاه فيما رآه. وكان عثمان ينتظر اخباره فلما اتاه كتابه ، نادى مناديه : الصلاة جامعة .

فاجتمع القوم ، فخبرهم بالذي كتبه الى سعيد ، وبالذي كتبه سعيد اليه ، فقالوا له : اصبت فـلا تسعف أهـل الكوفة ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل فانه اذا نهض في الامور من ليس اهلاً لها افسدها.. فقال: يا اهل المدينة: استعدوا واستمسكوا فقد دبت اليكم الفتن ، وقـد صدق الخليفة ، فـان الناس كانوا يتمخضون بالفتنة ، وتلك هي أصابعها في الكوفة . .

واما الشام فكان قد قدمها رجل يدعى ابن السوداء ، وكان رجلاً مقيماً بها يدعى ابا ذر؛ فلقيه ابن السوداء يوماً فقال : ألا تعجب لمعاوية يقول : المال مال الله ، الا ان كل شيء لله ، كأنه يريد ان يحتفظ بـه ويمحو اسم المسلمين ؟! فاتاه ابو ذر فقال : ايها الامير ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟

فقال معاوية : يرحمك الله يا اباذرّ ، السنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والامر أمره؟؟ قال بلى ولكن لا تقل ذلك فان الناس يظنون أنك تستأثر بمالهم ولا تريد ان تعطيهم نصيبهم منه .

قال : سأقول انه مال المسلمين ولكن لا اقول انه ليس لله . .

فخرج أبو ذرّ وطاف في دمشق وجعل يقول : يا معشر الاغنياء ، احسنوا الى الفقراء « بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم» . وما زال حتى ولـع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الاغنياء ، وحتى شكا الاغنياء مـا يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان : ان ابا ذرّ يفسد على المسلمين في الشام امرهم وقـد فعل مـا نكرهه ويكرهه أمير المؤمنين ... وقصّ عليه حكايته ... وامير المؤمنين لا يرى امام عينيه الا الفتنة، فأجابه قائلاً: لم يبق الان تشب الفتنة.. جهز ابا ذرّ اليّ وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به وكفكف الناس مـا استطعت. فبعث به ومعه دليل فلما قدم المدينة وراى المجالس في موضع يقال له سلع قال لدليله : بشر اهل المدينة بغارة شعواء .

ثم دخل على عثمان ، فقال : يا أبا ذرّ ما لأهل الشام يشكونك اليّ ؟

فقال : لا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً .

قال : عليّ أن اقضي ما عليّ واخذ ما على الرعية ولا أكرههم على الزهد .
قال : فتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار ؟
قال : او تستبدل بها الا شراً منها ؟
قال : أمرني رسول الله ان أخرج منها اذا بلغ البناء موضع سلع .
- افعل ما أمرك به .

فخرج حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً واقطعه عثمان طائفة من الابل واعطاه مملوكين وأوصاه بأن يزور المدينة من حين الى آخر حتى لايرتدّ اعرابياً. وتحدث الناس في الشام بما فعله معاوية وعثمان ، وغنى كل فريق على ليلاه ... وكانت نفوس القوم تتهيأ للثورة ..

* * *

لقــد بعثت اليك بحذيفة بن اليمان ، وناس من اصحاب رسول الله والحسن والحسين ولدي عليّ وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر الخطاب، وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير ، فاغزُ بهم وبجيشك اهل خراسان ، واخمد النار التي امتدت السنتها في ذلك الاقليم الذي لا يعرف ان يطيع .. هذا مــا كتبه امير المؤمنين الى سعيد بن العاص . وكتب الى عبدالله بن عامر : اما بعد فاذا أتاك كتابي فاجعل من تشاء من الرجال خليفة لــك على البصرة واخرج غازياً فان القوم في خراسان لا يخضعهم الا السيف . فانصرف الواليان مــع جيشيهما ، هذا خرج من ناحية البصرة والآخر من ناحية الكوفة ، وهما واثقان بأن يد يزدجرد ، في هذا العصيان . وسبق عبدالله سعيداً فنزل مدينة أبو شهر ، ثم جاء سعيد فنزل قومس ، ولم يلبث ذلك القطر الكبير حتى دان بعــد قتال وصلح للمسلمين . وعرف ابن عامر ان يزدجرد مرّ من جور ، فوجه في أثره مجاشع بن مسعود السلمي ، على رأس جيش صغير ، ولكن فاجأه الثلج والبرد ، فضيع ذلك الأثر بين جور وكرمان . ونجا يزدجرد هذه المرة من السيف كما نجا من قبل ، فأوصى عبدالله بن عامر قواد الاقطار بان يحذروه ويجعلوا عيونهم في كل بلد ، ثم رجع ورجع سعيد بن العاص بعد ان استقام الامر لهما ..

* * *

كان الأحنف بن قيس ، مع مجاشع بن مسعود يبحثان عن الملك ، فلما ضيّعا أثره ، عاد الاحنف الى مرو الروذ ، وامر رجاله بالتفتيش عن ذلك الأثر ، في الارض ، وفي الفضــاء .. وكان قد بلغه ان سنجان ، عامله على مرو الاخرى ، من انصار يزدجرد وان الرسل تروح وتجيء بين الاثنين . فهمّ بأن ينحيه ، ويختار له رجلاً آخر من اهل فارس يقيم على الولاء ويحفظ العهد. وقد شاور في ذلك اخاه عبدالله ، فوعده بان ينظر في امر الرجل عند الصباح . وكان شهريار وماهويه وابنه براز قد انتهوا الى مرو في مساء ذلك اليوم . ولشهريار اصدقاء كثار فيها ، ينزل بينهم كأنه احدهم وهم يظنون انه عربي .

فلما انقضى ذلك الليل خرج الثلاثة يريدون منزل الاحنف، وبباب الاحنف طوائف من العرب والفرس ، فقــال شهريار لأحد الغلمان : أنستطيـع ان نرى الامير الساعة ؟

– انه ينظر الان في حاجات الناس فارجعوا بعد قليل .

فجعلوا يطوفون حول المنزل وفيالفناء حتى انصرف القوم، فاقبلوا ودخلوا، وعند الاحنف طارق ابن اخيه . وطارق افصح فتيان العرب لساناً وأحسنهم وجهاً .

فقال الاحنف : عربي وأمير من امراء الفرس .. وقد يكون هذا من ولده وأشار الى براز .

ثم قال : من انتم ؟

فقال شهريار : نحن كما ذكرت .. عربي وفارسيان .

– وما هي حاجتكم ؟

– لي حاجة اذكرها للامير وحده اذا شاء .

– إذن كان عليك ان تدخل قبل هذين .. اخرج يا طارق مع الرجلين الى الرواق ولا تنصرف .. فخرج الثلاثة فقال : والان ، من انت ؟

ـ اني فارسي الاصل يا مولاي ولكني مسلم .
ـ عرفت من كلامك انك فارسي وأين تقيم ؟
ـ على شاطيء المرغاب بين المروين .
ـ وهل خسرت يدك في الاسلام ؟
ـ لا يا مولاي بل خسرتها في القادسية وأنا مع رستم .
ـ اذكر الآن ما قدمت لاجله .
قال : أعرف اخاك الامير عبدالله .
ـ ومتى عرفته ؟
ـ يوم فتح المسلمون حلوان .
ـ وكنت فيها مع قومك ؟
ـ بل كنت مع الملك الذي فرّ منها قبل الفتح .
ـ اذن أنت من رجال يزدجرد .
ـ نعم يا مولاي لقد كنت من رجاله ومن المقرّبين اليه .
ـ وكيف بقيت في حلوان ؟
ـ كانت زوجتي تصارع فيها الموت يوم هرب الملك .
ـ ثم ماتت ؟
ـ أجل وقد اوصتني بان اعتنق الاسلام وبان أجعل طفلتها مسلمة .
قال : ارى ان لهذه الوصية سراً اردت ان تقابلني الان لتذكره لي .
قال: ان هنالك سراً كما تقول، ولكني لا أبوح لك به اليوم لاني لست قادراً على ذلك .
ـ ولكن لماذا قدمت ؟
ـ لأرى الأمير عبدالله واسألك ان تنظر في أمر ذلك الفارسي الذي جعلته عاملاً لك على مرو .
ـ سنجان ؟ ـ نعم سنجان نفسه !
ـ وأي امر من اموره أنظر فيه ؟
ـ امر خيانته فهو يخدع العرب !

فاستوى الاحنف جالساً وجعل يقول : اني لا أسمع عن هؤلاء الفرس غير أخبار الخداع .. أعد قولك ايها الرجل .

– قلت ان عامل مرو يخدع العرب يا مولاي .

– وكيف عرفت ذلك ؟

– خبرني به بعض قومه .

قال : احذر فخبرك هذا تهرق له الدماء . فاجابه وهو هادىء: أعرف ذلك وانما أردت ان اقصّه عليك قبل أن يهرق دم رجل واحد من رجال المسلمين .

قال : قل الآن ما تعلم !

قال : لقد وضع سنجان يده في يد يزدجرد !!

– وهل رآه ؟

– لا ولكنه رأى رجاله الذين يوغرون الصدور من وراء الستار ..

– وعاهدهم على ان يخون العرب ؟

– بل عاهدهم على ان يضرم النار حتى تحرق المروين ويمتد لهيبها الى ما وراء طوس ونيسابور !!

– إذن هي ثورة اخرى يسعر نارها الملك !

– نعم، وقد رأى هذا الملك، بفضل سنجان ، رجالاً يطيب لهم ان يشهروا السيف ، في وجه كل عربي .

– وأي موقف يقفه وجوه اهل مرو ؟

– أظن انهم يرغبون فيما يرغب فيه ملكهم اللعين !..

– تظن ؟.. وهل تكون القضية قضية ظنون ؟

– لا يا مولاي ولكني لا أستطيع ان اثبت لك ما لا أعلم ... اني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الوجوه الذين ذكرت .

– ومن يعلم ذلك ؟

– الرجل الذي خبّرني بما يفعله المتآمرون ..

– وأين هو ؟

– في الرواق مع طارق ابن اخيك .

– هذا الفارسي ؟ – نعم !
– إذن نسأله عن كل شيء وهو يجيب عما نسأل .
– وهل تريد ان أدعوه ؟

فأطرق الاحنف يفكر فيما سمع وقد غاص في لجة من الظنون .. في كل يوم حرب تبتلع الرجال وتقضي على ازاهير الشباب العربي ! ومن هو هذا الفارسي المسلم الذي يحمل اليه بشرى الثورة ، ويصف له خيانة سنجان الذي سوّدته العرب وجعلته سيّد قومه ؟

– إنه من اهل فارس، ولكنه يلبس العمامة ويقول انه من المسلمين .. وهو يعرف عبدالله وقد أتى مرو الروذ ليراه .

وكان الاحنف هادئاً صاحب رأي ، فهو لا يستعجل اموره ولا يمضي في واحد منها الا بعد ان يشاور فيه . فنادى غلامه قائلاً : قل لأخي عبدالله ان يجيء .

وبينا الغلام يهمّ بالانصراف ، دخل عبدالله بن قيس ، يجرّ عباءته وفي يده اليسرى جرح لم يبرأ ، فقال الاحنف : لقد جئت قبل ان ادعوك ... اجلس . فجلس وهو ينظر الى شهريار كأنه يعرفه ، ثم قال : يخيل اليّ اني رايت هذا الوجه من قبل .

قال : اردت ان ادعوك لاجل هذه الغاية ... تفرّس فيه واذكر ماضيك فقد تعرف من هو .

قال : اما اني رايت هذا الوجه فنعم .. واما اني اذكر اسمه ، فلا ... اني نسيت الزمان الذي رايت فيه الرجل ونسيت اسمه ..

– لعلك رايته في المدائن ..
– لا اذكر ذلك ..
– ام في جلولاء ..
– ولا اذكر اني رايته فيها .

قال : الم تخرج من جلولاء الى خانقين مع القعقاع بن عمرو ؟
– بلى !

– والى اي بلدٍ ذهبت بعد خانقين ؟

– الى حلوان .

– وبعد ذلك ؟

– الى الكوفة .

– ثم خرجت من الكوفة طائفاً معي في بلاد فارس ولم تره بعد ذلك ..

قال : يكفي اني رأيته .

– اما انا فلا يكفيني هـــذا ... لنفرض انك رأيته في احد الميادين يقاتل قومــك .

قال : العربي لا يقاتل أخاه ..

– ولكنه فارسي وقد صار مسلماً .

فوضع يده على جبينه يستعرض وجوه القوم ، فخانته الذاكرة ولم يعلم شيئاً.

فقال شهريار للاحنف : أيأذن لي مولاي في الكلام الآن ؟

– اجل ولكني سأضرب عنقك اذا كنت كاذباً .

قال رضيت ، ثم قال لعبدالله :

ألا تذكر ايها الامير ، طفلة في حلوان، اخذتها انا بين ذراعي، والقيتها انت بين يدي أم عامر لترضعها عامين ؟!

فوثب قائلاً: اي والله لقد ذكرت..ووالله لقد انستني الحروب اهلي وقومي.. انك .. شهريار .. الخراساني ..

– نعم شهريار، وقد خرجت معك من حلوان الى الكوفة وكنت في منزلك كأني من قومك حتى انصرفت انت الى خراسان ..

فقال لأخيه : صدق والله فهو شهريار .. وانه مسلم .. وله سر لم يبح به لي في ذلك الزمان .

قـــال : لقد فتحت حلوان في السنة السادسة عشرة ونحن اليوم في السنة الثلاثــين .

– نعم وقد مرّ على اسلامه أربعة عشر عاماً .. وقد ذكرت الآن ان سره لا يبوح به الا في السنة الخامسة عشرة من عمر ابنته .

ثم قال : وهو يبغض يزدجرد الملك بغضاً لا يخطر لعربي .. أرأيت طارقاً يا شهريار . انه اليوم في عامه التاسع عشر .

– رأيته الساعة في هذه القاعة وقد امره الامير بالخروج مع فارسين قدما معي امس وهما ينتظران الاذن في الدخول .

– وأين فتاتك ؟ – في منزل لي بين المروين .

– وهل نسيت ان لها في مرو الروذ أماً تريد ان تراها ؟

– ما نسيت شيئاً ايها الأمير وسأحمل ابنتي اليها عندما تشاء .

قال : لقد كانت فتانة في عينيها سحر ... ماذا تريد الآن ومن هما هذان الفارسيان ؟

فقال الاحنف : جاء ينقل الينا نبأ الحرب !

قال : ان سيوف العرب لم تترك في هذا القطر حرباً .

– ولكنها حرب اخرى يتهيأ لها يزدجرد واعوانه ..

– من هم هؤلاء الأعوان ؟

– عاملنا على مرو ومن حوله من الرجال !

– انت يا شهريار تقول هذا ؟

– نعم ، ولو لم يكن يزدجرد حياً لآثرت الموت على البقاء .

فاستغرب الاحنف قائلاً : إذن فحياتك هي للملك !

– نعم يا مولاي !!

– وتعيش من اجله ؟

– أعيش من اجل غاية واحدة هي ان اشيعه الى القبر !!

فقال عبدالله : انها نغمة سمعتها في حلوان وفي الكوفة ، ومن قال لك ان يزدجرد يتهيأ للحرب ؟

– ماهويه ، احد قواد الفرس الذين فرّوا يوم أغواث .

– وهل تثق بقوله ؟

– اثق بكل رجل فارسي لا يحب ملكه ..!

فقال لأخيه : ذلك رأيك فانظر فيا تصنع ..

قال : اسألك سؤالاً يا عبدالله ، أتثق انت بهذا الرجل ؟

– كما أثق بك .

قال : لقد كان صادقاً يوم تركته في الكوفة ، ولكن مرّ على ذلك اثنتا عشرة سنة ينقلب المرء في خلالها من حال الى حال ..

قال : ان الايام تزيد شهريار وفاءً واخلاصاً ..

– وتضمن ذلك ؟ – اجل !

– قم فادعُ إذن طارقاً ورفيقيه فقد وثقنا بصاحبك .

ودخل طارق وراءه الرجلان ، فقال له أبوه : ألم تقل لك أم عامر انها أرضعت في حلوان والكوفة طفلة فارسية لها عينان ساحرتان ووجه هو آية الجمال ؟ – بلى !

قال : هذا ابوها والفتاة على شاطىء المرغاب . وكان قد قصّ عليه ، من زمن طويل حكاية الرجل وطفلته .

فصافحه طارق وهو يقول : مرحباً فأنت عربي.. وخاطب الاحنف ماهويه قائلاً : خبرنا هذا الرجل بما يعلمه عن خيانة سنجان عامل مرو ، ولكن لا يعلم الاشياء التي تعلمه انت ، فهل نسألك ؟

– سل عما تشاء يا مولاي !

قال : تدبّر امرك قبل ان تبدأ فالاحنف بن قيس لا يصبر على الأكاذيب ..

– وأنا أقسم لمولاي اني سأروي له ما سمعت دون ان أزيد كلمة .

قال : أكنت من قواد الفرس في القادسية ؟

– نعم !

– ولماذا تركت الحرب اليوم وقومك يسعرون نارها في كل مكان ؟

– لانها حرب يعقبها الفناء ولو كنت ملكاً كما هو يزدجرد، لخضعت للعرب الخضوع الذي لا رياء فيه وحقنت دماء الناس ..

قال : ان لك لرأياً ، أتعرف سنجان كما يعرفه الذين حوله ؟

– انه ابن أخي يا مولاي !

– ابن أخيك ؟.. وأين كنت أنت يوم وليناه ؟

– كنت في مرو، ولكني رأيت الخونة من أهلها يحيطون بك وهم يتظاهرون بالاخلاص للعرب ، فآثرت الاحتجاب على الظهور .

– وماذا يصنع سنجان اليوم ؟

– يحمل اليه الرسل ذهب الملك واخباره .

– وتعرف هؤلاء ؟ – لا ، ولكنهم من رجال البلاط .

– وكيف انتهى اليك ذلك ؟

– خبرني به حاجب من حجـاب سنجان وكان يقول لي : لقد ملأ سنجان بيته مالاً وستشعل النار ..

قال : أتعلم يا ماهويه ما هو جزاء الكاذب النمّام ؟

– أرضى بأن يكون جزائي الموت يا مولاي اذا كنت كاذباً .

– بل نقطع لسانك ونقول للعرب والفرس : هذا ما يفعله القائد العربي مع الذين يهزأون به. – واذا رأيت اني لم أكذب ؟

– اعطيك ما تشاء واجعلك من أهل المشورة في هذا الاقليم .

فقال شهريار: ألا ترى يا مولاي ان تجعله عاملاً على مرو؟ فالتفت الى أخيه عبدالله كأنه يسأله رأيه؛ فقال: ان شهريار لا ينصح لك الا بما فيه خير العرب.. عده بالولاية ..

– نعده بذلك ولكن نشترط أن يبقى في ضيافتنا الآن .

– ومتى تأذن له في الرجوع ؟

– بعد أن يجيء سنجان وحاجبه ونسمع اعترافهما. ما هو اسم ذلك الحاجب يا ماهويه ؟ – بزرشير ؟

– ورضيت بالبقاء ريثما يجيء هو ومولاه ؟

– نعم يا مولاي ! – وأنت يا شهريار ؟

– ليس لي الا أن أفعل ما تأمرني به .

فسكت الاحنف قليلا ثم قال : تركب الساعة يا طارق مع أربعة رجال من قومنا وتذهب الى مرو الشاهجان .

– وماذا أصنع ؟ – تأمر سنجان وبزرجير بالمجيء .

– اذا دعوت سنجان ، عرف ان للامير حـاجة اليه هي حاجة الوالي الى مشاورة عماله في أمر عرض له ؛ ولكنه سيستغترب امر حاجبه وسيسألني عن السبب الذي يدعوك الى طلبه .

– ليس له أن يسألك عن أمرٍ لنا رغبة فيه ولكن لا تذكر له ماهويه ولا تقل انه في مرو الروذ .. ثم فانصرف ولا تقبل عذراً للرجل .

وقال لعبدالله : اما انت يا عبدالله فهؤلاء الثلاثة في ضيافتك حتى ننظر في الامر .

ثم جعل يهامسه قائلاً:يخيل اليّ ان هذا الفارسي الذي يسعى بابن أخيه صادق في روايته . – وأنا أرى ما تراه .

– وانه من الرجال الذين يجب ان نثق بهم .

اني لا أعرفه ولكني واثق بشهريار وستلمس بيدك صدق الرجل .

وقال للقوم : أبقي لكم ما تقولونه ؟

قال : لم يبق الا ان تتبين الأمر الذي خبرناك به .

فقام فخرج من باب صغير ينتهي الى دار النساء وانصرف الآخرون من باب الرواق وعبدالله يقول لولده: لا تنسَ يا بني ان لك بين المروين منزلاً تأوي اليه.

وهو يعني منزل شهريار ، ثم قال : من في المنزل من القوم يا شهريار ؟

– ابنتي، وشيخ عربي مع زوجته ، وعبدان من عبيد فـارس جميعهم خدم اليتيمة .

– ويقبلون طارقاً بين أضيافهم ؟

– كلنا عبيد لطارق وأبيه ..

فابتسم ابتسامة الشكر ، ثم ضم ولده الى صدره قـائلاً له : اركب الآن واستعن بالله على قضاء أمرك ..

فانصرف الفتى ومشوا هم يطوفون في السوق ومعهم عبدالله .

* * *

مــا لجأت الى هذا المــنزل يا سنان لأقضي فيه الليل مع اضيافك ثم انصرف عند الصباح .

وسنان هو ذلك الشيخ الذي ذكرناه لك ...

فقال : ولماذا جئت اذن ؟

– لأرى فيه ابنة شهريار التي يقال لها اليتيمة ..

– إن مولاتي لا تقابل أحداً وأبوها غير موجود .

– ولكن أتعرف من أنا ؟

– كن من شئت فأنا لا ابالي ..

قال : اني ابن أخي الاحنف .

فجعل يتفرس فيه ، ثم وضع يده على جبينه كأنه يفكر فيما سمع، ثم قال : ذلك امر لا استطيعه ولو كنت الاحنف نفسه !

قال : ممن أنت ؟ – من بني أسد .

– ألم يذكر لك شهريار ، فيما مضى ، رجلاً يدعى عبدالله بن قيس .

– بلى ذكره لي ولعبدالله فضل عليه .

– اذن فاعلم اني ابنه واسمي طارق .

فهمّ بان يعانقه ثم تراجع قائلاً : من اين انت قادم ؟

– من مرو الروذ .

– ومن رأيت فيها ؟

قال : لقد عرفت الغاية من سؤالك ، تريد أنتسأل عن شهريار .

– أجل ، وهل رأيته ؟

– نعم ورأيت ماهويه وولده والثلاثة ضيوف على ابي ، عبدالله .

– إذن كان شهريار يعلم انك ستجيء .

– بل كان يعلم اني سأقضي في الرواح والمجيء ، ليلتين في منزله .

فوثب قائلاً : والله ما كنت لامنع عبدالله مما يريد .. سأدعو مولاتي الساعة على ان يبقى رجالك في الفناء .

وكانت اليتيمة مع عمرة في حجرتها ، فدخل سنان فقال : ألم تكن مرضع مولاتي زوجة لعبدالله بن قيس شقيق الاحنف ؟

– بلى ، وهذا ما يقوله أبي .

– واذكر انه كان يقول ، ان لعبدالله ولداً يدعى طارقاً .

– اجل !

– اذن فاعلمي ان طارقاً في دار الاضياف .. وقد رأى اباك في مرو الروز وهو في ضيافة ابيه ؟

– ومتى قدم ؟

– قبل غروب الشمس ومعه اربعة فتيان من قومه وهو يعرف الماضي كما نعرفه نحن ويريد ان يراك الآن ؟

فنهضت قائلة : اما انا فليس هنالك شيء احب اليّ من ان اراه .

ومشت وراءه وليس على وجهها حجاب ، فلما اقبلت رأى طارق عينين فاترتين ، وثغراً جذاباً ، وجمالا ساحراً يدنو منه .

ثم سمع صوتاً عذباً يقول له : اهلا بالامير ! ومدت اليه يدها وهي تبتسم ابتسامة الفرح ، ولكن شفتيها كانتا ترتجفان . فصافحها الفتى وهو يتفرّس في ذلك الجمال . ثم احسّ ان جمالها ملأ نفسه بهجة وقلبه غراماً . في تلك اللحظة ، عرف الفتى ما هو الحب ، وشعرت هي بعاطفة جديدة خفق لها القلب . لقد فاجأ الغرام الاثنين دون ان يفكرا فيه ، ودون ان يمهدا اسبابه . وقد اضطربت اليدان ، وهما يتصافحان . وكأن طاوقاً ادرك انه سيفضح نفسه فقال : لم أشأ أن أمر بهذا الشاطىء دون ان ارى وجه الطفلة التي أرضعتها أم عامر زوجة أبي

قالت : لو لم يكن هذا الوجه شؤماً لما مدّ الموت يده الى امي عندما خرجت الى هذا العالم. خبرني سنان ان ابي ضيف على أبيك في مرو الروذ .

– نعم !   – ومتى يجيء ؟

– بعد أن أعود انا من مرو الشاهجان .

– اذن سيغيب بضعة ايام احسّ في خلالها بالوحشة القاتلة .

قال : تستطيعين ان تلحقي به ثم تعودين معه .

قالت : لا أستطيع ان افعل بدون اذنه .

– وام عامر ؟ – اين هي ام عامر اليوم ؟

– مع ابي وهي تريد ان ترى طفلتها الحسناء .

– سأسأل ابي عندما يعود ، ان يأذن لي في الذهاب لأرى أمي .

– اني اضمن رضاه اذا أردت الذهاب اليوم .

فابتسمت قائلة : ليس للفتاة العربية ان تخرج من منزلها مع احد من الناس دون ان يكون لأبيها رأي في ذلك .

والتفتت الى سنان وهي تقول : أليس كذلك يا سنان ؟

قال : اذا خطر لك ان تزوري ام عامر فاصبري حتى يعود مولاي .

وسمع عندئذٍ من الخارج صوت عمرة تنادي زوجها ، فخرج سنان لينظر في امر الاضياف . والتقى النظران بعد خروجه ، بفتور وهدوء وقد اطلّت من العيون عواطف القلبين وظهرت على الشفاه ابتسامة فياضة بالحب . وكان طارق من فتيان الميادين فهو لا يعلم أي شيء هو هذا الشعور الذي أحسَّ به ! بلى ، كان يعلم انه نور استضاءت به نفسه ، وانه لذة تغمر احساسه . وقد ظن ان الحب حرب ، وان من الجرأة ان يخوض المجال ، فقال : ألا تخرجين معي الى مرو الروذ وانا طارق بن عبدالله ؟

قالت : لقد علمني ابي ان اؤثر البقاء في المنزل على الخروج منه !

– وماذا تخشين ؟

– اما انا فلا اخشى شيئاً ، ولكن أبي .

– وماذا يخشى أبوك ؟

– كان يقول انه هؤلاء الرجال الذين يشبهون الذئاب !

ولكني لست ذئباً كما تريدين ، ويطيب لي ان ارى ابي في مرو الروذ واقول له : هذه هي الطفلة التي أرضعتها زوجتك !

قالت : سنفعل غدا ما لا نستطيع ان نفعله اليوم .

قال : اريد ان اعلم اي شيء يدعو اباك الى الخوف .

– تقدر ان تسأله عن ذلك بعد رجوعك .

قال : ان الارض بين المروين هي لنا وليس هنالك فارمي يستطيع ان يمد الينا يد سوء .

– ومع ذلك فأنا لا اخرج الا اذا أذن لي .

قال : ظننت ، وقد عرفتِ من انا ، انك تثقين بي .

– ان في الامر خروجا عن الطاعة وهذا ما لا اقدر عليه .

ثم ارادت ، وهي الفتاة التي لم تختبر الرجال ، ان تسمع من فمه كلمة يتنفس معها القلب الذي تتأجج فيه النار . وكان هو بدوره يحاول ان يسمع تلك الكلمة على انها كانت اسبق منه ، فقالت ما هي مهمتك في مرو الشاهجان ؟

– حاجة اقضيها لعمي الاحنف .

– وما هي هذه الحاجة ؟

– آمر عامله الفارسي بالذهاب الى مرو الاخرى وهذا ما يريده ابوكِ شهريار؟

أبي ؟

نعم فقد خبر الأحنف بان عامله الذي ذكرت يخون العرب وهو يريد ان يجعل رفيقه ماهويه عاملاً على مرو !

– وهل يسمع له الاحنف ، ويفعل ما يقوله له ؟

– لا تنسي ان ابي ، هو الذي يحمل اخاه على الاصغاء الى ما يقوله ابو اليتيمة .

قالت : ان لأبي سراً ، وهو يطوف في البلاد ، من حين الى آخر ، دون ان أعلم شيئاً عن هذا السر ، متى تذهب انت ؟

– كان قد خطر لي ، عندما لجأت الى هذا المنزل ، ان اقضي فيه الليل ثم انصرف عند الصباح .

– والآن ؟

– اما الان فسأمكث يوماً آخر او يومين !

فاضطربت قائلة : وهل يرضى عمك الاحنف بان تبقى ؟

– ان عمي لا يخاف عليّ الرجال الذين يشبهون الذئب .

– ولكنه يريد ان تتعجل في قضاء حاجته .

– وانا اريد امراً آخر لا يريده هو .

قالت : انه اميرك وليس لك الا ان تطيعه .
قال : رأيت الآن ان لي آمراً آخر لا استطيع الا ان اخضع له .
قالت : من هو ؟
فخفض صوته قائلاً : هو هذا !
ووضع يده على قلبه !
فازداد اضطرابها وقالت : أيأمرك بان تعصي عامل امير المؤمنين ؟
— بل يأمرني بان اعصي العالم كله واقيم بهذ المنزل ما طابت الاقامة لي .
قالت : خير لي ولك ان تنصرف غداً على ان تعود فتمكث يوماً آخر .
قال : أتطردينني وانا ضيف ؟
— لو أقمت بيننا العمر كله لما خطر لي ان افعل ، ولكني اكره ان يقال غداً انك نسيت الامر الذي ارسلك الاحنف من اجله .

فرفع رأسه قائلاً : قولي لي اي عربي يمر بهذا المنزل ولا ينسى نفسه ؟!

قالت : انك اخي فلا تهزأ بي

قال : اقسم بمن اعطانا ارض فـــارس اني لا اهزأ . لقد كنت منذ لحظة ، اخجل من الاعتراف بما أحسست به . اما الان فلا اخجل من شيء ولا افكر الا في هذه العاطفة التي تتردد في الصدر . اني احببت الطفلة التي وصفت لي وأمسيت اسير هذا الحب . !

فتمتمت قائلة : اعجب لهذا الحب يخلق في لحظة .

— قولي ما تشائين فأنا لا ابالي، ولكن احذري ان تستخفي بحبي الذي بحت به.

قالت : اتحب فتاة في الرابعة عشرة وهي لا تعرف من هذه الحياة غـــير المنزل والفناء ؟

قال : لو كان الامر في يدي لما احببت احداً ولكن يظهر ان هـــذه العاطفة التي يسمونها حباً ، لا تعبأ بمثل ما تقولين .
قالت : اخشى ان تندم بعد قليل على ما اعترفت به .
— لماذا ؟

– لانك من امراء العرب واشرافهم وانا من عامة الفرس ، وليس لأبي اهل في خراسان .

– ولكني احببت الفتاة ولم احبّ شرف قومها .

– وعادة العرب ؟

ان للعرب عادات كثيرة فأيها تعنين ؟

– تلك التي لا تجيز للنبلاء ان يتزوجوا الا بنات النبلاء .

قال : لا اهتمّ لعادة أشقى معها الى الابد .

– ولكن اباك يهتم لها وقد لا يرضى بأن تزف اليك فتاة من غير قومه .

قال : لا تنسي انك ابنة زوجته بالرضاع .

– ان أمر الرضاع فعل من افعال الرحمة لا صلة له بما نذكره الآن .

قال : سيرضى ابي بما ارضى انا به .

– إذن يبقى هنالك رجل آخر نحتاج الى رضاه ، هو ابي شهريار !

قال : يخيل اليّ ان هذا الحب سيضيع بين رضى الابوين . ومـا الذي يمنع شهريار من الرضى ، وهو يذكر فضل ام عامر واخلاص عبدالله ؟

لا أعلم ، انه رجل يكتنفه الهمّ فهو لا يبتسم الا اذا نظرت اليه ، ولا يعرف الهدوء في مكان الا اذا نهكته الاسفار .

– وكيف لا تسألينه عن ذلك ؟

– لي في كل يوم سؤال اوجهه اليه .

– وبماذا يجيب ؟ – بكلمة لا تتغير ولا يقول سواها !

اذكريها لي .

– يقول : لي سرّ ستعرفينه عندما تأتي ساعته .

وبكت اليتيمة ... فقد اتعبها سر ابيها وهي لا تجد سبيلاً الى استخراجه من صدره .

قال : سألتمس من ابي ان يسأله عن سره وانا ارى انه لا يكتمه اياه ..

قالت : اخشى ان تمر الايام وهو غائص في لجة الاسرار .. ثم قالت : اظن انك لا تقيم بمرو غير يوم واحد .

– بل يطيب لي ان ارجع مع عاملها في اليوم الذي أراه فيه .
– وتعود على طريق الشاطىء ؟
– أجل فليس لي طريق سواه وقد لا أمرُّ بهذا المنزل .
فاصفرَّ وجهها قائلة : وهل ندمت على ما ظهر منك فيه ؟
– لا ولكني اخشى ان اسيء الى صاحبته ..
– لم أسمع من قبل ان الأخ يسيء الى اخته اذا هو زارها كل يوم .
– وانا لم اسمع ان الاخت تطرد اخاها وتأمره بالانصراف ..
قالت : فعلت ذلك لان عمك يريد أن تتعجل في الرجوع .
– وهذا معناه انك لا تريدين أن أعود .
– بل أريد ذلك وأطلبه الآن ..
– وان لم أفعل ؟
– إن لم تفعل قضيت الزمان كله وأنا اذكر هذا اللقاء القصير العمر ...
فأشرق وجهه وقال : اذن فأنت تشعرين بما أشعر به ..
قالت : صف لي هذا الشعور الذي ذكرت .
– لا استطيع ان اصفه الا بكلمة واحدة هي .. الحب !! وقد اعترفت لك به وانتهى الامر .

فحنت رأسها ولم تجب بجواب، فقال : لقد كنت صريحاً وجريئاً في كل ما أفعل ، قولي .. أتحبينني ؟

فترددت قليلاً ثم قالت : يكفي ان تعلم اني أريد ان ترجع ..
– اما انا فتكفيني كلمة اخرى تقولينها لي .
قالت : لا أعلم .. !!
– بل تعلمين كما علمت، واني لا أخرج من هذا المنزل الا بعد ان اسمع واحدة من كلمتين ، اما أن ترضي بي أو ترديني فارجع كما جئت .
قالت : أدعوك الى الصبر حتى انظر في الأمر ..
– وهل تريدين أن تشاوري أباك ؟
– أجل !

قال : ان العاطفة لا تخضع لاراء الآباء .
– ولكني ما تعودت ان ابغض واحب الا برأيه !!
قال : خير لك أن تقولي انك تحبين سواي !
قالت : لقد رأيت طائفة من فتيان العرب والفرس ولكني لم أحب أحداً
ثم رأت ان تمعن بالدلال فقالت :
أرأيت رجلاً عربياً يفعل ما فعلت انت ؟
– وماذا فعلت ؟
– نزلت ضيفاً علينا منذ ساعة .. ثم أمسيت عاشقاً .. وهذا ما لا تفعله العرب !
– ولكنها تفعل غير ذلك أتعلمين ماذا؟ يمرُّ العربي بحيٍّ من الاحياء لا يعرف اهله ، فيرى فتاة حسناء يخفق لها قلبه ، فيحملها على فرسه الى بلاد قومه دون أن يسأل احداً وقبل أن يبوح لها بالغرام !!
– ذلك شأن الصعاليك من الناس ..
– بل هو شأن المشاق في كل مكان وزمان ، وقد يعمد طارق بن عبدالله الى مثل هذا الامر، بعد بضعة أيام!!
– انت ؟
– نعم انا ، احملك على فرسي الى مرو الروذ واقول لقومي :
هذه هي الفتاة التي اخترتها زوجة لي ..
واذا مثلت بين يدي الاحنف بن قيس وقلت له اني لا احب ابن اخيك ولا اريد ان ازف اليه ، فماذا تصنع ؟
– أغمد خنجري في صدرك ثم انزعه لأغمده في هذا القلب ..
قالت : انك ارفع من ان تذل قومك ..
– الفتى الذي يسحقه الحب ينسى قومه وانا احلف لك الآن اني سأفعل هذا ولو تصدّى لي امير المؤمنين نفسه !
– وكيف يطيب لك ان تقتل الفتاة التي أحببت ؟
– كما يطيب لي ان اقتل نفسي !..

وقرأت الفتاة عزيمته الصادقة في عينيه ، فخفضت صوتها قائلة : إذن فاعلم اني أحببت الفتى الذي اعترف لي بهواه ، وسيذهب العمر ولا يذهب أثر هذا الحب .. ارضيت الآن ؟ فغمر نور الفرح وجهه وتلعثم لسانه فلم يجب ... فمدت اليه يدها وجعلت تقول : قل يا طارق أأنت راض بما سمعت ؟

– بل اخشى ان يقتلني هذا الفرح الذي أحسست به ..

وجعل يتفرس في عينيها الساحرتين والبهجة تملأ نفسه، وتانك العينان ترسلان السهام الى قلبه الخفاق .. ثم ارسلتا الدموع .. فقال :

اي شيء هو هذا البكاء الآن ؟

قالت : بكاء القلب العاشق ، والنفس المضطربة .. لقد ذكرت الآن امراً يضيق هذا الصدر كلما فكرت فيه ..

– وتكتمينني اياه ؟

– لا ، فهو سر ابي الذي ينغّص عليّ الحياة .

قال : سيبوح به لعمي الاحنف بعد ان اعود ؟

قالت : اخشى ان يحول هذا السر بيني وبين من احب !

فابتسم قائلاً : لا اظن ان في العالم قوة تفصل بين عاشقين .

قالت : من يعلم فقد يخلق الزمان ما لا نعلم فيختنق هذا الغرام .

قال : لا يخنقه الا الموت فاذا مات احدنا لحق به الآخر ..

وجعل يمازحها ويشرح لها هواه ، ويصف قومه ، حتى طابت نفسها . وكان الليل قد انقضى نصفه ، فأقبل سنان وعمرة، وسكت العاشقان ، ثم انصرف كل واحد منهم الى فراشه .. ولكن اليتيمة وطارقاً لم يغمض لهما جفن ..

* * *

– ١٧ –

اين هو الفتى العربي الذي ذكرت ؟

– هو في الدهليز ومعه رجاله .

– وهل ذكر لك الامر الذي قدم من اجله ؟

– لا اظن ان الرجل من عامة الجيش .

– ومن هو إذن ؟

– يخيل اليّ انه من الامراء فدلائل الشرف على وجهه .

فنهض سنجان عن مقعده وقال للحاجب الذي يخاطبه: مره بالدخول وادعُ بزرشير .

فخرج الحاجب يقول لطارق : لقد اذن لك مولاي وهو في هذه القاعة .

فمشى الفتى ويده على قبضة سيفه حتى راى سنجان . وكان الحاجب الآخر بزرشير ، قد دخل من باب آخر ، فقال طارق : لقد ذكرت لحاجبك اني رسول الاحنف بن قيس .

وبرزشير ينقل كلامه بالفارسية الى مولاه ، فقال : اين رسالة الأمير ؟

– لم يسلم اليّ رسالة ولكني ابن اخيه وقد عهد اليّ في امر اقضيه له ..

– ما هو هذا الامر ؟

– هو ان تذهب الى مرو الروذ ..

فاضطرب قائلاً : وما هي الغاية من ذهابي اليها ؟

فرأى الفتى اضطرابه فقال : لم يأمرني الاحنف بأن اذكرها لك ..

– وهل تعرفها ؟

– اعرف بعضها ..

– إذن ارجو ان تقص عليّ حكاية هذا البعض ..

– ذلك سر من اسرار الامارة لا ابوح به ..

قال : سنحفظ سرّك فلا نفشه ..

– اذا لم تفعل ذلك انت ، فعله هذا الرجل .

– هذا حاجبي وهو لا يجسر على ذلك .

– ولكني اخاف ان يعرف الاحنف فيطردني من الجيش .

– اعدك بالكتمان واقسم لك .

قال : لي شرط ابوح بالسر اذا وفيت لي به .

قال : هات ..

– يذهب هذا الحاجب معك الى مرو الروذ، فاضمن بذلك سكوته، وله ان يقول ما يشاء بعد ان يراك الأمير !

– قبلت بشرطك وسيذهب .

وقد اراد طارق ان يمهد الاسباب لذهاب بزرشير دون ان يشعر سنجان، بان في الامر ما فيه . فقال : وترحل اليوم ؟

– افعل اذا لم يكن هنالك ما يمنعني من الرحيل .

قال : لقد انتهى الى الاحنف ان يزدجرد يسعّر النار بين نيسابور وطَوس ..

فابتسم الفارسي ابتسامة الدهاء قائلاً : وهل يجسر الملك على الاقامة بين والبين من العرب ؟

– بل يجسر على الاقامة بالحجاز ما دام واثقاً بان رجاله يحجبونه عن العيون .

– ومن نقل الخبر الى الاحنف ؟

– قوم من العرب شعروا بوجود الملك ولكنهم لم يروه !

– اذن يريد الاحنف ان يبعث بي الى نيسابور لأقبض عليه ..

فتظاهر بالتفكير ثم قال : اريد ان اعترف لك بكل شيء وانا خائف .

– وكيف تخاف وقد وعدناك بالكتمان ؟

قال : ان الاحنف نفسه يهمّ بالذهاب الى البلد الذي ذكرت ..

– ليطارد يزدجرد ؟

– أجل ، وقد حلف لقومه انه لا يعود الى مرو الروذ الا اذا سقط يزدجرد في الشرك .

– ويسير وحده ؟

– لا ، فهو سيخرج على راس جيشه كما يخرج الى الحرب !

– ولماذا يدعوني اليه ؟

– ليشاورك في الامر ، ثم ليضم اليك مرو الروذ فتمسي عاملاً على المروين واقليم المروين ، اقليم واسع رحب ، اذا بسط سنجان ظله فوقه ، جمع ذهبه كله ، وكان نصف ملك . وهو انما يجمع المال، ليوقد النار .. فقال وقلبه يرقص من الفرح : وهل سمعت عمك يقول لقومه ما ذكرته لي ؟

– سمعته يقول ذلك لأركان حربه وبينهم ابي ، عبدالله بن قيس ..

وكان بزرشير اللعين مطرقاً ، وعيناه تلمعان .. لقد ايقن في تلك الساعة ، بان ماهويه الذي خرج سراً من مرو الشاهجان ، بلـغ غايته ، وتم له الامر كما اراد . وهذا ما يرغب فيه . انه من رجال ماهويه ، وقد استطاع ، بالدهـــاء والحيلة ، ان يكون من حجاب سنجان ، ومن المقربين اليه . فلمـا قال طارق كلمته الاخيرة ، رفع راسه ، وظهر الفرح الكاذب على جبينه ؛

فقال له مولاه : ماذا ترى انت ؟

– ارى ان تخرج في هذه الساعة الى حيث يدعوك الأمير العربي ..

– وعمي ماهويه ؟

– واي شيء يصنعه ماهويه ؟ انه في منزله وهو يؤثر الموت داخل جدرانه على الخروج منه !!

قال : اخشى ان ارحل فيثب الى مقعد الامارة بعد ان يستميل الجيش ..

قال : من جعلك والياً يا مولاي ؟

– الأمير الاحنف .

– وهل يعجز الاحنف وهو من اعظم قـــواد الفاتحين ، ان يسترد هذه الامارة اذا اغتصبها ماهويه كما تقول ؟

قال : اصبت والويل لماهويه اذا ارتفع له صوت.. ولكن اي رجـل اجعله خليفة لي ريثما اعود ؟

– تجعل صاحب بيت المال فهو من المخلصين لك وللعرب !!

قال : اخرج اذن واعدّ ما نحتاج اليه وقل للرجل اني اريد ان اراه ..

فعرف طارق ان الأمر قد انتهى ، ولم يبق الا ان يتهيأ للرجوع . وقد قام في ذهنه ان هذا الحاجب الذي جعله سنجان ترجماناً له ، لا يطيب له الا ان يخدع مولاه وينحيه عن كرسيه . ومرت ساعة ، تهيأ فيها القوم ، ثم خرجوا على افراسهم يريدون مرو الروذ على طريق الشاطيء . وقلب طـارق يخفق ، وهو يفكر في تلك «الطفلة» الساحرة التي وهبتها له الاقدار ..

* * *

-١٨-

بات القوم ليلةً في منزل شهريار الخراساني ، وقد وعد طارق فتاته ، انه سيبوح بغرامه ، لابيه وعمه ، وينظرون في امر الزواج . وقد احس الاثنان ، ان الموت خير من الفراق . وكان الرحيل عند الصباح ، وسنجان يحلم بعرشه الصغير ..، ويعدّ في ذهنه مدة القضاء على النفوذ العربي ، في خراسان . فلما انتهوا الى مرو الروذ امر الاحنف ، ماهويه الفارسي وابنه ، بان يحتجبا في حجرة تجاور قاعة الجلوس ، واذن لسنجان وحاجبه في الدخول . وفي المجلس ، شهريار ، وعبدالله بن قيس ، وسعيد بن عمرو ، ابن عم عبدالله بن عامر امير البصرة . وهو فتى في العشرين من عمره ، حسن الوجه فصيح اللسان ، وقد كان رفيقاً لطارق بن عبدالله، في الميادين. ودخل سنجان وبزرشير، فرحب الاحنف الداهية بزائره الكبير وهشّ له .

ثم قال وهو يبتسم : لو لم يكن هنالك امر نحب ان نسألك عنه لما خطر لنا ان ندعوك .. صف لنا احوال مرو في هذا الزمان ..

قال : مرو بلاد السلام والأمن يا مولاي ، وليس فيه مظهر واحد من مظاهر الثورة .

– والناس فيه مخلصون للعرب ؟

– اجل وهم يهتفون لهم كلما انتهت اليهم اخبار الفتح !!

– وانت ؟

– اما انا فكما ترى ، عامل مقيم على الطاعة، خاضع لما يأمرني به مولاي..

قال : اذكر لي اسم مولاك !!

قال : الاحنف بن قيس ! ..

– ويزدجرد الملك ؟

– لم اكن قط عاملاً ليزدجرد ، وهو على العرش .

– ولكنك امسيت من عماله بعد ان ترك عرشه !!

وانفرجت شفتاه كأنه يمازحه ..

فذعر الرجل ، ثم راى ابتسامته فذهب خوفه وجعل يقول : لست مجنوناً لأكون من عمال ملكٍ مخلوع !! انك تهزا بي يا مولاي .

– اما انا فأخشى ان تكون انت الهازىء !!

وظهر الغضب في عينيه ثم اختفى .

فقال : لا يجسر العبد على ان يهزأ بسيده ..

– ولكن بلغنا انك تقول ان العرب هم العبيد وانكم انتم السادة ..

– ذلك ما يقوله الكذوب النام يا مولاي .

قال : أتعرف اين هو يزدجرد اليوم ؟

– قيل لي انه بين طوس ونيسابور !

– ومن قال لك ذلك ؟

– ابن اخيك الذي بعثت به اليّ ، وأومأ الى طارق .

فلم يشأ الاحنف ان يسأل طارقاً، بل قال : ان الفتى لا يعلم من امر يزدجرد أكثر مما تعلم ، خبرّنا انت اين هو ؟

– بلغني انه فرّ الى خراسان ولا أعرف اكثر من هذا .

– كان عليك وانت ابن خراسان ، وعاملنا على مرو الاخرى ، ان تحصي على الملك انفاسه ، وتعلم عنه كل شيء .

قال : سمعتهم يقولون ان رجال الملك انفسهم لا يعلمون الى أين يذهب .

– أصبت ، حتى انهم ليظنون ان السحب تحمل يزدجرد وتخفيه ..

ولكن رأينا الآن رأياً هو أن نستعين بالمال ونبذله لرجال فارس ليقبضوا عليه ...

ثم قال : على ان المال القليل لا يكفي ، وانت من أصحاب المال في مرو ، فجد علينا بشيء منه لتكون من أهل الفضل ..

– ابذل مالي كله من اجل هذه الغاية، ولكنه مال عامل حقير لا يغر احداً

قال : أمـا مالك فاحتفظ به فلا حاجة لنا اليه ، واما ذلك الذهب الذي يملأ قصرك فهذا الذي أعنيه ، فتمشى الخوف عندئذٍ مع دمه وتلجلج لسانه . ثم قال : واي ذهب هو يا مولاي ؟

- ذهب يزدجرد الذي يرسله اليك مع اعوانه، لتضرم نار الثورة والعصيان في هذا الاقليم، وتطرد العرب منه !!

قال: انه لكذوب نمام كما قلت، ذلك الذي سعي بي.

- بـــل انت الكذوب الذي غمط النعمة وكفر بالفضل ... تظاهرت بالاخلاص للعرب فوليناك أمر مرو، ونحن لا نعلم انك تلبس للعرب ثوب الحمل وانت ذئب ...

قل اين هو مولاك اليوم أو تموت!

- اقسم برأسك يا مولاي اني لا اعلم.

- هل تأخذ ماله دون ان تسأل عنه؟

- ما أخذت شيئاً من ماله وليس لي يد فيما يفعل ..

- واذا شهد عليك قومك؟

فذكر الرجل عندئذ عمه ماهويه، فقال: في مرو رجلان اثنان يشهدان عليّ هما ماهويه وابنه براز.

- ولماذا يشهدان؟

- لان ماهويه يريد ان تكون الامارة له أو لولده، وقــد عرفت من قبل انه يعدّ عدته ليوغر عليّ صدر المسلمين ..

- ولك، بين أهل قصرك، عدو آخر يطمع في الامارة؟

- لا.

- وتثق بهم جميعاً؟

- نعم!

فوجّه الاحنف نظرةً قصيرة الى بزرشير، فرأى عينان تختلجان، ووجه يكفهر، فقال لغلامه: ادع الفارسيين ..

وما هي غير لحظة، حتى دخل ماهويه وابنه وهما يبتسمان. فلـــا رآهما سنجان، اصفرّ وجهه وارتجفت يداه، ثم أرخى نظره الى الارض كأنه ينتظر قضاء الله. فقال الاحنف لماهويه: ألم تقل لي ان هذا الرجل يخون العرب؟

- بلى يا مولاي!

– وان رسل يزدجرد تجيء الى قصره وهي تحمل المال والاخبار ؟

– بلى يا مولاي .

– وانه يجمع ذلك المال ليستطيع معه ان يشهر السيف على المسلمين ، في حرب تشمل المروين وتمتد الى الصحراء ؟

– بلى يا مولاي !

– وانت واثق بما قلت ؟

– نعم ، اذ لا يخطر لي ان انقل اليك الاكاذيب ..

– ولكنه يقول ان هذه الحكاية وشاية طامع بالامارة وان هذا الطامع هو أنت ..

قال : أرضى بأن يضرب عنقي اذا كنت واشياً .

– ونحن نرضى بان يكون هنالك رجل آخر يشهد لك .

قال : ان الرجل في هذا المجلس وهو من حجاب الخائن .

وأومأ الى بزرشير ، فكاد سنجان يسقط على الارض .

أما الاحنف فقال : قم أيها الحاجب وخبرنا بما تعلم .

قال : سل يا مولاي !

– أيراسل مولاك سنجان ، يزدجرد الملك .

– نعم !

– ويبعث اليه يزدجرد مالاً ؟

– نعم حتى انه لو أراد ان يشتري بهذا المال جميع أهل خراسان لاستطاع..

– وأين يضع ماله ؟

– في منزله والجنود يحرسون المنزل بالحراب .

– وتعرف الرجال الذين يرسلهم الملك ؟

– أعرف الوجوه وأجهل الأسماء .

– لقد قيل لنا أنهم من رجال البلاط .

– هذا ما أراه فيزدجرد لا يثق الا بمن حوله .

– وما هي غاية القوم ؟

قال : ألست تعلم غايتهم يا مولاي ؟

– لا يكفي أن نعلم هذه الغاية بل يجب أن نسمعها من أفواه الشهود الذين انتهت اليهم اخبار المؤامرة ورأوا بعض المتآمرين .

قال : غايتهم أن يخرجوا عن الطاعة .

– بقوة السيف ؟

– نعم وقد سمعت عامل مرو يقول لرجال يزدجرد: قولوا للملك اني سأجمع تحت لوائه ثلاثين الفاً يطردون من يطردون من الجيش العربي ويقذفون بالباقي الى الماء !

– قل انهم عولوا على الحرب .

– اجل وانها لحرب يشترك فيها الشيوخ والفتيان .

– وجعلوا لها موعداً ؟

– أما الموعد فسنجان وحده ينظر فيه ..

– وبأي بلد يقيم يزدجرد ؟

– لم يذكر لي أحد اسم البلد الذي تسألني عنه .

– ومولاك لا يعلم ؟

– اذا قلت انه يعلم او لا يعلم فقد كذبت ..

فالتفت الى سنجان قائلاً لقد ثبت لنا الآن انك من الخونة ، ولم يبق الا ان نسأل حاجبك سؤالاً آخر ، قل يا بزرشير ، أي شيء دعاك الى ان تخون مولاك وتفضح سره ؟

– اخلاصي للعرب .

– لو كنت مخلصاً لما صبرت الى هذا اليوم .

– ولكني خبرت القائد ماهويه منذ بضعة عشر يوماً ، على ان ينقل اليك هو، ما أقصه عليك الآن ..

– اذن فأنت توثر هذا القائد على سنجان ، وهذا الإيثار هو الذي املى عليك ان تخون ملكك ومولاك ..

– اعترف لك ايها الأمير بأني احب ماهويه ، ولكني احب العرب ، في

الوقت نفسه ، اكثر مما احب اهل فارس .

– وفي أي شيء تستحق العرب هذا الحب ؟

– في هذا العدل الذي تراه العيون وتلمسه الأيدي ..

– ولكن قومك لا يرون ما تراه ...

– إن قومي رجالا يغرهم الذهب ويطمعون بالسلطان ولست انا من هؤلاء.

فجعل يقول: المال والسلطان علة هذه الحروب التي لا تخمد نارها... اجلس وقل انت يا سنجان ما تريد أن تقوله .

قال : لقد كذب الحاجب يا مولاي وان له غرضاً يريد ان يتم له .

– اي انه يحاول ان ينحّيك عن الولاية أليس كذلك ؟

– بلى !

– ولم يكن صادقاً فيما نقله عنك ؟

– لو كان صادقاً لذكر لك موعد خروج الجيش الى الحرب ..

فقهقه ضاحكاً ثم قال : ليس للحاجب الذي يستخرج الاسرار من وراء الستار ، ان يعلم كل ما يقال ..

– وهل يصدّق امير المروين حكايةً يرويها احد الحجاب ؟

– رب حاجبٍ اصدق من ملك .. ومع ذلك فنحن لا نصدر حكماً الا بعد ان ننظر فيه ... أجمعت خراج ولايتك هذا العام ؟

– جمعت بعضه .

– وكم يبلغ ما جمعت ؟

– اربعة آلاف دينار .

– وبقي اربعة أُخرى ؟

– نعم !

– اذن نبعث الى مرو من يحملها الينا . وينظر في أمر الذهب الآخر الذي تحرسه الجنود ..

فارتجف صوته وهو يقول : اذا كان هنالك مال يا مولاي فهو مالي وقد ورثته من ابائي ...!

فقال ما هويه : لم يكن لآبائه من المال ما يكفيه ..
انه مال الثورة ... مال الحرب .. مال الخيانة التي يدفعه اليها يزدجرد .
قال : اسمعت شهادة عمك ؟
- ان عمي هو الخائن .
فعمد الامير الى لهجة أخرى ، فقال : يطيب لنا ان نصدق ما تقوله انت، وان نؤمن بان هؤلاء الرجال الثلاثة خونة يحاولون ان يعزلوك ، ولكن ، أليس لنا ، ونحن قد وليناك ، ان نسألك عن مصدر الذهب الذي تصونه بقوة الحراب ؟
- لقد ذكرت لك مصدره يا مولاي !
قال : وتذكر لنا مقداره ؟
- انه لا يجاوز مجموع الخراج في عام واحد .
- اي انه ثمانية آلاف دينار .
- اجل !
- وأي شيء يمنعك من ان تدفعه الينا وهو مال المسلمين ..
- أعدك باني ارسل اليك الخراج كاملاً عندما اعود .
- ونحن نعدك باننا سنحصي مالك ثم ننظر في الأمر ..
قال : انه ظلم لا تفعل العرب مثله ..
- وانها لخيانة لا تصبر العرب على مثلها ،.. قم يا عبدالله .. قم يا سعيد بن عمرو ، واذهبا مع الف رجل الى مرو ، واحملا مال هذا الخائن كله لا تبقيا منه درهماً واذا تصدى لكما اهل مرو فأعملا فيهم السيف ...
فجثا الخائن على ركبتيه قائلاً : استحلفك برأس الخليفة ايها الامير الا تفعل ...
قال : لا أرجع عما قلت الا اذا اعترفت ..
- بماذا يا مولاي ؟
- بالمؤامرة التي تعدّها في ظلام الليل ..
- اعترف لك بكل شيء على ان لا تجعلني من الفقراء !!

قال : أتتآمر على المسلمين أم ماذا ؟ — نعم يا مولاي !
– وتراسل الملك ؟ — نعم !
– والمـــال الذي ذكره بزرشير وماهويه هو ماله ؟
– نعم !
ومتى عوّلت مرو على حمل السيف ؟
– لا تحمله إلا بعد ان يتفرق الجيش العربي في الاقطار ...
قال : بارك الله في هذا العامل الصريح الذي لا يخفي شيئاً ، ومولاك الملك الذي يقذف بامته الى النار ... اين هو ؟
– صدقني يا مولاي اني لا اعرف هذا .
– وهل بقي ما تقوله ؟
– بقي ان تغض الطرف عن خيانتي ، وتعفو عن ذنبي .
فقال الأحنف لرجاله لقد رأيتم وسمعتم فما الرأي ؟
– فأجابه اخوه عبدالله : الرأي ان تضرب عنقه .
وقال سعيد بن عمرو : وتعلق جثته على باب مرو فيراها قومه .
– وانت يا طارق ؟
– لي رأي اذكره للأمير في غير هذا المكان .
قال : ليخرج رجال فارس من هذه القاعة .
فخرجوا وبقي شهريار، فقال طارق : امـا الرأي فهو ان تأخذ ماله الذي هو مال الثورة وتضمّه الى مال المسلمين .
– وبعد ذلك ؟
– تعزله عن الولاية وتسلمها الى عمه..
– وبماذا نجازيه ..
– لا تمدد اليه يدك فانك اذا فعلت اشتعلت النار ؛ فابتسم قـــائلاً : ان رأيك يا بني خير الاراء ، أدخلوا القوم !
فدخلوا فقال :
لقد عزلناك يا سنجان وعهدنا في امر مرو الى عمك ماهويه .

قال : ولّ من شئت يا مولاي إلا هذا !

قال : يكفي اننا عفونا عنك وانت تستحق الموت فاحذر ان تقول كلمة.. وأما المال الذي جمعته فسيبعث الينا به عاملنا الجديد ويبقي له شيئاً منه يعالج به امره ؛

فتلألأ الدمع في عيني الرجل ، ثم جرى على خديه ، فقال له : ان الدموع سلاح الخونة الجبناء ... اعدّ له يا عبد الله منزلاً يقيم به ..

قال : بمرو الروذ يا مولاي ؟

– اجل فنحن نريد ان نراك اليوم ...

قال : تسلبني مالي ، وتعزلني عن الولاية ثم تبعدني عن اهل بيتي وتحجبهم عن عيني ؟

– سنأمر أهل بيتك بان يقيموا حيث تقيم أنت .

– ولماذا لا تأمرني بالرجوع الى مرو الشاهجان ؟

– لاننا نخاف ان تمعن في الخيانة فتكرهنا على قتلك !

– ولكني لا استطيع ان أفعل شيئاً وانا فقير لا مال لي .

– سيعطيك يزدجرد من المال ما تشتري به رجال خراسان .

قال : اعدك باني سأعيش في منزلي كما يعيش زهاد الفرس !!

– أما نحن فلا نؤمن بما تقوله وليس لنا ان نحسن الى من لا يستحق الاحسان.

قال : اقسم لك اني لا افارق ضيعة لي على الشاطىء ..

فنهض طارق فهامس عمه ثم عاد الى مقعده ؛ فقال الاحنف : لقد سألنا ابن عبد الله ان نصغي الى رجائك .

قال اتأذن لي في الذهاب ؟

قال : تقيم بيننا نصف العام ، وتقيم بمرو الاخرى النصف الاخر .

فحاول ان يستغيث بطارق ، فاسكته الامير قائلاً : لم يبق لك الآن ما تسألنا اياه ، قم فاخرج .. فتردد .. فقال : خير لك ان تخرج وانت حي !! فانصرف دون ان يقول كلمة ، وكان يقول في نفسه : الويل لك يا ابن قيس والويل للعرب .

والتفت الاحنف عندئذ الى ماهويه وقـــال له : لقد رأيت الان وسمعت فاحذر !

قال : سأكون اخلص العمال يا مولاي .

قال : ذلك ما كان يقوله ابن اخيك عندما وليّناه ..

– اما انا فاعاهد الامير على الوفاءوارضي بانيضرب عنقياذا رأى ما يكره

– وسنجان ؟

– سأحصي عليه كل عمل يعمله وكل كلمة يقولها .

– بل نريد ان تفعل اكثر من ذلك .

– ماذا يا مولاي ؟

– سيخبرّ ابن اخيك الملك بكل ما جرى له .

– نعم !

– فيعمد الملك الى الهدوء ريثما تنسىالعرب خيانة سنجان، ثم يعود بعد ذلك الى ارسال الرسل يحملون المال .

قال : هذا ما اراه .

– اذن عليك ان تحيط ابن اخيك بالرجال ، ليقبضوا على هؤلاء الرسل عندما يدخلون مرو ، ويبعثوا بهم الينا .

– اعدك بهذا يا مولاي .

– واحذر ان تقول كلمة لاولئك الخونـة انصار ابن اخيك . اننا نريد ان يسقطوا في الشرك الذي نعده لهم .

– ولكنك نسيت يا مولاي ان سنجان حي ، وانه سيقص عليهم كل شيء .

– افعل انت ما نأمرك به وليفعل الرجل مـا يطيب له . وقال لشهريار : لقد أمسى صاحبك عاملاً للمسلمين على مرو وهذا ما اردته ، فهل بقيت لك حاجة اخرى نقضيها لك ؟

– بقي ان ابذل حياتي في سبيل المسلمين .

فقال لطارق : واردت انت ان نأذن للخائن في الرجوع الى مرو ففعلنا .

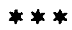
قال : طلبت اليك ذلك ليسهل على العرب امر القبض على رسل يزدجرد .

قال : احسنت يا بني ، وحسب عشيرتك انك من رجال الرأي ورجـــال
سيف وهمّ بالانصراف ، فقال شهريار ؟ متى تأذن لنا في الرجوع ايها الامير ؟
– لينصرف ماهويه وولده في هــــذه الساعة ، اما انت فتستطيع ان تبقى
ندنا العمر كله : اكتب يا ابن عمرو :

من الاحنف بن قيس عامل المروين ، الى مرازبة الفرس في مرو الشاهجان :
لقد رأينا ان ننحي سنجان عن الولاية ونجعل ماهوية عـاملاً لنا ، فاسمعوا
اطيعوا ، فكتب سعيد الكتاب وكان طـارق يقول لعمه : مر شهريار بالبقاء
لي ما اقوله له .
فقال الاحنف لشهريار : ابق انت فلنا مـــا نقوله لك وانظر يا عبد الله في
مر سنجان .

وخرج قائلاً : ستقول لنا يا طارق ، في اول الليل ما تريد ان تقوله .
وتناول ماهوية كتاب الولاية ، وودع القوم وهو يحمل في صدره الاخلاص
الوفاء للعرب ، ويحمل بيديه العز والسلطان .

وابنه وبزرشير وراءه وقد أمسى هذا الاخير رئيس حجابه ، واميناً له .
وكان شهريار يفكر في الامر الذي سيحدثه به طارق بن عبد الله ، وكأنه
ان يعلم ما هو .



– ١٩ –

عندما غزا عبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ارض فارس ، دبّ الذعر
، قلب يزدجرد ، فخرج لاجئاً الى جور ، وقد قرأت ، ان الاحنف ابن قيس،
ن ناحية ، ومجاشع ابن مسعود ، من ناحية اخرى، خرجا في اثره ولكنهما ضيعا
لك الاثر، بين جور وكرمان . على ان يزدجرد لم يركب السحب في فراره ،
، كان في كرمان ، في منزل لأحد انصاره فيه الاروقة والسراديب، والعرب
ظن انه جعل بطن الارض ملجأ له !

وكان رجاله اكثر دهاء من رجال العرب ، يلبسونه إذ فرّ ، اللباس العربي، ويجعلون في حزامه ، من الناحيتين ، جراب الزاد والسيف والقــوس وجعبة السهام ويمشون وراءه كأنه من امراء الجيش .

ثم يعدّون له منزلا يقيم بــه مع كبير الامنــاء ورئيس الخصيان ، ويلجأ الاخرون الى منزل آخر قريب منه ، يجــاور المنزلين بيت واسع فيه نساؤه وجواريه وبنوه . اختاروا له كرمان بيتاً تحوطه الاسوار ، ويحسبه النــاظر حصناً من حصون فارس وجعلوا النساء في جناح منه يحجبه السور الغربي عــن العيون . وكانت اوامر الملك تخرج من ذلك الحصن الى جميع الاقطار ، ورسله تحمل المال الى ابناء قومه المخلصين .

ولكن المال الذي يخرج لا يعود ، وبدون هــذا المال ، لا يستطيع الملك المخلوع ان يشتري الرجال .

هذا ماله يذهب من يده فتذهب معه روحه .. ! لقد سعّر النار في خراسان فاخمدتها العرب ، وسعرها في الاقاليم الاخرى فانتهى امرها بالفشل ، ثم بلغه ان المال الذي بعث به الى مرو الشاهجان استولى عليه الاحنف بن قيس ، بعد ان فضح سرّه .

وهذا معناه ان ماله كله سيضيع كما ضــاع العرش ، ولا يبقى الا ان يقتل نفسه ، او يخضع للفاتحين .

وأي امير من امراء فارس ، يجود بماله في مثل ذلك الزمن على الملك المخلوع وهو يرى الفتح يعقبه الفتح والعرب تضع ايديها على كل ارض ؟

وأي امير يبذل حياته وحياة اهله ليسلم ملكه ؟

ان السيف يحصد رقاب اصحاب الجاه في فارس، والذل يغمر الزعماءوالقواد فخير للقوي ان يصون قوته ولصاحب المــال ان يحتفظ بماله لليوم العصيب . لقد كان يزدجرد يعلم ذلك ، وكانت الكآبة قد استولت عليه وهو في كرمان حتى أمست حياته في منزله حياة شقاء وذل .

يعلله رجاله بأمل النصر والرجوع الى العرش ، ويدعوه رئيس خصيانه الى

ل ذهبه لكبار الرجال ، فيعمد الى البذل ويستسلم الى الامل ، ولكنه لم ير
الحالين غير البؤس والهوان . وزادت كآبته عندما انتهى اليه ان أمله برجال
و الشاهجان قد ضاع وان ماله أمسى ملكاً لعامل المروين .

واقبلت الرسل تحمل اليه اخبار الفشل في جميع النواحي ، فدعا اليه رجاله
قال لهم : ماذا بقي لملك الفرس وقد خسر بلاده ؟

– فأطرقوا وهم لا يجسرون على الكلام .

فقال : أليس فيكم من يقول كلمة ؟

وكان رئيس الخصيان أجرأ رجاله فقال : لم يخسر مولاي الملك كل شيء .

– وماذا بقي له ؟

– القلوب الخافقة على الاخلاص له !!

– وأين اصحابها ؟

– نحن يا مولاي !

فضحك على رغم كآبته واجابه قائلاً : ما سمعت من قبل ان خفقان القلوب
مترجع عرشاً ويعيد الملك الى صاحبه !

قال : لو لم يكن هنالك اخلاص لخسر الملك حياته !

فغضب قائلاً : اتمنّ علينا ايها الرجل ؟

– لا يا مولاي ولكني اصف للملك وفاء رجاله .. !

– انه وفاء تردده الشفاه ولا رأي فيه . لقد خرجت خراسان من يد الملك
اخرج ماله ..

قال : انها لهجة يائس يا مولاي .

– أجل هذا هو اليأس .. وقد لمسناه باليدين .. أتعللنا بالامل ايهـــا الابله
قد عزل سنجان عن الولاية وخلفه ماهويه وهو من انصار العرب ؟

– ومن قال لك يا مولاي انه من انصار هؤلاء ؟

– سنجان نفسه ، لقد كان يصف لنا خيانته في كل كتاب يكتبه الينـــا
بدعوه عدو الفرس !

وكان رجاله اكثر دهاء من رجال العرب ، يلبسونه إذ فرّ ، اللباس العربي، ويجعلون في حزامه ، من الناحيتين ، جراب الزاد والسيف والقــوس وجعبة السهام ويمشون وراءه كأنه من امراء الجيش .

ثم يعدُّون له منزلا يقيم بـه مع كبير الامنـــاء ورئيس الخصيان ، ويلجأ الاخرون الى منزل آخر قريب منه ، يجـــاور المنزلين بيت واسع فيه نساؤه وجواريه وبنوه . اختاروا له كرمان بيتاً تحوطه الاسوار ، ويحسبه النـــاظر حصناً من حصون فارس وجعلوا النساء في جناح منه يحجبه السور الغربي عــن العيون . وكانت اوامر الملك تخرج من ذلك الحصن الى جميع الاقطار ، ورسله تحمل المال الى ابناء قومه المخلصين .

ولكن المال الذي يخرج لا يعود ، وبدون هـــذا المال ، لا يستطيع الملك المخلوع ان يشتري الرجال .

هذا ماله يذهب من يده فتذهب معه روحه .. ! لقد سعّر النار في خراسان فاخمدتها العرب ، وسعرها في الاقاليم الاخرى فانتهى امرها بالفشل ، ثم بلغه ان المال الذي بعث به الى مرو الشاهجان استولى عليه الاحنف بن قيس ، بعد ان فضح سرّه .

وهذا معناه ان ماله كله سيضيع كما ضـــاع العرش ، ولا يبقى الا ان يقتل نفسه ، او يخضع للفاتحين .

وأي امير من امراء فارس ، يجود بماله في مثل ذلك الزمن على الملك المخلوع وهو يرى الفتح يعقبه الفتح والعرب تضع ايديها على كل ارض ؟
وأي امير يبذل حياته وحياة اهله ليسلم ملكه ؟

ان السيف يحصد رقاب اصحاب الجاه في فارس، والذل يغمر الزعماءوالقواد فخير للقوي ان يصون قوته ولصاحب المـــال ان يحتفظ بماله لليوم العصيب . لقد كان يزدجرد يعلم ذلك ، وكانت الكآبة قد استولت عليه وهو في كرمان حتى أمست حياته في منزله حياة شقاء وذل .

يعلله رجاله بأمل النصر والرجوع الى العرش ، ويدعوه رئيس خصيانه الى

ذل ذهبه لكبار الرجال ، فيعمد الى البذل ويستسلم الى الامل ، ولكنه لم ير
ن الحالين غير البؤس والهوان . وزادت كآبته عندما انتهى اليه ان أمله برجال
رو الشاهجان قد ضاع وان ماله أمسى ملكاً لعامل المروين .

واقبلت الرسل تحمل اليه اخبار الفشل في جميع النواحي ، فدعا اليه رجاله
قال لهم : ماذا بقي للملك الفرس وقد خسر بلاده ؟

– فأطرقوا وهم لا يجسرون على الكلام .

فقال : أليس فيكم من يقول كلمة ؟

وكان رئيس الخصيان أجرأ رجاله فقال : لم يخسر مولاي الملك كل شيء .

– وماذا بقي له ؟

– القلوب الخافقة على الاخلاص له !!

– وأين اصحابها ؟

– نحن يا مولاي !

فضحك على رغم كآبته واجابه قائلاً : ما سمعت من قبل ان خفقان القلوب
يسترجع عرشاً ويعيد الملك الى صاحبه !

قال : لو لم يكن هنالك اخلاص لخسر الملك حياته !

فغضب قائلاً : اتمنّ علينا ايها الرجل ؟

– لا يا مولاي ولكني اصف للملك وفاء رجاله .. !

– انه وفاء تردده الشفاه ولا رأي فيه . لقد خرجت خراسان من يد الملك
كما خرج ماله ..

قال : انها لهجة يائس يا مولاي .

– أجل هذا هو اليأس .. وقد لمسناه باليدين .. أتعللنا بالامل ايهـــا الابله
وقد عزل سنجان عن الولاية وخلفه ماهويه وهو من انصار العرب ؟

– ومن قال لك يا مولاي انه من انصار هؤلاء ؟

– سنجان نفسه ، لقد كان يصف لنا خيانته في كل كتاب يكتبه الينـــا
ويدعوه عدو الفرس !

قال : ان ماهويه من انصار الملك .

قال : كذبت فانصار الملك لا يبوحون للعرب باسراره .

– ذلك دهاء منه يا مولاي . لقد باح للاحنف بما يعلم ليثق بـــه ويوليه امر مرو بعد عزل ابن اخيه .

– وكيف يطيب له ان يعزل الرجل وهو من رجال مولاه ؟

– لا تنس يا مولاي انه يطمع في الولاية وانه يبغض سنجان بغضاً لا تشعر الصدور بمثله وان يكن ابن اخيه .

– ومن خبرك بذلك ؟

– واحد من اولئك الرجال الذين نقلوا الينا الاخبار .

– وتثق انت بماهويه ؟

– اجل يا مولاي واضمن وفاءه .

– ولكن ماذا يستطيع ان يصنع وليس في يده شيء من المال ؟

– يبعث اليه الملك ببعض ماله ..

فظهر الغضب عندئذ بصورته الرائعة على وجه يزدجرد وجعل يقول :

أتريد ايها اللعين ان يبذل الملك ما في يده يسأل اشراف قومه ان يجودوا عليه بما يستعين به على الزمان ؟ انك تريد اذن ان يجثو ملكك عـــلى ركبتيه امام امثالك من الخونة ليشبعوا جوعه .. أليس كذلك ايها الخائن ؟

وكانت عيناه في تلك الساعة تشبهان عيني النمر ، في ثورة جنونه .

فقال الخصيّ : أتدعوني خائناً يا مولاي ؟

- أجل ، ان الفارسي الذي يحاول ان يهب مـــال الملك لأهل الاقاليم هو الخائن !! وكل رجل لا يثبت خضوعه لملكه الا بهذا المال خائن مثله ..

– أتتهمني يا مولاي وانا احاول ان استرجع العرش ؟

– لو كانت هذه غايتك ، لتركت الملك الذي تتمرّغ في نعمته ، وخرجت الى بلاد فارس تدعو أهلها الى حمل السيف لاسترجاع العرش الذي ذكرت ..

– وكيف افعل ذلك وانت لم تأمرني به ؟

– رأيناك تؤثر سعة العيش في قصر ملكك على الطواف في الاقاليم ..

فدمعت عيناه قائلاً : لم يخطر لي يا مولاي ان يزدجرد حفيد الاكاسرة يكافىء بالتهم ، العبيد المخلصين له !

– ولم يخطر لحفيد الاكاسرة ، ان العرب تستطيع الاستيلاء على بلاده ، وعبيده المخلصون له احياء !!

قال : لقد أبلى عبيدك في الدفاع عن الملك ..

– بل كانوا جبناء في هذا الدفاع وهم الذين ضيّعوا ملك كسرى ، إنظر الى الاقاليم ، انها جميعها في ايدي الامراء من الفرس ، ولكن هؤلاء الأمراء عمال للفاتح العربي وهذا معناه ان الاخلاص لا وجود له ..

– لقد اكرههم السيف على ما تراه .

– والسيف لا يكره الا الجبان .. انهم لو كانوا كما تقول لآثروا الموت على الاستسلام الذي هو العار ..

وخرج في تلك الساعة عن حدّه فقال : خير للملك ان يعيش في مغاور الجبال بين طوائف الذئاب ، من ان يرى كل يوم وجوه الرجال الأنذال الذين باعوه بخضوعهم للعرب .. وأخذوا ماله ليهزأوا به ..!

وتنهّد ثم قال : كلكم خونة .. وانت الخائن الاكبر ايها العبد ، فاخرج من هذا المنزل واحذر ان تعود اليه .

– انا يا مولاي ؟

– نعم انت فليس من الرأي ان يبقيك الملك بين رجاله ؟.

قال : اذكر وفائي ايها الملك !.

– اخرج فالرجل الذي يسلب الملك ماله ليس له وفاء .

قال : اخشى ان تندم بعد حين على ما فعلت .

قال : ويلك أتستخف بي وانا يزدجرد .. ايها الغلمان ، اخرجوا هذا اللعين من هذه القاعة واطردوه من المنزل الى الابد ..

فأقبل الغلمان يحملون الشيخ المخلص الى الخارج وهو يستغيث قائلاً : اعطني ايها الملك ما استعين به على جورك .

والملك يقول : اطردوه فهو يستحق الموت وقد عفونا عنه !؟

ولم تكن غير لحظة حتى امسى رئيس الخصيان خـارج السور ، وهو يحمل شقاءه ولعنة مولاه المجنون !

ونظر يزدجرد بعد خروجه الى رجاله فقال : ألم يكن هذا اللعين خائنـــاً يستحق الموت ؟

فقالوا جميعهم : نعم ، خائن ويستحق الموت !!!

– وقد رأيتم اننا عفونا عنه على ان لا نغفر لأحدٍ ذنبه بعد هذا اليوم .

– نحن عبيد الملك !!

ثم قال احدهم : لي كلمة اقولها إذا اراد مولاي .

– ما هي ؟

– هي ان هذا الخائن سيدلّ العرب على المنزل الذي تقيم به !

– وهل يجسر على ذلك ؟

– نعم فقد طردته من الخدمة ولم يبق هنالك ما يخافه .

قال : اخرج اذاً واختر لنا منزلاً آخر نلجأ اليه في هذا الليل .

فانصرف الرجل ، ثم عاد بعد ساعة وقد وجد ما اراده يزدجرد .

ولم تلبث الاسرة المالكة المنكودة الحظ، حتى لجأت الى منزلها الجديد الذي يشبه منازل الصعاليك من أهل فارس. وكان الملك يتمتم قائلاً: لا نعلم أي خطر اوحى الينا بما فعلنا .. ان رئيس الخصيان من المخلصين وقد ظلمناه ..! ورجال البلاط يهزأون به ويقولون في سرّهم : لقد ضيّعت الحادثات عقل الملك الذي جلس على اعظم عرش .

* * *

– ٢٠ –

ألم تقل يا مولاي انك ستزفّ إليّ الفتاة التي اختار ؟ قالها طارق بن عبدالله

لعمه الاحنف، في قاعة الجلوس، وأبوه في تلك القاعة، وليس بينهم رجل آخر .

فقال الاحنف : بلى ، وهذا ابوك وقد كان يقول لي : اختر لطارق فتاة من قومه فلم أشأ إلا أن تختارها أنت .

قال : لقد رأيت اليوم هذه الفتاة .. واني اسألك واسأل أبي أن تأذنا لي في الزواج .

– وهل تكون هذه الفتاة من قومنا ؟

– لا يا مولاي فأبوها فارسي ولكنه مسلم .

– وتقيم بمرو الروذ ؟

– بل تقيم بين المروين على شاطيء المرغاب .

– لقد عرفت من هي .. انها ابنة شهريار وقد سألتنا ان نأمر الرجل بالبقاء من اجل هذه الغاية .. أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي .

فالتفت الى عبدالله كأنه يقول له : تكلم فقد جاء دورك الآن .

فقال عبدالله : اتعني الفتاة التي ارضعتها زوجة ابيك ؟

– نعم !

فقطب حاجبيه قائلا : ألم تجد بين حسان قومك فتاةً تجعلها في بيتك ؟

– ليس في حسان قومي جمال يشبه الجمال الذي رأيت ..

– وبين حسان العرب ؟

– ولا يخطر لي ان بين حسان العرب فتاة مثل اليتيمة !

– إذن هي أحسن من في الجزيرة والعراق .

– ومن في فارس من النساء !!

– ولكن لا يليق بابن عبدالله بن قيس أن يتزوج فارسية ..

– حسبي يا مولاي اني أتزوج مسلمة ..

– غير انك نسيت العار الذي يرافق هذا الزواج .

– وأين هو هذا العار ؟

– ألا تعلم ان العشيرة التي تنتمي اليها هي من ابعد العشائر صوتاً وأشرفها نسباً ؟
– بلى !

– وكيف نسيت من أنت ؟! لقد كان جدك لأمك سيد بني أسد ، وكان جدك لابيك سيد قومه ، وانت ترى انه لم يدخل هذا البيت غير النساء اللواتي تحترم العرب نسبهنّ افتريد يا بني أن تذل قومك وتجعل هذه الفتاة التي لا نسب لها زوجة لك ؟

قال : لقد كان أبوها قائداً من قواد الفرس .

– بل كان في الحرب غلاماً لأحد القواد .

– لو كان كما وصفت لما جعله يزدجرد في بلاطه .

– لقد كان ذلك البلاط يضم الرجال من كل بلد وكل جنس .

– ولكن ملوك فارس لا تجعل في قصورها غير الاشراف من الناس .

فضحك قائلاً : وهل قام في ذهنك ان شهريار كان وزيراً ليزدجرد ؟

– لم يكن من الوزراء بل كان من المقربين .

– قل إنه كان من غلمان البلاط وعبيده ولا نسب لهؤلاء ..

– وأي ذنب للفتاة التي لم يكن أبوها من النبلاء ؟

– ليس لها ذنب ولكن الذنب ذنب الفتى النبيل الذي يتزوجها دون أن يبالي بعادات قومه ..!

فارتجفت شفتا الفتى وجعل يقول : يظهر أن عمي كان يهزأ بي عندما طلب اليّ أن اختار زوجتي ..

فقال الأحنف : طلبت اليك ان تختار هذه الزوجة من بنات العشيرة ولم يخطر لي انك ستعود من مرو حاملاً اليّ هذا الاختيار الغريب .

– وماذا اصنع الآن ؟

– تنسى هذه الفارسية فنختار لك سواها .

– لقد بحت لها بغرامي .

– اذن كنت جريئاً في غرامك كما انت جريء في ساحة الحرب .

– نعم ، وقد وعدتها بان اسألك واسأل أبي ان تأذنا لي في الزواج .
– ومن علم هذه الفتاة ان تتحدث بالغرام وهي في الثالثة عشرة من العمر ؟
– لقد كنت انا البادىء وكانت هي تتردد في الجواب .
– ثم رأت اخيراً ان تعترف لك بالهوى قبل ان تسأل أباها رأيها فيه .
– كانت تقول ان لأبيها سراً وهي تخشى ان يحول هذا السر بينها وبين من تحب ..

قال : لقد ذكرت الآن سره فقد حدثني هو بأمره يوم اقبـــل مع ماهويه ولكنه لم يبح به .

واطرق ساعة ثم قال : ليس لنا ان ندخل الى عشيرتنا فتاة تكتنف اباهـا الاسرار .

– انه هنا يا مولاي فاسأله عن سره .
– سنفعل ذلك الأن على ان تنسى انت ما وعدت .
– لست قادراً على النسيان .. ووالله لو كانت لأمير المؤمنين فتاة يحثو عند قدميها القمر والشمس وأراد امير المؤمنين نفسه ان يزفهـا إليّ ويجعلني خليفته لأبيت !.

قال : اراك تهم بالخروج عن الطاعة يا بني !
– لم افكر في هذا قط ولكن الهوى الذي يتأجج في هذا الصدر يملي عليّ ما سمعت !.
– واذا رأينا ان هذه الفتاة ليست اهلاً لك ؟
– لقد رآها هذا القلب اهلاً له وانتهى الأمر !
– اي انك ستجعلها زوجة لك على رغم قومك !
– احاول ان يرضى قومي بما اسألهم إياه ..
– وان لم يفعلوا ؟
– لا تقل هذا يا مولاي فانا لا اطيق ان اسمعه .
– بل اقوله ففيه شرف العشيرة .

– ولكنه حكم بالموت على طارق بن عبدالله ..

قال : اليس من العار يا ابن عبدالله ان تكون من الجبناء ؟!

– ما سمعت من قبل ان في الحب شيئاً من العار .

قال : رايناك تؤثر الموت على هجر من احببت ..

– ذلك ما يفعله العشاق الأوفياء .

فنظر الى عبدالله وجعل يخاطبه بعينيه ثم قال : اتأذن لنا ايها العاشق الوافي ان نسأل شهريار عما نشاء .

قال : إني اعرف من انا يا عم فلا تهزأ بي .. ادعُ شهريار واسأله عما يخطر لك ولا تنس ان تقرأ سره .

– سندعوه الساعة ولكن ليس لك ان تقول كلمة .

قال: اخشى انتصف له غرامي ثم تستخف بهذا الغرام على مرأى ومسمع منه.

- لقد نسيت يا بني اني الاحنف بن قيس .

– بل اخشى ان تنسى انت اني احببت اليتيمة حباً يملأ نفسي ، وان كل كلمة تتناول هذا الحب بالاستخفاف ، تخرجني عن الصبر !!

– اعدك باني لا اقول لشهريار الا ما يمليه عليّ شرف العشيرة .

وانا اعدك باني اسكت ، حتى ارى ان السكوت يسيء الى من احببت ..

قال : ادعُ الرجل ..

فنهض والدموع تتلألأ في عينيه وهو يحاول إخفاءها بمظاهر جلده .

فقال الأحنف لأخيه : لقد برّح به هواه وأنا أرى ان نعالج الأمر بالدهاء ..

– وماذا يفعل الدهاء مع فتى مثل طارق .. ان حبه سيزداد مع الأيام وانا أخاف ان يقتله ..

– وتزوجه من غير قومه ؟

– اذا رأيت انه لا يرضى الا بذلك فعلت .

قال: سننظر الان في أمر شهريار ثم نرى بعد ذلك ما الذي يجب ان نصنعه ،

ثم قال : سمعتك تثني على الرجل وقد ذكرت لي انه من المخلصين للعرب وانت تثق بصدقه .

قال : ذكرت لك كل ذلك ، ولكني لم افكر قط في ان اجعل ابنته ، وهي فارسية ، زوجة لولدي . امـا الآن فقد فكرت في هذا ، وقد رأيت بعينيك وسمعت باذنيك .

قال : يحيرني سر الرجل ، وقد أكون مخطئـاً في وثوقي به ، بل قد يكون هنالك ما نكره .

– اتظن ان له صلة بيزدجرد ؟

لقد خيّل اليّ ، انه يبغض الملك كما يبغض المسلم النار ، ولكن من يعلم فقد تكون مظاهر بغضه ، مظاهر كاذبة !

– وهل يستطيع ان يحتفظ بمظهره الكاذب أربعة عشر عاماً ؟ انه لو كان من رجال يزدجرد لفضح نفسه في خلال هذا الزمن الذي مرّ على تركه اياه ، ثم خفض صوته قائلاً : لقد وصفت لطارق تلك الطفلة الساحرة ، فأحبها قبل ان يرى لها وجهاً ثم رآها فأثـّر فيه السحر .

واقبل عندئذ طارق وشهريار ، فدعاهما الاحنف الى الجلوس وهو يقول : شهريار ! ألم ترَ يزدجرد هذا العام ؟

فجعل الرجل ينظر اليه نظرات الاستغراب ثم قال : لقد حاولت ان اراه ايها الامير فخانني الحظ !

– وفي العام الذي مرّ ؟
– وكذلك فعلت في العام الذي مرّ فلم أعلم اين هو ..
– اذن فانت تبحث عنه كما نفعل نحن العرب .
– أجل يا مولاي واني لأهب منزلي على الشاطىء لمن يدلـّني عـلى البلد الذي يقيم به !
– وهل تذكر الزمن الذي رأيته فيه ؟

– اذكره ايهـا الامير ولا انساه .. لقد كان ذلك منذ اربعة عشر عامـاً ، وكنا في حلوان ..

– وكيف ضيعت أثره ؟

– كنت أفكر في ذلك الزمن ، في هذه اليتيمة التي ليس لهـا سواي .. ثم أتيت مرو الشاهجان وهو بعيد عنها لا يعرف الناس شيئاً عنه .

– واليوم ؟

– اما اليوم وقد مرّت الاعوام التي ذكرت ، فلم يبق لي إلا أن اطلبه على الأرض وتحت الارض حتى اراه وأجثو عند قدميه ..

قال : يطيب لنا ان نسألك سؤالاً .

– قل يا مولاي !

– لماذا ترك مولاك حلوان وبقيت انت فيها ؟

– لقد سألني الامير عبدالله هذا السؤال في حلوان نفسها .

– ولكنه نسي جوابك ونحن نريد ان نسمعه الآن .

قال : لقد فرّ يزدجرد في الليلة التي خرجت الطفلة فيها الى الحياة !

– وكان عليك ان تلحق به بعد ايام .

– ولكني لم افعل ترى ، وقد أمسيت مسلماً لا اعبأ بفارس كلها ولا ابالي بهذا الملك المخلوع !

قال : خرج الملك وهو راضٍ عنك ؟

– أجل ، وكان يظن اني سأسير وراءه مع الرجال الذين لحقوا به .

– وتقسم لي انك صادق ؟

– أقسم بالله الذي لا إله إلا هو اني لم اكذب .

– اذن كنت تخدع مولاك وهو لا يعلم !

– ومعنى ذلك يا مولاي ؟

– معناه انك كنت تظهر له الاخلاص كما يظهره جميع رجـال بلاطه ، وانت غير مخلص !

– نعم كنت افعل ذلك وانا أعترف به .
– اي انك كنت خائناً !
– نعم كنت خائناً ولكن خيانتي لم تخرج من هذا الصدر !
– وهل تقص علينا اسبابها الآن ؟
– لو كنت استطيع ذلك لما ترددت فيه .
– وما الذي يمنعك منه ؟
سر لي، سألتني انت عنه وسألني مثلك الامير عبدالله وانا اكتمه عن جميع الناس لا أبوح به لأحد !
– ولكني أريد أن أعرفه الساعة وانا أعدك بالكتمان .
قال : لا يخرج من فمي هذا السر الا عندما تأتي ساعته .
فقال عبدالله : اذكر ان هذه الساعة ستأتي في العام القادم .
– نعم أي بعد ان تمسي اليتيمة في عامها الخامس عشر .
فقال الاحنف : وإذا اكرهتك الحادثات على الاعتراف به اليوم ؟
– لا أظن ان هنالك قوة تكرهني على ذلك .
قال : ألست مسلماً ؟
بـــلى !
– ولا تعلم بماذا يوصي المسلمين أمير المؤمنين ؟
– بماذا ؟
– بأن يطيعوا عماله ويسمعوا لهم .
– اني اطيع هؤلاء العمال بما يأمرونني به .
قال : نأمرك بأن تبوح بسرك .
قال : لقد كان هذا السر قبل أن اعتنق الاسلام أي انه سري وانا فارسي !
قال : أيطيب لك ان نعمد الى القوة لتبوح به ؟
– عار على الأمير ان يضيع قوته ..
قال : لقد دبّ الريب في الصدر فالويل لك ..
– واي ريب يا مولاي ؟

– يخيل الينا انك من رجال يزدجرد .
– كنت من رجاله ..
– بل أنت اليوم منهم ولم تزل مقيماً على عهده !
– وأي شيء يدعو الامير الى هذه الظنون ؟
– هذه الاسرار التي تقول لنا كل يوم انك لا تبوح بها لأحد !

– حلفت يا مولاي اني سأحفظ سري وأنا لا استطيع إلا ان ابر في اليمين التي حلفت .

– تلك يمين اقسمتها قبل الدخول في الاسلام .

– اجل ولكن الشرف يملي عليّ ان اكون وفياً لتلك المرأة التي حلفت يميني وهي تصارع الموت ..
– أتعني زوجتك ؟
– نعم والسر الذي احتفظ به سر هذه الزوجة .
– وسر الفتاة التي يدعونها اليتيمة الساحرة ..

فخفق قلب الرجل وعرف ان الأمير يريد ان يستدرجه إلى الاقرار، فقال: ليس لهذه الفتاة سر يا مولاي .

وكان الاحنف يحاول ان يختبر الى النهاية . فقال وهو يتظاهر بالغضب : نراك تنكر كل أمر نسألك عنه وتتجاهل وجوده، فكأنك لا تعلم ان المسلم الذي يخرج عن الطاعة يموت !..

قال : ان الرجل الماثل بين يديك الآن لا يخاف الموت ، ولو كانت حياتي لي لسألتك أيها الأمير أن تأخذها الساعة .

– لقد قلت من قبل ان حياتك ليزدجرد !

– انها لابنتي ولكني لا أريد من ناحية اخرى أن أموت ، قبل أن أرى الرجل الذي ذكرت .
قال : لقد عرفت الآن شيئاً من سرك .

– ان زوجتك عهدت اليك قبل ان يغمض عينيها الموت في ان تنقل كلاماً الى يزدجرد ، كانت تريد هي ان تقوله له .

– لك ان تظن ما تشاء أيها الأمير !

– وانـّا قد رأينا الآن رأياً هو أن تقيم بيننا في هذا المنزل حتى ينتهي العام الخامس عشر فتعترف لنا عندئذ بكل شيء ..

– تفعل ذلك مع عمالك الخونة يا مولاي ، أما أنا فليس لك أن تجعلني أسيراً ولا ذنب لي ..

– ومن يمنعني إذا فعلت ؟

– امـــير المؤمنين الذي يرعى المسلمين ويضرب الظالمين .. اني سأبوح لك بسري ، عندمـا تأتي ساعته ، دون أن أكون أسيراً في منزلك ، ودون ان يكرهني على ذلك وعيد وتهديد .

قال : نخشى أن تفر في تلك الساعة وتلحق بمولاك .

قال : لا يفر الا المجرمون وانا لست منهم .

– وهل تعدني الآن انك ستبقى في منزلك على الشاطيء ؟

– اجل، واني لا انتقل منه إلا إذا اذنت لي .

أتضمنه يا عبدالله ؟

فتردد عبدالله في جوابه . فقال شهريار : يكفي اني وعدتك وقد تنسى انت ما حدثتني به ، أما أنا فلا انسى وسأفي بما وعدت .

فابتسم قائلاً : وابنتك يا شهريار ؟

– ماذا تريد من ابنتي يا مولاي ؟

– لماذا يسمونها اليتيمة الساحرة ؟

فلمعت عيناه وقال : لانها يتيمة يا مولاي، ولأن في عينيها ووجهها سحراً..

– ومن رآها من فتيان العرب ؟

– طائفة منهم ومن فتيان الفرس .

– ان اليتيمة لا تزف إلا إلى من تحب .

قال : قد تحب صعلوكاً من صعاليك فارس .

– ليس لها ان تفكر في زوج فارسي ولو كان من الملوك !

– لماذا ؟

– لأن امها ارادت ان يكون زوجها عربياً !

قال : لقد رجعنا الآن الى الأسرار .

فأدرك الرجل انه جاوز الحد في ذلك الاعتراف ، فقال : استطيع يا مولاي ان ابوح لك بهذه الناحية من السر .

قال : هات .

قال : لقد احبت زوجتي فتى من فتيان العرب رأته في القادسية واعترف لها هو بحبه ثم تعاهد الاثنان على الزواج .

– وتعرف اسمه ؟

– لا يا مولاي بل اعرف انه من بني ثقيف .

– واي شيء جرى للاثنين بعد ذلك .

– كنت انا احبها وقد وصفت لها لوعتي وغرامي وهي لا تنظر اليّ ولا تفكر الا في ذلك العربي الذي فتنها جماله .

وجعل يتنهد قائلاً : والحب يا مولاي يعمي البصائر ، فقد خطر لي ان اشكوها الى ابيها ، ففعلت ، ثم رأى ابوها بعينيه ذلك الفتى يرسل اليها نظرات العشاق ، فخاف ان تخرج من منزله وتلحق به ، فيلحق به العار ، فزفها اليّ وهي تستغيث وتبكي وهو لا يرحم ولا يصغي الى ذلك البكاء .

– وكيف استطعت ان تعيش معها وهي لا تحبك ؟

– احببتها حتى لو سألتني ان ابذل لها دمي لفعلت .

– ثم ماذا ؟

– ثم انتقلنا الى المدائن ، فأمرني يزدجرد بأن ادخل بلاطه واكون من رجاله ، فلم استطع الا ان اطيعه واشكر له نعمته ، اما هي فغضبت لدخولي البلاط ولم تشأ إلا ان تبقى في منزل لها على شاطىء دجلة .

– وابوها ؟

– واما ابوها فكان قد مات يوم فرار الجيش الى المدائن ، وماتـ مها بعد شهر ، فبدات هي تلعن قومها ولم تكن تطيق ، ان يذكر لها أحدهم واحد من الفرس او يحدثها بأمر من أمور فارس .

– وبعد دخول العرب ؟

– لجأنا الى جلولاء كما تعلم ، ثم الى حلوان واوصتني فيها بأن ابغض قومي كما ابغضتهم هي ، وازف ابنتي إذا بقيت الى عربي !

– وابغضتهم منذ تلك الساعة ؟

– اجل ، حتى اني كرهت بلادي من اجلهم وآثرت الاسلام على كل شيء !

قال : صدقت ! كل شيء إلا امراً واحداً لا اومن به .

– وما هو ؟

– هو ان الرجل لا يبغض قومه بدون ذنب .

– ولكن الحب يعمي البصائر كما قلت ، فهو وحده الذي أكرهني على ما فعلت وانتهى الامر .

قال : أتعلم لماذا ابغضت زوجتك قومها ؟

– نعم فقد نشأ هذا البغض منذ زفها أبوها إليّ وهي لا تحبني ولا تطيق ان تبتعد عن ذلك الفتى الثقفي .

– ورضيت انت بهذا ؟

– رضيت كما ترى .

– والكلام الذي تريد ان تنقله الى يزدجرد ؟

– قف يا مولاي اليوم عند هذا الحد ولا تسألني عن أمر آخر .

قال : لقد ذكرت لنا من قبل ان العيش لا يطيب لك الا بعد ان تشيّع الملك الى القبر !

واقول ذلك اليوم وغداً حتى ارى الملك محمولاً على الأكفّ .

قال: إنها حكاية غريبة سمعناها منك وقد نسمع اغرب منها في هذه الساعة اسمع يا شهريار .. ان الأمير الذي يخاطبك الآن يريد ان يزوج اليتيمة .

– اليوم يا مولاي ؟
– في هذا الشهر ..
– ولكني لا استطيع ذلك يا مولاي .
– إذن فالزواج يخضع لسرك .
– نعم واليتيمة لا تتزوج الا بعد ان ابوح لها به .
قال : لعلك ترضى بما يقوله الأمير عندما تعلم اسم هذا الزوج الذي اختاره لابنتك ..
فأراد الرجل ان يعرفه فقال : اهو من قومك
– أجل ومن أقرب الناس إليّ .
– انه طارق ابن اخيك .
– ومن أين عرفت ذلك ؟
– لم اجد بين الفتيان الذين حولك فتى أقرب منه اليك .
قال : لنفترض انه طارق فماذا تقول ؟
– ليس لي ان اقول كلمة الا في العام المقبل .
قال: وهل تكره ان يكون طارق زوجاً لفتاتك وهو سيد قومه وانت غير معروف ولا تنتمي الى عشيرة ؟
قال : ليس امر الرضى في يدي يا مولاي ، ان اليتيمة هي التي تختار زوجها بعد عامها الخامس عشر ، واما اني لا انتمي الى عشيرة فسريّ يمنعني اليوم من هذا الانتماء وسأذكر عشيرتي بعد عام .
– إذن ليس لنا ان نحدثك بهذا في العام الحاضر .
– لا يا مولاي وانك لا تسمع جواباً إذا فعلت .
– ولكن طارقاً يريد ان يتزوج اليوم !
– زوّجه من تشاء الا اليتيمة .

قال : خبّره يا طارق انك رأيت ابنته في منزله على الشاطىء ، وان الغرام برّح بكما انتما الاثنين ؛ فاحمرّ وجه الخراساني وجعل يقول : وهل حدث ذلك ؟
فقال الاحنف : نعم وقد تعاهدا على الزواج .

قال : اراك تهزأ بي يا مولاي !

فقال طارق : بل ذكر لك ما جرى دون ان يزيد حرفاً .

قال : لم يبق لي ما اقوله . — لماذا ؟

— لان اليتيمة اختارت زوجهاوهذا ما ارغب فيه.. ولكن بقي امر آخراً هو انك ستخنق غرامك في العام المقبل . — وكيف ذلك ؟

قال : قد يدفعك السرّ الذي سأبوح به الى خنق هذا الغرام ..!

فهمّ طارق بان يجيب فأومـــأ اليه عمه بان يسكت ثم قال : انه اذن سر خطير يا شهريار ..

— نعم خطير يا مولاي ، ومن يعلم ، فقد يبغض طارق اليتيمة عندما يعرفه ويؤثر عليها فتاة من قومه .

قال : اسمعت يا بني ؟

فرفع الفتى رأسه قائلا : نعم سمعت وستكون اليتيمة لي ولو كانت حياتهـا وحياة ابيها اسراراً !

فرأى الاحنف ان يخمد ثورة الغرام في صدر ابن اخيه ، فقال : قد يخطر لطارق ان يحمل اليتيمة الى بلاد قومه وانت لا تعلم ..

— بل يصبر فذلك خير له .

— واذا فعل ؟

— ألحق بهما فأقتل الاثنين ثم اقتل نفسي !

— وأي شأن لك بهذا واليتيمة راضية ؟

— ليس لها ان تنفرد بالأمر وهي تجهل السر ... اتريد يا مولاي ان تفعـل اليتيمة اليوم امراً تندم عليه غداً ؟

وهل تطمع فتاتك بان تزفّ الى فتىً اعظم شأناً من طارق بن عبدالله ؟

فأطرق ملياً ثم قال : لا تسألني عن شيء بعد الآن يا مولاي فأنا لا أعلم .

قال : قل كلمة واحدة بهذا المعنى .

قال : لو امرت الجلاد الآن بان يضرب عنقي لما فعلت ..

قال : لقد اكتفينا بهذا فأخرج ..

فلما انصرف قال لطارق : ليس من الراي ان تمعن في غرامك يا بني قبل ان تعرف سر الفتاة .

قال : لقد امسيت الآن اسير غرامي وانقضى كل شيء .

– ولكن حكاية الرجل تدعو الى التفكير .

– لا لاسرار قط بل بما سمعت ..

قال : خير ما تلجأ اليه الصبر يا بني .

قال : سأصبر ولكني لا اعلم متى اضيّع صبري واصنع مع اليتيمة ما يصنعه العربي النازل في البادية ..

– اتختطفها اختطافاً ؟

– افعل اذا حالت بيني وبينها الاقدار .

وخرج وهو يقول في نفسه : أي شيء هو هذا السر الذي يمنع اليتيمة من ان تتزوج اليوم من تشاء .

وجعل يفكر وهو لا يجد حلاً للأمر الذي يفكر فيه الا ان يأمر الاحنف شهريار باحضار اليتيمة الى مرو الروذ لتراها ام عامر .

فعاد الى القاعة قائلاً : ألا يطيب لك يا عم ان ترى الفتاة ، في مرو الروذ ، ويراها ابي ؟

قال : ومن يضمن لنا انها ستجيء ؟

– مُر أباها بان يفعل .

قال : بقيت لنا كلمة نقولها لشهريار ايها الغلام .

فوثب الغلام الى الرواق ، ولم يلبث حتى عاد والرجل وراءه ، فقال الاحنف : ان الكلمة التي نقولها لك لا تدخل في الاسرار .

– قل يا مولاي ..

– نطلب اليك ان تزورنا مع اليتيمة بعد بضعة ايام .

فابتسم قائلاً : يظهر ان الامير عبدالله وزوجته يريدان ان يريا الطفلة ..

– اجل فهل تعدنا بذلك ؟

– نعم على ان تعدني انت . !
– بماذا ؟
– بأن ارجع مع اليتيمة الى شاطىء المرغاب عندما نشاء .
– وهل خطر لك اننا سنجعلكما مع الاسرى ؟
– بل خطر لي خاطر آخر لا اجسر على ذكره .
– قل وانت آمن ..
قال : اخشى ان تدخل اليتيمة هذا المنزل وتبقى فيه !
– اذن تظن ان عامل المروين سيعمد الى السيف في زواج ابن اخيه؟ اننا لو اردنا ذلك لأرسلنا جنودنا الى المرغاب تحمل ابنتك ومن في المنزل الى مروالروذ، وتقابل بالسيف من يتصدى لها من القوم .
قال : صدقت فأنت قادر على ذلك .
– ومتى تجيء ؟
– بعد شهر يا مولاي .
قال : هذا كثير واخونا عبدالله لا يرضى الا بان تعود بعد بضعة عشر يوماً.
قال : اما لامير عبدالله فراض بكل شيء، ولكن هنالك فتى لا يستطيع ان يرضى ، هو ولده هذا .. واشار الى طارق ؛ فضحك الأميران عندما كان طارق يرسل الزفرات .. ولم يترك شهريار مرو الروذ ، الا بعد ان وعد القوم بالرجوع ، قبل ان يمر الشهر .
وكان قلبه يرقص فرحاً كلما فكر في ذلك العاشق النبيل، الذي جعلته السماء حامياً لابنته ..

* * *

– ٢١ –

من هم الفتيان الذين مروا بهذا المنزل وانا بعيد عنه؟
فقال سنان لشهريار : طوائف من اهل المروين ووفود من اهل البصرة مروا بنا منذ ثلاثة ايام .
– وماذا يصنع اهل البصرة في هذه الارض ؟

– يشترون النسيج الخراساني ويحملونه على البغال والنوق .

– وبماذا كانوا يتحدثون ؟

– كانوا يصفون عبد الله بن عامر امير البصرة بقولهم : انه من اعظم الفتيان شأناً وهو في مقتبل العمر .

– وهل كان بينهم رجال من قومك ؟

– ان بني سليم ينزلون في ضواحي الكوفة وهم لا يجيئون الى خراسان الا اذا ندبهم الامراء للقتال .

– ومن عرفت من اهل المروين ؟

– عرفت فتى تعرفه انت هو طارق بن عبدالله بن قيس الذي قصصت علي اخبار ابيه وفضله عليك .

قال : ان عبدالله احب الناس اليّ وماذا صنع طارق ؟

– قضى في هذا المنزل بضعة ايام ، في رواحه ومجيئه .

– ورأى اليتيمة ؟

– رآها وحدثها وذكر لها اباه وام عامر وكانت هي تهش وتبتسم له . . ثم قال : ألم يقص عليك هو ما اقصه الآن ؟

– ولكني اريد ان اسمع حكايته من فمك .

– وما هي هذه الحكاية يا مولاي ؟

– قل اولا كيف اذنت له في ان يرى الفتاة ؟

– انك لم تحجب فتاتك يا مولاي فهي التي تستقبل الاضياف وتدعوهم الى النزول .

– ولكنها لم تجالس قط احدهم ولم يخطر لضيف منهم ان يصف جمالها ويبوح لها بالهوى الذي تغلل في صدره .

– وهل فعل طارق ما تقوله ؟

– أجل ، وقد انتهى الامر بين الاثنين بان تعاهدا على الزواج وانت توقد النار لاضيافك وتهيء لهم الطعام .

فسكت قليلاً ثم قال : صدقت يا مولاي فلقد رأيت الغرام يتلألأ نوره في العيون . .

ولكن كان عليك ان تمنع حدوث ما رأيت .

– وكيف امنع الفتى من ان يجالس مولاتي ويحادثها وهو ابن المحسن اليها واليك ؟

– كان يكفي ان تجالسها عمرة زوجتك وتنصرف عندما تنصرف اليتيمة .

قال : عفوك يا مولاي فقد اخطأت .

– قل لليتيمة ان تجيء .

فاقبلت الفتاة وهي واثقة بأن طارقاً اعترف بغرامه ، وان اباها سيحدثها بشأن هذا الغرام .

فقال شهريار وهو يبتسم : كيف رأيت ابن عبدالله بن قيس ؟

– اتعني طارقاً ؟

– نعم !

– انه احسن من رأيت .

قال : لو لم يكن كما تقولين لما خطر لك ان تعاهديه على الوفاء وتحلفي له انك ستكونين له لا لسواه . !

فأجابته وهي هادئة : لقد أملت عليّ هذه العاطفة التي تخفق في الصدر ، ان افعل ما فعلت .

ورفعت رأسها كأنها تريد ان تدافع عن ذلك الهوى الذي احست به .

وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه ، فقال : كنت اظن يا بنية انك لا تجالسين الفتيان .

– ولكنك بعثت اليّ بالفتى الذي احببته فكأنك اردت ان تجعلني اسيرة هـــواه !

قال : بعثه عمه الى مرو الشاهجان لحاجة له ، فلم يشأ الا ان يزور الطفلة التي ارضعتها زوجة ابيه .

– ولم تأذن له انت في ذلك ؟

– بلى ، عـــلى ان هـــذه الزيارة التي انتهت بالحب الذي ارى ان العرب ستتحدث به !

قالت : يظهر انك تؤثر على طارق فتى من العرب .

فأراد ان يلمس غرامها بيديه قال : استطيع ان اختار لك اميراً آخر اشرف نسباً منه واعظم شأناً في قومه .

قالت : كنت تقول لي ان عشيرة عبد الله بن قيس اقوى عشائر العرب وابعدها نفوذاً وهيبة ، في العراق والحجاز .

– ولكني لم أقل انها أشرف العشائر .

– اذن فأنت لا تريد ان احب طارقاً !

اريد ان يكون الزوج الذي تختارينه سيد العرب ؟

قالت : سيد العرب كلها امير المؤمنين أفتحاول ان تجعلني زوجة له ؟

– بل احاول ان اجعلك زوجة لواحد من بنيه .

اما انا فلم يخطر لي انك تستطيع ان تصاهر الملوك .

– واذا قدرت على هذا ؟

فأطرقت ملياً ثم قالت : ليس لك إن تطمع بما لا تستطيعه . ومع ذلك فلو اراد امير المؤمنين ان يجعلني زوجة له ويعهد اليّ في امر الخلافة لما رضيت .

– وماذ تقولين لامير المؤمنين اذا فعل ؟

– اقول له اني احببت طارقاً وانتهى الامر !

قال : ألا تستطيعين ان تنسي هذ الحب يا بنية ؟

– ولماذا تريد ان انساه ؟

– لان ذلك السر الذي لم أبح به يمنعك من الزواج .

– ويمنعني من ان احب ؟

– لا ولكن الحب الذي لا ينتهي الى الزواج يقتل صاحبه ..

قالت : ألا تبوح لي بسرك في العام المقبل ؟

– بلى !

قالت : سأحتمل حبي عاماً واعالج امره بالصبر ربما انجو من هذه الاسرار التي تحيط بي .

– وبعد ذلك ؟

– تزفني بعد ذلك الى الفتى الذي ارسلته ليرى طفلتك .
– ولا تخافين ان يحول السر بينك وبينه ؟
فتمتمت قائلة : لا تستطيع الاسرار ان تفصلني عنه . ولكن قل لي، أتريد أنسى حبي ام ماذا ؟
فدمعت عيناه ، ثم فتح ذراعيه قائلاً : لك ان تحبي من تشائين يا بنية وعليّ أرضى . ! ثم قال : وسنذهب بعد بضعة عشر يوماً الى مرو الروذ .
– واذهب معك ؟
– اجل فأم عامر وزوجها يرغبان في هذا . وهنالك فتى لا يغمض له جفن بعد ان تمسي اليتيمة في مرو الروذ .
– وهل اعترف طارق بغرامه ؟
– بل اقسم لابيه وعمه انه سيقتل نفسه اذ لم تزفي اليه ؟
– ورضي الرجلان بذلك .
– قرأت على وجهيهما دلائل التردد في الامر وخيل اليّ انهما يؤثران علـــى يتيمة المجهولة النسب فتاة من بنات الاشراف .
قالت : كلما سألتك عن نسبي يا ابي ترددت في الجواب واني خائفة .
– تخافين ماذا ؟
– ان يكون هذا النسب الذي تنتمي اليه غير شريف فيبتعد عني من احب . العرب تهتم لانسابها اكثر مما تهتم لابنائها .
قال : نسبي شريف يا بنية وليس في القوم الذين انتمي اليهم شيء من العار .
– واين قومك ؟
– فرّقتهم الحروب فلجأوا الى الاقطـــار البعيدة يبحثون فيها عن اسباب عيش . وبينا الاثنان يتحدثان ، اقبل احد العبدين يقول لشهريار : في الفناء فارسي لم ارَ له وجهاً من قبل .
قال : صفه لي .
– شيخ طويل القامة واسع الصدر وليس في رأسه ولحيته شعرة سوداء .
– وماذا قال لك

– سألني النزول في الفناء بضعة ايام ريثما يستعيد قواه .

– خذ دابته وادعهُ الى النزول .

– ليس معه دابة يا مولاي .

– اذن هو من صعاليك الفرس .

– هذا ما يبدو لي ولكن مظهره مظهر رجل جار عليه الزمان .

– ومن يحمل ثيابه وأشياءه ؟

– لا يحمل غير عصاه .

قال اخرج واعدَّ له الطعام وسأراه بعد ساعة ، ثم قال لليتيمة : لسنا من الأغنياء يا بنية ، ولكن الاسلام يأمرنا بالاحسان وليس هنالك شيء أحب إليَّ منه .

– وهل بقي لنا ما نتحدث به ؟

– بقي ان أسألك شيئاً واحداً هو أن تستسلمي في هذا الحب الذي وصفته لي ، الى الهدوء .

– وقد بقيت لي حاجة اسألك قضاءها .

– ما هي ؟

– هي ان نتعجل في الذهاب الى مرو الروذ .

– لترى طارقاً ...

– أجل، ولكي ألمس بيديَّ مظاهر عمه وأبيه .

قال : انك لا تستطيعين ان تعلمي من هذه المظاهر ما تريدين ان تعلميه .

– لماذا ؟

– لأن الأحنف من أدهى العرب ، وعبدالله لا يخطو خطوة واحدة ، بل لا يقول كلمة إلا باذن اخيه .

– يكفي ان انظر الى الوجوه والعيون ..

– ثم تقرأين ما في القلوب .

– نعم !

فضحك قائلاً : ولكنك نسيت يا بنية ان الامراء الذين هم رجال المشورة

رجال الرأي والسيف، لا تدلّ مظاهرهم على ما يغلل في النفوس .

– ومع ذلك فاني واثقة بأني سأتبين ما وراء تلك المظاهر، من حب وبغض، ستری بعينيك كل شيء ..

وقامت فخرجت ، واسم طارق يتردد في الصدر ثم يظهر على الشفتين ، صورته الفتانة تتهادى في الفضاء، امام العينين . ولم يلبث شهريار حتى انصرف لى الفناء ، لينظر في امور اضيافه ، ويحسن الى ذلك الصعلوك الفارسي ...

* * *

– ٢٢ –

كان ذلك الصعلوك الذي وصف لشهريار ، يتناول طعامه في زاوية من زوايا لفناء الرحب الذي يتسع لطوائف القوم . وكان أكله أكل جائع مرت عليه بضعة أيام لم يشبع في اثنائها جوفه ، بل لم يذق فيها شيئاً من الطعام . فوقف لخراساني وراءه ، وقد طابت نفسه لما يفعله في منزله ، من العناية بالناس الاحسان الى الفقراء . ولم يشأ ان يخاطبه او يرحب به ، خوفاً من ان يستولي ليه الخجل فيترك طعامه قبل ان يسكت جوعه . ولكن الشيخ حوّل وجهه ، تلك اللحظة الى الوراء، فرآه، ثم ارتجفت يداه وهو يمدهما اليه قائلاً: انت؟! ت شهريار الخراساني أحد أبطال القادسية وأحد رجال الملك الفارسي المسكين ذي خلعوه عن العرش؟ فجعل شهريار يتفرس في وجهه، وهو يستعرض ماضيه يستعين بذاكرته ليعرف الرجل الذي فاجأه بما سمع . وقد أيقن بانه رأى ذلك وجه من قبل ، وسمع ذلك الصوت ، ولكنه لم يرَ هذا الشعر الابيض ذي يراه الآن . وكادت شفتاه تلفظان اسم الرجل ، غير انه أراد ان يعمد الى سؤال قبل ان يفعل فقال : من أين لك ان تعلم اني شهريار الذي ذكرت ؟

قال : ما نسيت هذه اليد التي قطعها السيف في حروب رستم، وهذه الجراح ي هي آثار الشرف على وجهك الضاحك .

قال : في فارس طائفة كبيرة من الرجال قطعت ايديهــا السيوف وشوهت وجوهها الجراح .. وانك لترى هؤلاء الرجال في كل مكان .

ولكن لم يكن بينهم رجل واحد يعرف جهان روز التي كانت حظية يزدجرد وقد تركها في حلوان بين مخالب الشقاء .

فصاح قائلاً : رئيس خصيان البلاط ؟

– نعم، انا طرخان بن نيزك، وقد كنت ، بفضل ابان زرد والد جهان روز، رئيس خصيان البلاط وأقرب الناس الى الملك .

فانحنى يقبله ويقول : انت المحسن اليّ والى جهان روز ولو لم تكن مع يزدجرد في تلك الليلة لما بقيت انا حياً الى اليوم .

وأنهضه قائلاً : اتبعني الى المنزل وسيهيأ لك الطعام من جديد .

وتقدمه الى قــاعة الجلوس ثم بسط له مع سنــان ، افخر ما في المنزل من طعام ، ثم وقف ينظر الية حتى فرغ من اكله فقــال له : أوضعت العرب يدها على يزدجرد !

قال : اسألك عن جهان روز قبل ان تسألني عن الملك ... أتقيم هي معك بهذا المنزل ؟

– بل تقيم بحلوان !

– وحدها ؟

– مع طفلتها التي ولدتها بعد خروج ملكك !

– وكيف تركتها وقد وعدت بانك ستعنى بها كما يعنى الرجل بزوجته ؟

– اكرهني القدر الجائر على ذلك .

قال : حدثني بما تعلم .

قال : فصل الموت بيني وبين جهان روز .

فاطرق قائلاً : ماتت لؤلؤة الفرس ؟

– نعم ، ولحقت بها طفلتها على الأثر فوضعت الاثنين في حفرة واحدة ، بين

صخور ذلك الوادي الذي رأيته ..

فجالت الدموع في عيني الشيخ ، ثم وضع رأسه بين يديه وهو يلعن ذلك القدر الذي جار .. ثم رفع رأسه فقال : وذلك المال الذي أخذته ؟

– امـا المال فقد بذلت بعضه في شراء هذا المنزل وانا ابذل البعض الآخر في إطعام الفقراء كما رأيت .

قال : اراك تلبس لباس العرب .

– لقد أمسيت عربياً مسلماً وتزوجت فتاة مسلمة ..

– ولماذا فعلت ذلك ؟

– لأني رأيت في الاسلام نوراً يقود الناس الى الله عزّ وجلّ .

– وأين زوجتك ؟

– صرعها الموت على هذا الشاطىء منذ اربعة أعوام ..

– وليس لك بنون منها ؟

– لي فتاة في الثالثه عشرة ...

وقد كره أن يقول له انها في الرابعة عشرة خوفاً من ان يظن الظنون .

قال : خير لك ان تتزوج مرة ثانية .

– لقد سئمت الحياة واني لأرغب في ان اقضي العمر كله في هـذا المنزل ، استقبل فيه اضيافي واخدم اللاجئين إليه .

فتنهد قائلاً : هنيئاً لك ..

– قل هنيئاً لمن يعيشون في ظل يزدجرد .

وكان الريب قد دب في صدر شهريار، وقام في ذهنه أن الرجل من جواسيس الملك الذين يطوفون في البلاد للاطلاع على أسرار العرب وجمع المال من الامراء المخلصين للعرش ، على انــه لم يقل كلمته ، حتى رأى عينيه تختلجان ، ووجهه يكفهر ، والحقد يرتسم عـلى جبينه بصورته الرائعة ، ثم سمعه يقول : خير لك ان تقول : هنيئاً للقوم الذين يعيشون في ظله ..

– أأنت رئيس الخصيان وتقول هذا ؟

– كنت رئيس خصيانه منذ شهر .

– واليوم ؟

– امـــا اليوم فأنا شقي كما ترى ، وفقير من فقراء فارس الذين يقفون على الأبواب ويسألون النـــاس الاحسان . فقال في نفسه انـه مظهر من مظـاهر الجواسيس ، ثم قال له : وكيف أمسيت من الفقراء ومال الملك كله بين يديك ؟

– لقد طردني من خدمته كما يطرد المجرم ، دون ان يسمع لي ، ودون ان يصغي الى ما اقوله له ..

– وما هي التهمة التي وجهت اليك ؟

– تهمة الخيانة ، فقد قال لرجاله اني انصح له بان يبذل ماله لأمراء الاقـاليم ليكونوا عونـاً له ، وليس لي من وراء ذلك غير غـــاية واحدة هي ان اجعله من الفقراء .

فابتسم ابتسامة الاستهزاء وقـال : لي كلمة أقولهـا لك وأخشى أن أسيء بهـا اليك .

قال : لم يتردد الملك الذي كنت من اخلص رجـاله ، في الاساءة إليّ ، قل ما يخطر لك .

قال : يقوم في ذهني انك تخدعني بهذه الحكاية التي قصصتها عليّ الآن .

قال : لم اكن من قبل كاذباً لأكذب الساعة .

– ولكن الملك يبعث رجاله الى كل قطر وقـد تكون انت منهم .. خبرني كل شيء ولا تخف فأنا لا أخون قومي ولو كنت مسلماً .

فبكى قائلاً : وهل يبعث الملك هؤلاء الرجال بدون مـال ؟ انظر الى هذا الثوب البالي الذي ألبسه ، اني لا املك سواه وليس فيه درهم واحد استعين به على الشقاء الذي دفعني الملك اليه ..

قـال : الرجل الذي يطوف في البلاد بأمر الملك لا يحمل ماله بل يعمد الى

اخفائه في بطن الأرض ، في مكان لا تنتهي اليه العيون ، قل اين خبأت مالك ، واعترف بسرك وأنا اعدك بالكتمان .

– اقسم لك اني خرجت من خدمة يزدجرد خروجاً لا رجوع بعده وسأقضي العمر كله بعيداً عنه ..

– وكيف تعيش ولا مال لك ؟

قال : سأجد بين اولئك الاصدقاء الذين كانوا يتملقونني وانا في البلاط ، واحداً يرضى بان يجعلني بين عبيده !

فأيقن شهريار بانه صادق فيما رواه فقال: اما انا فأرضى بان تقيم بمنزلي كأنك من اهله ..

– العمر كله ؟

– اجل وسأكون خادماً لك .

– ولكنك لست من الأغنياء .

– يكفيني المال الذي اخذته من يزدجرد .

فارتفع صوته بالبكاء ثم جعل يقول : لقد وجدت في هذا العالم من يَحسن الى الشقي المنكود الحظ .

قال : لقد كنت محسناً اليّ من قبل وانا لا استطيع الا ان اذكر النعمة واعترف بالفضل .. قل الآن اين تركت يزدجرد ؟

– لا تسألني عنه فانا قد نسيت الماضي واعتقد ان الرجل قد مات ..

– بل أسألك عنه قبل كل شيء، فلي كلام اقوله لهذا الملك الذي يكافىء بالطرد، رجاله المخلصين له .

– تستطيع ان تراه لتقول له ما تريد ان تقوله ؟

– وكيف ذلك ؟

– ان المنزل الذي يقيم به لا تفتح أبوابه إلا لسكانه .

– دلني عليه وأنا أحطم هذه الابواب التي لا تفتح لأحد !

.. ذن ستعمد الى القوة يا شهريار .

– بل اعمد الى اللين والدهاء حتى يأذن لي في الدخول .

– وان لم يفعل ؟

– يفعل عندما اذكر له اني رسول جهان روز . اين تركته ؟

– في كرمان .

– ولكني بحثت عنه فيها فلم اجده .

– وهل تظن ان اهل كرمان يدلون الناس على منزله ؟ انهم لو فعلوا ذلك لأمسى الملك في أيدي أعدائه الذين يطوفون في البلاد باحثين عنه .

قال : أفي البلد، ضواحيه ؟

– في البلد ، أتعرف ذلك الجانب من السور ، الذي هدمته العرب ؟

– من ناحية الشرق ؟

– اجل أعرفه وقد انتهيت اليه في الطواف .

قال : في تلك الناحية ، عند السور ، بيت يشبه الحصن هو بيت الملك .

– وتحيط به الاسوار من الجهات الاربع ؟

– نعم !

قال : عرفته وقد خيّل إليّ انه مهجور لا ينزله احد من الناس ، ومن في المنزل من القوم ؟

– اربعة من الامناء ، وثمانية من العبيد والخصيان ، والبنون ، والنساء وجواريهن .

– وأي باب يُدخل منه ؟

– الابواب مقفلة في النهار والليل ، وعندما يريد احدهم الخروج الى السوق يخرج من السراديب التي تنتهي الى منزل مهجور يجاور ذلك البيت .

قال : لقد عرفت الآن كل شيء وسأرحل الى كرمان بعد ان ارجع من مرو الروذ .

– وماذا تصنع في مرو ؟
– اذهب اليها مع ابنتي بأمر من عامل المروين الأحنف بن قيس .
قال : لقد ملأ اسم الاحنف وهيبته كرمان ..
– انه من أعظم أمراء العرب وقد طلب إليّ ان ازفّ ابنتي الى طارق ابن اخيه .

فسكت قليلاً ثم قال : يظهر انك وعدته بالقبض على يزدجرد .

– لم أعد بذلك احداً ، ولكني أريد ان امثل بين يدي يزدجرد لأخاطبه جاثياً على ركبتيّ كما كنت افعل من قبل ، ثم اخرج من منزله وليقبض عليه الاحنف بعد ذلك فأنا لا ابالي !

قال : اذكر لي ما تريد أن تقوله له .
– لا استطيع ان اذكر لك شيئاً فذلك سرّ لي .
– ولكنك تستطيع ان تذكر لي شيئاً آخر .. أأنت عدو الملك أم صديقه؟

– قلت لك اني لا أعبأ بأمره بعد ان أراه ، وانت ؟ أيطيب لك أن ينجو الملك من أعدائه ؟

– بل يطيب لي ان يضع هؤلاء الاعداء أيديهم عليه وعلى رجاله .. ولكني أكره ان اكون نذلاً وادلّ العرب على منزله !

قال : اذا قبضوا عليه قتلوه .
– لا تهدأ فارس الا بعد أن يموت ..
– اذن فاعلم اني من هذا الرأي ولا يهنأ لي عيش الا عندما أرى الملك جثة خرساء ..

قال : اخشى ان ينتهي سعيك بالفشل فتخسر حياتك .
قال : لا ابالي بهذه الحياة التي خسرتها وأنا حيّ !.

ودعا سناناً فقال له : سيقيم هذا الرجل بيننا ما طابت الاقامة له ، فهو من المحسنين إليّ ويكفي أن تعلم هذا .

فخرج الرجل لينقل أمر مولاه الى العبدين ، ودخلت اليتيمة لـــترى ذلك الضيف الفارسي ، فقال شهريار : هذه ابنتي .

فجعل الخصيّ يتفرس فيها .. وقد مثلت امام عينيه، في تلك اللحظة صورة جهان روز حظية مولاه. ولكنه لم يقل كلمة بل انحنى يصافح تلك اليد الممدودة اليه وقد استولت عليه الظنون .. وشعر شهريار بأن الرجل عرف شيئاً من سره ، فابتسم، ثم نهض وأومأ الى اليتيمة بالخروج قائلاً : الى اللقاء.. وايقن ابن نيزك عندئذ بان تلك الفتاة ابنة المرأة الحسناء التي تركها يزدجرد في حلوان .

* * *

- ٢٣ -

مرت عشرة أيام ، واليتيمة تفكر في مرو الروذ ، وفي ذلك الحبيب الذي ستراه فيها بعد بضعة أيام . وكان أبوها يعد عدة الرحيل الى كرمان ، بعـــد رجوعه من مدينة الاحنف بن قيس .

وطرخان بن نيزك، يصف له كل يوم منزل الملك والمنازل التي تجاوره . وبينا هو يفعل ذلك في صباح اليوم الحادي عشر وشهريار يصغي الى مــــا يقوله دخل الفناء عربيان يقودان فرسيهما وكانا يقولان لسنان : نحن الآن في منزل شهريار الخراساني أليس كذلك ؟ — بلى !

— وأين هو الرجل ؟

— هنا .. فمن انتما ؟

— الحارث بن يزيد وخالد بن عبدالله من جيش البصرة فاذهب وقل له اننـــا نريد ان نراه الساعة .

فانصرف ينقل الى مولاه مــــا سمعه منهما ، فجعل شهريار ينظر الى الخصي ويقول : أي شأن لرجال البصرة مع شهريار الخراساني .. ثم دعاهما الى قاعـة الاضياف وجعل يرحب بهما ثم قال : من امراء البصرة ؟

فقال خالد بن عبدالله : نعم ومن رجال الامير عبدالله بن عامر وقـــد بعثنا اليك !.

ـ انا ؟. – نعم .

ـ ولكني لا اعرفه ولم ارَ له وجهاً .

ـ وهو لا يعرفك ولكنهم وصفوك له .

ـ وماذا يريد ؟

ـ بعثنا لنخطب له ابنتك !

فاضطرب قائلاً : ان ابنتي في الرابعة عشرة من العمر وهي لا تصلح للزواج الآن .

ـ ان الامير يعرف ذلك ولك ان تزفها بعد عام .

قال : اود لو يجعلني الأمير عبداً من عبيده ، ولكني لا استطيع ان ارضى ما يريده . لا والله لا استطيع ذلك .. – لماذا ؟

ـ لان هنالك اشياء تمنعني من الرضى .

ـ وهل نقول للامير ان الرجل لا يريد ان يزف ابنته اليك ؟

ـ بل تقول له ان هنالك سببين اثنين يعتذر بهما .

ـ ما هما ؟

ـ احدهما اني حلفت لزوجتي وهي على فراش الموت ان ابنتها لا تزف الا الى الفتى الذي تختاره هي .

ـ والآخر ؟

ـ اما الآخر فهو انها تكاد تكون مخطوبة .

ـ لمن ؟

ـ لأمير عربي من امراء مرو الروذ ، ليس من الرأي ان نذكر اسمه لجميـع الناس .

ـ وهل تخجل من ذلك ؟

ـ اخشى ان أسيء اليه اذا فعلت .

ـ ولكن الأمير عبدالله بن عامر سيسألنا عنه .

ـ قل له انه احد انسباء عامل المروين .

فجعل يقول : عامل المروين الأحنف بن قيس . فمن هو نسيبه الذي ذكرت؟

ـ طارق ابن اخيه .

فقال الحارث بن يزيد: على الفتاة التي يخطبها رجلان اثنان ان تختار اعظمها شأناً وأبعدهما صوتاً .

ـ وهل يريد امير البصرة ان يخلق هذا الاختيار فتنة بين صفوف العرب ؟ يكفي ان يعلم انها مخطوبة لسواه .

ـ بل يكفي ان نقول له ان الفتاة آثرت طارقاً عليك.. أتأذن لنا ان نسأل فتاتك سؤالاً ؟

ـ اطلب اليك ان تذكر لي هذا السؤال قبل ان تراها .

ـ اريد ان اصف لها أمير البصرة ثم انقل اليه جوابها كما هو .

ـ اذن فأنت تشك فيما قلته لك .. ادعُ مولاتك يا سنان .

فأقبلت اليتيمة وعيناها السوداوان تبعثان السحر . فاستوقف جمالها ذينك الأميرين وجعلا يتبادلان النظرات ، ثم قال الحارث :

نحن من البصرة وقد قدمنا لحاجة لنا في هذا المنزل .

فقالت وهي تلتفت الى ابيها : مرحباً بأهل البصرة .. ان أبي لم يكن قط من عمال أمير المؤمنين ليقضي الحاجات .

ـ ولكن هذه الحاجة لا تعني سواه .

ـ اذن فاسأله قضاءها .

ـ لقد فعلت ولكنه لم يشأ الا ان يكون لك فيه رأي .

قالت : ما هي حاجة الأميرين يا مولاي ؟

ـ ستسمعينها الساعة فقولي لهما ما تريدين ان تقوليه فقد اذنت لك .

فقال الحارث : ارسلنا الى ابيك عبدالله بن عامر عامل الخليفة .

فاضطربت كأنها عرفت ما هي الغاية من المجيء، ثم قال : الا تمر بهذا المنزل وفود من اهل البصرة كل عام ؟

ـ تمرّ بنا وفود من كل بلد وكل جنس .

قال : لقد وصفت له الوفودِ التي ذكرت ، هذا الجمـال الفتان الذي يخلب الالباب فبعث بنا نسأل اباكِ ان يجود به عليه .

قالت : يظهر ان اهل البصرة يبالغون في الوصف .

ـ بل كانوا أعجز عن ان يصفوا عينيك الساحرتين .

ـ وهل يطيب لابن عامر، وهو الأمير العظيم، ان يتزوج فتاة أبوها فارسي، ولا نسب له ؟.

ـ لو لم يكن يريد ذلك لما طلب الينا ونحن من رجاله ، ان نخطب له .

قالت : أأذكر لهما كل شيء يا ابي ؟

ـ اجل فهما لم يصدقا ما قلت .

ـ اذن فليعلم الأميران اني اخترت الفتى الذي سيكون زوجاً لي .

ـ من هو ؟

ـ طارق بن عبدالله بن قيس .

وكان شهريار يبتسم ، فقال الحارث : ليس بين امراء العرب مثل ابن عامر ، انه فتى كريم المحتد حسن الوجه ، وشجاع ترهب الابطال لقاءه في الميادين .

ـ ولكن الأمر قد انتهى الآن كما رأيت .

ـ بل هوالآن في أوله وليس لكإلا أن تؤثري واحداًمن الأميرين علىالآخر.

قالت : أنؤثر طارقاً بالامس ثم نقول له اليوم : اذهب فقد نسيناك واخترنا امير البصرة ؟ !

ـ وماذا يحدث اذا فعلت ذلك ؟

فابتسمت قائلة : يهزأ بي آل الاحنف ويخسر ابي هذا المقام الذي يحفظه له عامل المروين . !

ـ ولكن المقام الذي يعده له عبد الله بن عامر في البصرة ، اعظم منه .

ـ ان ابي لا يترك شاطيء المرغاب .

ـ نضمن لك انه يتركه اذا رضيت بالخطبة .

فارادت ان تعبث به فقالت: نسيت ان اقول لك ان هنالك سراً لايستطيع

ابي ان ينساه .

– وبأي شيء يقضي هذا السر ؟

– يقضي عليه بألا يزوج ابنته قبل عامها الخامس عشر .

قال : ان ابن عامر في مقتبل عمره وهو يستطيع أن يصبر .

– اما انا فأرى من العار ان انسى الان ما وعدت به منذ أيام .

قال : لقد خطر لي الان خاطر آخر.

– وانا أرجو ان ينقذك هذا الخاطر مما انت فيه ، ما هو ؟

– هو ان نذهب نحن الاثنين الى مرو الروذ ، ونسأل الاحنف بن قيس باسم ابن عامر ، ان يصرف ابن اخيه عما يهم به !

فقال شهريار : خير لك ان تبقى على هذا الشاطيء او تعـــود الى البصرة فالاحنف بن قيس لا يغضب طارقاً .

– كما انه لا يريد ان يغضب عبدالله بن عامر ، وهو عامل عثمان وابن خاله واقرب الناس اليه .

قال : اذا رضي الاحنف فطارق لا يرضى ولا اظن ان هذين العاملين يعمدان الى الحرب من أجل فتاة .

– اذن سأقول للامير ان الفتاة مخطوبة لفتى تحبه وستزف اليه .

قال : لا تذكر الزواج فالزواج لا يتم اليوم ، وقد يخلق الله بعد عام مـا لا نعلم .

– وهل يكون الزواج بعد عام ام انت تهزأ بنا بهذا القول ؟

– ان اليتيمة لا تزف اليوم الى رجل ولو كان امير المؤمنين نفسه .

– قل ان اليتيمة تحجبها الاسرار من كل ناحية وهذا ابلغ ما تقول .

– اجل تحجبها الاسرار كما قلت والعالم كله لا يستطيع ان يمحو هذه الاسرار او يغير منها حرفاً .

فسكت الرجلان لحظة ثم جعل القوم جميعهم يتحدثون بأمر الحرب ويذكرون يزدجرد وطرخان الخصي ساكت لا يقول كلمة .

وكان رسولا امير البصرة يرسلان النظرات ، من حين الى آخر ، الى وجه اليتيمة الساحر ، ويعذران طارقاً

وكان الحارث بن يزيد يقول في نفسه : لو رآها ابن عامر لسعر نار الحرب من اجلها ، بينه وبين جميع الامراء .

وانصرفت الفتاة بعد ساعة وهي تقول لسنان : يريدون ان اترك طارقاً وهم لا يعلمون ان هذا الحب الذي تتأجج ناره في ضلوعي لا يزول حتى يزول العمر . ومر ذلك اليوم ثم انقضى الهزيع الاخير من الليل واليتيمة تفكر في ذلك الحبيب الذي يحاولون ان يسلبوها اياه . وشهريار لا ينظر بعين الرضى الى هذه الرسالة التي يحملها الرجلان .

* * *

- ٢٤ -

اقبل شهريار واليتيمة الى مرو الروذ ، في مساء يوم صفت سماؤه ، وقد غربت شمس ذلك اليوم ، وكانا يريدان ان يريا طارقاً قبل ان يريا الاحنف . فلما وقعت العين على العين ، تساقطت الدموع من عيون العاشقين ، وعقد الفرح لسانيهما فكانا يتكلمان بالنظرات وكانت ام عامر في دهليز المنزل ، فلما سمعت طارقاً يرحب بالضيفين ، وثبت الى الباب ، ثم فتحت ذراعيها وهي تقول :

ابنة شهريار ؟ ؟ . انك ابنتي وانا ام عامر ! فارتمت اليتيمة بين تينك الذراعين وغمرت البهجة نفسها عندما أحست انها بين ذراعي امها بالرضاع . وجعلت ام عامر تنادي زوجها عبدالله ، فأقبل ، ثم لم يلبث حتى ضم الفتاة الى صدره وجعل يقول :

طفلة حلوان . طفلة حلوان . ويردد كلمته كأنه لا يصدق ان تلك اليتيمة الصغيرة التي دفعها الى زوجته في حلوان ، أمست فتاة تفتن العقول. وعلى ان

الريب دبّ في صدره ، فقد خيل اليه في تلك اللحظة ، ان هذه الساحرة التي لا تحمل ملامح شهريار ، ليست ابنة له ودخل الجميع المنزل وهم يحيطون اليتيمة بنطاق من العيون .

ثم جاء الاحنف ، فرأى ما رآه اخوه عبدالله ، وقام في ذهنه ان شهريار لم يكن صادقاً في قوله ان اليتيمة ابنته . واقبل يحادث الفتاة ويسألها عما يطيب له ، وهو يسمع غير اللسان الفصيح والجواب الصريح .

وقد رأى القوم صورة الغرام ، على وجه طارق وفي عينيه .

ثم خطر للاحنف خاطر فقال لأخيه : امنع الغلمان من الدخول ، ثم قال : خبرنا طارق يا بنية انك تحبينه وانك حلفت له انك ستكونين له لا لسواه . .

فصبغ الخجل خديها وتمتمت قائلة : صدق طارق .

– وكيف نشأ هذا الحب ؟

– كما ينشأ كل حب في كل قلب .

قال : انصرف طارق الى المرغاب زائراً فعاد وهو عاشق . !

قالت : لم يكن هنالك شيء جديد فيما جرى له .

قال : أتحبينه لمقامه ام لجماله

– لا اعلم الا اني حبه ، وهذا ما اعترف به الان وليس في ذلك عار .

– اخشى ان تكون منزلته من عمه عامل المروين ، هي التي أوحت اليك بهذا الغرام الذي تعترفين به .

قالت : لو كان طارق ابن اخيك صعلوكاً من صعاليك العرب ، لما خطر لي ان اهب هذا القلب لسواه .

– ارى ان انصح لك يا بنية بما افكر فيه .

– بماذا ؟

– بان تتركي طارقاً فقد يموت عمه وابوه في الحرب غداً فيخسر الامـــارة ويضيع المقام الذي هو له !

– لا خير في طارق اذ هو لم يخلف الاحنف في القيادة .

قال : ليست الامارة في العرب ارثاً ينتقل من الاب الى الابناء .

ـ وما هي اذن ؟

ـ كلمة ينطق بها امير المؤمنين فهو وحده يؤمر من يشاء ويحرم من يشاء .

ـ حسب الفتى ان يكون جندياً من جنود امير المؤمنين ، ثم قالت : ألم تكن سيد قومك قبل ان تخوض الميادين؟

ـ بلى !

ـ وسيكون طارق سيد قومه ، بعد عمه وابيه !

ـ واذا ضيّع كل شيء ؟

ـ يكفي انه لا يضيع هذا الحب .

فرأى الامير ان الحب يتكلم ، وانه لا يستطيع ان يغير حرفاً واحداً مما كتبه العاشقان ، فعمد الى ناحية اخرى فقال : لقد انتهينا الان من امر الحب وبقي الزواج .

ـ اما الزواج فليس لي ان ابدي رأياً فيه .

ـ ولكنه لا يتم اليوم ، ولا يستطيع ابوك ان ينظر في امره الا في العام المقبل !..

ـ ان لأبي سراً انا اجهله ، فاذا قدرت على انتزاع هذا السر من صدره فأنت الاحنف بن قيس !

حاولت ان افعل فلم افلح ولم اسمع غير جواب واحد لا يتغير كأن سر أبيك قطعة من روحه !

ـ وانت تريد ان تعرف سرّه اليوم .

ـ بل أريد ان نزفك الى طارق وليقض ابوك العمر كله محتفظاً بالأسرار .. وخفض صوته قائلاً : انه يهزأ بنا وبهذا الحب الذي تصفينه لي .

ـ وما هي غايته من ذلك ؟

ـ ان يجد لك زوجاً غير طارق وقد يكون طامعاً بمصاهرة امير عربي أعظم شأناً منه !

– لو كانت هذه غايته لفعلها منذ ايام .
– وهل خاطبه احد الامراء بهذا الشأن ؟
– نعم يا مولاي وليس لك الا ان تسأله .
فقال : أهنالك عاشق آخر يا شهريار ؟
– أجل ، وقد عشقت اذناه ولم ترَ عيناه .
– ومن هو ؟
– امير البصرة عبدالله بن عامر .
فخفق قلب طارق ، واستوى في مجلسه ، وقد حبس انفاسه ، ليسمع كل كلمة يقولها شهريار عن امير البصرة ، فقال الاحنف : قص علينا حكاية الامير .

قال : أقبل الى المرغاب منذ ايام ، رجلان من رجال البصرة يريدان ان يخطبا له .
– وتعرفها ؟
– لا أعرف من اهل البصرة غير الرجال الذين يمرون بالمرغاب ، في الرواح والمجيء ، وليس الرجلان من هؤلاء .
– ولكنك عرفت اسميها .
– نعم ، فاكبرهما يدعى الحارث بن يزيد والآخر خالد بن عبدالله .
– وماذا فعلت انت ؟
– قلت لهما ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة لطارق بن عبدالله بن قيس .
وخبّره شهريار كل شيء .

فاطرق الأحنف يفكر في الأمر ثم قال : ليس من الرأي ان يغضب عبدالله ابن عامر فهو ابن خال امير المؤمنين . فتصدى له طارق قائلا : وهل ترى يا عم ان يحطم ابن اخيك قلبه بيديه وينزل لأمير البصرة عن الفتاة التي احب ؟

– بل أرى ان نعالج الامر بالحسنى بيننا وبينه ونبعث اليه برجل يصف له ما لا يعلم من امر غرامك !
– وما شأن الاحنف بن قيس بهذا ؟

– شأنه ان عاشق الفتاة هو ابن اخيه، وابن اخيه لا يخالفه في امر ولا يخرج عن طاعته !!

وهل يلوم امير البصرة ، امير المروين ، اذا كان ابن اخيه من العشاق ؟

– اجل يلومه اذا هو لم يقل كلمته في امر يتعلق بفتى من اهل بيته .

– ان هذه الكلمة تقولها اليتيمة يا مولاي .

– لليتيمة ان تختـار واحداً من الاثنين وعلى الاحنف ان يمد اصبعه ليمنع الجفاء من ان يبسط ظله فوق الامراء .

– واذا اصر ابن عامر على طلبه ولج فيه ؟

– استعين عليه بأمير المؤمنين قبل ان يلجأ هو اليه .

– خير لك ان يكون هو البادىء بسؤالك .

قال : أتخاف ان يسلبك اليتيمة ؟

– نعم فقد يعمد رجـاله الى اختطافهـا في ظلام الليل ، فتشتعل النار بين صفوف العرب الذين يحاربون الفرس .

– ان الامراء لا يعمدون الى ما تقول الا اذا برّح بهم الحب، وابن عامر لم يرَ اليتيمة ولم يفتنه الجمال ، وانما هو أرادها لنفسه ، اذا وصفت له ، ودون ان يعلم ان هنالك عاشقاً يقال له طارق بن عبدالله عاهدته على الوفاء .

قال : تجاهل الأمر الآن يا مولاي فقد يرسل اليك عبدالله غداً من يسألك عن ابن اخيك وعن غرامه .

قال : نسأل سعيد بن عمرو رأيه فهو ابن عم امير البصرة .

– أما أنا فأرى ان نكتم سعيداً ما سمعته الساعة خوفاً من ان تردد الأفواه حكاية غرامي وُيجرّ وراءها الذيول .

قال : رأيك يا عبدالله .

قال : أليست القضية قضية حب لا يعقبه اليوم زواج ؟

– بـــلى .

ـ وهل تعلم انت او سواك ما يحدث لنا بعد عام ؟

ـ لا !..

ـ اذن نصبر حتى يمر العام فقد ينسى امير البصرة اليتيمة ويتزوج فتاة من قومه او يلح في الطلب فننظر عندئذ في الأمر .

قال : لقد رأيت ما يراه طارق .

ـ نعم واعتقد ان في هذا الرأي الخير لنا ولشهريار .

فقال طارق : بقيت لي حاجة اخرى ارجو ان يقضيها شهريار .

فعرف الرجل ما هي حاجته فقال: ستسألني ان اتناسى قسمي وازف اليتيمة اليك في هذه الساعة او بعد ايام ..

ـ اجل فافعل هذا واسأل ما تشاء .

ـ ولكني غير قادر كما علمت .

قال : أفلا تخاف ان ينتهي الأمر بيننا وبين عبدالله الى الحرب ؟

قال : حفظت سري اربعة عشر عاماً فلا اريد ان اضيعه في لحظة .. ان اليتيمة لا تتزوج في هذا العام وانا حي .

فقال عبدالله : كفى يا طارقُ فالرجل لا ينكث عهده .

وقام الاحنف عندئذ يريد الانصراف الى قاعة الجلوس ، فلحق به عبدالله وشهريار وكان هذا يقول له: سأقص على الأمير حكاية جديدة يضطرب لها قلبه.

ـ أحكاية غرام هي ؟

ـ لا، انها حكاية تتعلق بيزدجرد الملك .

فنظر اليه قائلا : يطيب لي ان اسمع الحكايات عن الرجل . اذهب الى قاعة الجلوس وسألحق بك ، فمشى شهريار ، وأقبل الاحنف يقول لأخيه : صف لي ما رأيت يا عبدالله .

ـ رأيت ان طارقاً اسير غرامه ، وانه لن يترك الفتاة التي حبها ولو أمره بتركها امير المؤمنين .

ـ واليتيمة ؟

ـ اما اليتيمة فلا تقع العين على فتاة افصح منها لساناً واحسن وجهاً .

ـ وانا قد رأيت ما رأيته انت ، ولكن ماذا نصنع ؟

ـ تبعث بي وبطارق في الشهر المقبل ، الى ناحية بعيدة عن المرغـــاب ، لنمكث بها شهرين، ثم تأمرنا بالرجوع لتبعث بنا الى ناحية اخرى وهكذا تفعل حتى ينقضي العام فينسى العاشق حسناءه ويعدل عن الزواج .

قال : لو بعثنا به الى السماء لما نسي شيئاً . ان الزواج لا بد منه وسيتحدث اشراف العرب قائلين : هذه زوجة ابن عبدالله لا شرف لها ولا نسب وقد كان ابوها من صعاليك فارس الذين يعيشون في الأسواق !!

ثم قال: اني لم اصدق حكاية شهريار ولم يخطر لي قط انه كان من رجال البلاط في المدائن ومن المقربين الى يزدجرد .

ـ ولكن من هي هذه اليتيمة ؟. انها ليست ابنته ، ولو بعثت امها من القبر وقالت لي هذه ابنة شهريار لما صدقت .

ـ والرأي ؟

ـ خير الآراء ان نتظاهر بالرضى حتى تأتي ساعة الاعتراف بالسر ، فـاذا رأينا ان هنالك عاراً منعنا طارقاً مما يهمّ به .

ـ والا ؟.

ـ والا زوجناه فليس في العرب كلها فتاة تشبه الفتاة التي أحب .

فسكت الأمير وكان سكوته دليلا على رضاه، ثم مشى الاثنان يريدان قاعة الجلوس ، ليسمعا ما يقصه شهريار عن يزدجرد ، وقد عوّلا على الصبر كما قـال عبدالله . وكان شهريار واقفاً بباب القاعة وهو ينتظر الاثنين .

* * *

ماذا سمعت عن يزدجرد ؟

ـ سمعت انه يقيم ببلد لا يبعد كثيراً عن البلد الذي تقيم به انت .

ـ بنيسابور ؟

ـ بل بكرمان .

فظهر الريب في عيني الاحنف وجعل يقول : لم نـترك في كرمان بيتاً الا دخلناه فلم نجد الملك .

ـ وكذلك فعلت أنا من قبل يا مولاي فلم أرَ له في كرمان وجهاً ولم أقف على أثر واحد من آثاره .

ـ وكيف تقول الآن انه فيها ؟

ـ خبّرني بذلك احد رجاله !

فصاح قائلا : يمر بك رجال يزدجرد ويقصون عليك الأخبار وانت ساكت ثم تقول انك عربي وتبذل حياتك في سبيل العرب ؟

ـ وماذا اصنع يا مولاي ؟

ـ ما يصنعه كل رجل تلقي الاقدار عدوه بين يديه .

ـ تريد ان تقول انه كان يجب ان أقبض على الرجل الذي نقل اليّ خبر مولاه

ـ نعم وهذا ما يطلب منك اذا كنت عربياً كما تقول .

ـ ولكني لم اكن بحاجة الى القبض عليه .

ـ لماذا ؟

ـ لانه ضيفي ، وهو يقيم بمنزلي على الشاطيء .

قال : لقد عدنا الى الأسرار فلا حول ولا قوة الا بالله ..

ـ ليس في الامر سر يا مولاي ، ان الرجل في مـــنزلي لا يـتركه الا اذا طردته منه !!

ـ وتزعم انه من رجال الملك ؟

ـ بل اثبت لك انه ابعد رجاله نفوذا وأقربهم اليه .. اتعرف من هو ؟ انه رئيس الخصيان في البلاط وفي كرمان ..

ـ ومن يصدق ان رئيس الخصيان يترك مولاه ليقيم على شاطىء المرغاب ؟

ـ اما انا فقد صدقت وستصدق انت عندما تراه . !

ـ وكنت تعرفه من قبل ؟

ـ كان الصديق الوفي لشهريار الخراساني .

ـ وهل يحمل المال الى امراء الاقاليم يشترون به الرجال ليحاربوا العرب ؟؟

ـ ليس معه درهم واحد يشتري به رغيفاً يملأ به جوفه .

ـ اذن ارسله الملك في مهمة لا تحتاج الى الذهب .

ـ قل انه طرده من خدمته في ساعة جنون !

فبرقت عيناه قائلاً : وانت واثق بهذا ؟

ـ نعم يا مولاي فالرجل لا يكذب وقد خبرت حياته في المدائن وايقنت بانه من اصدق الناس !!

قال : يطيب لي ان اراه لاسأله عما يخطر لي ، فخاف شهريار أن يقابل الاحنف طرخان ، فيبوح له بأمر جهان روز ، فيفسد عليه أمره فقال : اذا اردت ذلك بعثت به اليك بعد رجوعي.. ولكني عرفت كل شيء فليس لك الا ان تسألني عما تشاء .

ـ في أي مكان من كرمان ينزل يزدجرد ؟

ـ عند الجانب الذي هدمته العرب من السور .

ـ وكيف يعيش مع عبيده ونسائه ؟

فقصّ عليه شهريار ما يعلم ثم قال : لقد قلّ مال الملك وسيشعر بالحاجة .

ـ ومن اين لهذا الخصي أن يعلم ذلك ؟

ـ لقد كان مال الملك بين يديه وقد بذل منه للأمراء الشيء الكثير حتى خاف الملك اخيراً ان ينفد هذا المال فتكرهه الحاجة على الاستسلام وهذا ما لا يريده.

ـ وطرد الرجل من اجل ذلك ؟

ـ اجل من اجل ذلك ولم يعطه مولاه درهماً واحداً يأمن معه شر الجوع، لا علمت .

ـ وفي اي شيء فكرت الآن ؟

ـ في امر واحد لم افكر في سواه منذ اربعة عشر عاماً .

ـ ما هو ؟

ـ هو ان ارى الملك في منزله وابوح بسري الذي كتمته جميع الناس !

فقهقه قائلاً : ما رأيت رجلاً ينظر الى نفسه كما تنظر اليها انت .. تريد ان ترى الملك لتبوح له بسرك .. وبعد ذلك ؟

ـ تفعل بعد ذلك ما يطيب لك .

ـ اما انا فقد رأيت غير هذا وقد اتت الساعة التي اقبض فيها على يزدجرد الذي خسرت العرب من اجله الالوف من الرجال .

ـ واين تقبض عليه يا مولاي ؟

ـ في كرمان ، في المنزل الذي وصفته لي .

ـ أليس من الرأي ان تقبض عليه في المنزل الذي اقيم به ؟

ـ الذي تقيم به انت ؟! ـ نعم !

ـ على شاطىء المرغاب ؟ ـ نعم !

فالتفت الى اخيه وقال : لقد جنّ صاحبك يا عبدالله ..

قال : لو عرفت كل شيء يا مولاي لايقنت باني من العقلاء !

قال : أيجيء الملك الى المرغاب ، وهو الطريد الخائف الذي يعيش مستخفياً بين الجدر ويخشى ان تراه العيون ؟!

ـ نعم يجيء ولو كان سيف الجلاد يلمع امام عينيه .

ـ اذن تقوده بقوة السحر !!

ـ بما يشبه السحر يا مولاي .

ثم خاف ان يظن الامير الظنون ، فقال : هب انك انت يزدجرد يا مولاي، افلا تجيء عندما يقال لك ان خمسين الفاً من الرجال ينتظرونك على الشاطىء ليمشوا تحت لوائك الى مرو الشاهجان فينضم اليك خمسون الفاً من اهلها تسترجع بقوتهم العرش ؟؟

قال : أهذه هي الحكاية التي تفكر في ان تقصها عليه ؟

ـ هذه هي .

قال : لو كنت انا يزدجرد لهزأت بك ، وأمرت من حولي من الرجال بان يضربوا عنقك !

ـ ولمَ ذلك ؟

ـ لان الرواية التي تنقلها اليّ رواية مجنون .

ـ وهل يقوم في ذهنك ايها الامير ان الرجل من الحكماء ؟ انه لو كان كذلك لما انتهى امر هذ ك الواسع الى ما انتهى اليه .

ـ ولكنه لا يصدق على كل حال ما تقوله له .

ـ انا اضمن هذا .

ـ ان الاحنف ابن قيس لا يثق الا بهـذا السيف ... اتعرف ماذا نصنع ؟ نرسل الجنود فتحيط كرمان في ظلام الليل بنطاق من الحراب، ثم يدخل بعض الرجال بيوت البلد باحثين عن الملك .

ـ اذا فعلت هذا عمد القوم الى اخفائه في قبر من قبورهم !

فقال عبدالله : اصاب شهريار .

ـ اذن نعمد الى امر آخر هو ان نسير الجنود الى الضواحي ويدخل شهريار مع رجل من رجالنا ، حتى اذا رأى ان الملك موجود بعث الى الجيش يـدعوه الى الدخول للقبض عليه .

قال : عندما يرى اهل البلد الجيش العربي حول كرمان، يفعلون في الداخل ما يريدون ان يفعلوه .

ـ يخيّل الي انك لا تريد ان تقبض العرب على ملكك .

ـ اما ملكي فعثمان بن عفان خليفة المسلمين، واما اني لا اريد ان تقبضوا على الملك ، فليس فيكم رجل أشدّ رغبة مني في القضاء عليه .

ثم قال : ان لي رأيين فاختر احدهما، اما ان اسير وحدي الى كرمان فاحمل يزدجرد بالدهاء والحيلة ، على المجيء الى المرغاب ، واما ان تبعث معي بمن يحمل اليك اخباره فتفعل عندئذٍ ما تراه .

قال : نسلم بالرأي الأخير فمتى تذهب ؟

– عندما تأذن لي ولكن اجعل رفيقي رجلاً اعرفه .

– ليس في مرو الروذ رجل احب اليك من هذا الرفيق الذي اخترناه .

– من هو ؟

– طارق ، وانما نريد ان نرسله في المهات ليختبر الحياة .

قال : رضيت وسأعد عدة الرحيل .

قال : تمكث ثلاثة ايام ثم تنصرف .

– خير لي ان اسير غداً خوفاً من ان يضيع الزمان .

- انك شديد الشوق الى الملك يا شهريار .

– بل اكاد أذوب شوقاً يا مولاي .

– وكيف تعود اليتيمة معك غداً وهي لم ترَ مرو الروذ وام عامر لا تأذن لها في الرجوع قبل بضعة ايام ؟

– ان اليتيمة تبقى هنا ولا ترجع الى ذلك الشاطىء الا عندما اعود من كرمان .

قال : اراك خائفاً .

– نعم فانا لم أنس امير البصرة .

– وهل تظن انه يرسل رجاله ليحملوا فتاتك اليه ؟

– من يعلم ، فقد يعد جواب اليتيمة اهانة له فيعمد الى ذلك .

– ولكنك كثير الاسفار وستبقى الفتاة وحدها كلما تركت الشاطىء .

قال : نصبر شهرين ، فاذا لم نرَ في خلالها ظلاً لابن عامر ، فمعنى ذلك انه قد نسي اليتيمة وعدل عن الزواج .

قال: اذا كان الاحنف بن قيس لا يغضب امير البصرة فأمير البصرة لا يغضب

الاحنف بن قيس . انه لا يجسر على ان يمد يده الى شيء امتدت اليه يدنا من قبل ضع فتاتك حيثما تشاء ولا تخف .

قال : لست خائفاً وانا في ظلك . اني سأفعل بعد رجوعي مـا تأمرني به ، والاتكال على الله .

قال : خبرنا الآن بما يخطر لك ان تصنعه في كرمان .

قال : اذا رأيت يزدجرد فيها ارسلت طارقـاً اليك ليقود الجنود ، وان لم أره رجعت وانا اتعثر بالفشل والخيبة .

ــ هو ذاك ، فانصرف الآن ولا تخرج من مرو الروذ الا بعد ثلاثة ايام .

فلم يتردد شهريار في الخروج من القاعة، وكان الليل قد مضى نصفه ، وطارق واليتيمة يتحدثان في منزل عبدالله .

* * *

- ٢٦ -

يشأ شهريار ان يعكر على الحبيبين صفو ذلك الليل .

فلما طلع الصباح.جلس بالقرب من ابنته ثم دعا طارقاً وقال له:تهيأ للرحيل الى كرمان بعد ثلاثة ايام .

فارتجفت شفتا الفتى وهو يقول : الى كرمان ؟ واي حادث جرى فيها ؟

ــ اعظم حادث تهتم له العرب !

قال : الثورة ؟!

ــ أعظم من الثورة. ان في كرمان اليوم ذلك الرجل الذي يخلق الثورات.

ــ يزدجرد؟

ــ اجل يزدجرد ، فهو في منزل من منازلهـــا والعرب تبحث عنه وتبث عليه العيون .

ــ ومن خبر عمي بذلك ؟

ــ انا فقد نقل اليّ احدهم خبر وجوده .

قال : ولم يجد الاحنف في مرو الروذ من يبعث به الى كرمان غير طـارق ابن اخيـه ؟

– هذا ما قاله لي وسيأمرك بالمسير عندما يراك .

– كنت اظن انك ستقيم عندنا شهراً .

– لو استطعت ان اقيم العمر كله لما ترددت في ذلك . ان اليتيمة ستبقى عند ام عامر ريثما نعود .

فاطرق قليلاً ثم قال : اذن لم يبق لي حيلة في البقاء. وهل نذهب نحن الاثنين ام يرافقنا رجل آخر

– لم يشأ الأمير أن نكون ثلاثة ، ان اثنين يكفيـان للبحث عن الملك وانا اعرف المنزل الذي لجأ اليه .

فقالت اليتيمة : أيريد الامير يا أبي ان يقتل الرجل ؟
– يقبض عليه اولاً ثم ينظر في أمره .
قالت : اسمع ان الملوك لا يقتلونهم الا في الميادين .
– ولكن هذا الملك يستحق الموت كما يموت المجرمون .
– لماذا ؟
– لأنه يسعر نار الحرب في بلاده ، كلما أخمدها المسلمون .

قالت : يفتحون بلاده ، ويخلعونه عن عرشه، ثم يريدون ان يستسلم خاضعاً كأنه عبد ؟! انه اذا فعل كان نذلاً لا يصلح للعرش !

قال : لقد فتح الأكاسرة بلاد العرب قبل يزدجرد، واستبدوا بأمرها زماناً طويلاً كان العربي فيه أذل من عبد ..

– ولم تدافع العرب عن أنفسها ؟
– بلى !
– اذن فيزدجرد غير مخطىء في دفـاعه وعلى امـير المروين ان يرفق به اذا اظفره الله بالقبض عليه .

قال : انه لم يرحم عربياً قط ولم يرفق بأحد .
قالت : اراك توغر عليه الصدور كأنه من اعدائك .

– افعل ذلك لأني أعلم انه سفاح قاس لا يبالي بالدماء البريئة التي تهرق حوله والارواح التي تزهق من أجله .

– يكفيه اليوم انـــه ملك منكود الحظ ينتقل من موضع الى آخر هاربــاً من السيف .

– لو كنت تعلمين من هو الرجل لما ترددت في الحكم عليه بالموت .
قالت : ليت الاقدار تمهد لي سبيل التعرف به !
فقال مازحاً : أتريدين ذلك ؟
- اجل !
– وماذا تقولين له اذا مثلت بين يديه ؟
– اعزيه في محنته ، وادعوه الى الصبر على ما يراه من جور الزمان !!
فابتسم طارق قائلاً : ولكنك مسلمة وهو عدو الاسلام !
– ومع ذلك فانا لا استطيـع ان انظر اليه نظري الى عدو !
– وكيف يكون ذلك وانت لا تعرفينه ؟

– احس ان هذا القلب الذي يخفق في صدري ، يخفق على الاشفاق عليه !!

فحوّل شهريار وجهه وقد اصفر جبينه ثم قال : لا اريد يا بنيــة ان تشفقي على الذئب . ان يزدجرد لا يستحق الرحمة كما قلت ، وان هـــذه العاطفة التي تذكرينها ، عاطفة فتاة ضعيفة لا تطيق ان يتحدث الناس امامها بالموت وسفك الدمــاء ...

– بل هي عاطفة اخرى لا علم ما هي .

فقال في نفسه : الويــل لك يا شهريار فقد استيقظت في صدر الفتاة عاطفة الحب البنوي وهذه آثارها ..

وقد استطاع ان يخفي ذعره ، وراء مظاهر الابتسام .

ثم رأى ان يتحدث بأمر آخر فقال لطارق : أتعرف البصرة ؟

– كنت صغيراً يوم كنت فيها .

– وعبدالله بن عامر ؟

– اسمع عنه الشيء الكثير ولكني لم أره .

– ألم تكن مع عمك يوم غزا عبدالله خراسان مع سعيد بن العاص ؟

– كنت مع أبي في ناحية بعيدة عنه .

– يقولون انه فتى حسن الشمائل وشديد البأس .

– بل يقولون انه سيد الميادين .. وسيقولون بعد حين ان له عزيمة خالد بن الوليد واخلاق عمر بن الخطاب !

قال : ذلك غلو لا يصدقه الناس .

– ولكن يكفي ان عبدالله ابن خال عثمان، والناس في هذا الزمان يتسابقون الى حرق البخور ، ويخطبون بالاقوال الكاذبة ودّ امير المؤمنين ، الذي يعزل الامراء لرواية يسمعها او كلمة يقولونها له ، ويؤمّر الانسباء. ثم قال : ولّى عثمان عبدالله امر البصرة وهو في الخامسة والعشرين، أفلم يجد عثمان ، بين أبطال بني تميم وبني أسد وشيبان وسواهم ، اولئك الرجال الذين اخضعوا هذا الشرق ، رجلاً يصلح للأمارة غير ابن عامر ؟

– يكفي انه ابن خاله كما قلت .

– وفي أي شيء استحق الوليد بن عقبة العزل عن ولاية الكوفة ؟ أكلما قال أحدهم لأمير المؤمنين هذا رجل يشرب الخمر ينزل عقوبته بذلك الرجل دون ان يتردد في الامر ودون ان ينظر في هذه الاكاذيب التي يقولونها له .

قال : أصحيح ان سعيد بن العاص جلد الوليد في المدينة ، في مجلس عثمان على مرأى ومسمع من القوم .

– نعم ، امره عثمان بان يجلده ففعل ، وهذه عداوة تستمر الى الابد بين اهل الرجلين .

– وأين هو الوليد اليوم ؟

– يقولون انه في المدينة لا يترك بيته الا الى المسجد ، ولو استطاع المرء ان يرى ما في داخله ، لرأى نفساً ثائرة ، ولكنها ساكتة على غل وحقد .. وذلك هو شأن الكرامات التي يجرحونها بدون ذنب .

قال : كنت اسمع في كل بلد أمرٌ به اصواتاً ترتفع ضد عثمان .

– وانا اخشى ان تتحول هذه الاصوات بعد قليل الى فتنة تمد رواقها فوق الحجاز والعراق .

فقالت اليتيمة : أراكما تتحدثان بامور تتعلق بامير المؤمنين وحده وقد نسيتما هذا المسكين يزدجرد .

فأجابها طارق قائلاً : انها امور تتعلق بكل عربي يحترم قومه .

– ولكن ارجو أن يصف لي أبي ذلك الرجل الذي يذهب بعد ثلاثة ايام ليقبض عليه ..!

فارتجفت يدا شهريار وقال : أتعودين الى التحدث بامر هذا السفاح الخائن الذي تغوص الامة من اجله في بحر من الدماء ؟

– بل أعود الى ذكر الملك المخلوع المحكوم عليه بالموت .

قال : يحكم بالموت كل يوم ، على الالوف من الرجال .

– اما انا فلا أعلم ذلك ، وقد لا يكون بينهم رجل يخفق له القلب .

قال : لست خبيراً باحاديث القلوب يا بنية .. فاسألي طارقاً .

فقال طارق : لو كانت اليتيمة تعرف يزدجرد لقلت انها تحبه ..

قالت : يخيّل اليَّ ان هذه العاطفة التي تخفق في الصدر ، نوع من الحب !!

– لم يبق اذن الا ان نسأل الاحنف ان يخرج يزدجرد من كرمان كما تخرج الملوك ويعيده الى العرش .

– بل نسأله ان يعفو عنه ويجعله حراً يروح ويجيء في بلاده دون ان يكون السيف وراءه .

– وهذه الحرب التي تندلع ألسنتها في كل قطر ؟

– عندما يعفو القائد العربي عن الرجل تخمد النار .

– وتخمد عندما يقبض عليه .

فخاف الخراساني ان تمعن ابنته في ذلك الشعور الفجائي ، فتحول بينه وبين ذلك الانتقام الذي يفكر فيه فقال : اقص عليك الآن يا بنية حكاية فارسية يرددها اهل فارس .

– ومغزى هذه الحكاية ؟

– مغزاها ان الفرس لا يعرفون الرحمة التي تحسين بها الآن .

قالت : انك تظلم بحكايتك شعباً كاملاً انت منه .

– بل أظلم من هذا الشعب من يستحق ذلك .

فقال طارق : هات ، فانا يطيب لي ان اسمع الحكايات .

قال: كان للفرس ملك جبار خفق لواء ملكه في فضاء هذا الشرق، وخضعت لسلطانه جميع الاقطار كما خضعت من قبل لآبائه .

– ذلك هو كسرى .

– لا أعلم من هو ، ولكني أعلم ان الاقدار وهبت له جميع النعم التي يطمع فيها كل ملك كثرت مطامعه وبعدت همته، وكان بلاطه يغص بالجواري الحسان، وطوائف الغلمان والخصيان ، واشراف فارس من النساء والفتيان .

– يكفي ان يقال انه بلاط الاكاسرة ..

– اجل يكفي هذا فقد ضربت الامثال بهذا البلاط .

– وبعد ذلك ؟

– وكانت في ارض تجاور أرضه ، حرب ، فأراد ان يضم تلك الارض الى بلاده فبعث بقواده ليخضعوها بالسيف .

– انها حرب بينه وبين الروم .

– قد يكون ذلك ولكن قواده خسروا المعركة، وقتل احدهم في الساحة، وهو من اشراف الدولة ومن اصحاب الجاه في قومه ، ولذلك القائد زوجة تقيم بالمدائن وفتاة تقيم مع نساء الشرف ببلاط الملك .

وكان للفتاة ابن عم يحبها وتحبه، وقد اوصاه أبوها وهو يلفظ روحه في الميدان بان يجعلها زوجة له ويكون نصيراً لأمها في المحن ، وعوناً لها على الحياة، أتعرف يا طارق ماذا حدث بعد ذلك ؟

– وماذا حدث ؟

– ماتت الزوجة على الأثر ، وعندما مثل ابن عم الفتاة بين يدي الملك يسأله ان يزف اليه ابنة عمه ، طرده من بلاطه كما يطرد الكلب ، وبعث به الى ساحة الحرب ليقتل فيها كما قتل عمه ، ثم عمد الى القوة فأكره الفتاة على ان تكون حظية له !!

ونظر شهريار عندئذ الى ابنته فرأى وجهها يصفر .. فقال : على ان الامر لم يقف عند هذا الحد، فان الحظية المنكودة الحظ ، استسلمت الى لوعتها، وقضت أيامها في البلاط تندب صباها وتبكي غرامها وراء الجدران لاتجسر على البكاء امام الملك الظالم الذي عبث بعرض قائده ، وامتهن كرامته وهو ميت .

– وذلك العاشق الذي ارسل الى ساحة الحرب ؟؟

فتردد قليلاً ثم قال : يظن الناس انه قتل فيها لانهم لم يعرفوا بعد ذلك ماذا جرى له ..

– وكيف انتهى امر الفتاة ؟

– برّح بها الهم والبكاء ، فهوت تصارع الموت في البلاط ، دون ان يكون عند فراشها جارية تسقيها قطرة ماء .

فقالت اليتيمة : وجواري القصر ؟

– ابتعدن عنها جميعهن بامر الملك كما تبعد العرب نوقها عن الناقة الجرباء .

– ولماذا فعل ذلك ؟

– لانه لم يكن يطيق ان ينظر الى النعجة الهادئة التي ذبحها بيده !!

– وماتت ؟

– ماتت وهي لا ترى احداً ، كما يموت بـــين صخور الوادي ، الظبي الذي يغوص في صدره سهم الصياد .

– ولم يعرف الناس لها ذنباً ؟

– بلى ، ذنبها انها كانت تبكي حظها بين الجدران وهذه خطيئة لا يغفرهـا الملك الفارسي !!

– ولكني اظن انه ندم على عمله .

– نعم كان ندمه انه لم ينظر الى الجثة .. ولم يبنِ لها قبراً.. ولم يذرف عليها دمعة فما هي الرحمة التي يستحقها هذا الملك يا بنية .

فتردد البكاء في صدر الفتاة ، وأحست ان عاطفتها تسير وراء تلك الضحية البريئة التي عبث بها الملك وانتهى بها عبثه الى الموت ، فقالت : انــــه يستحق اللعنة !

– وتعرفين من هو ؟

– اعرف انه ملك من ملوك فارس .

– بل هو يزدجرد الذي تطلبين العفو عنه !!

وجعل يحدق اليها ليرى بعينيه ذلك التأثير الذي يحدثه قوله .

فاغمضت عينيها ثم مدت يديها الى الامام وهي تتمتم قائلة : لا .. لا اريد ان ترفق العرب بيزدجرد انه لا يستحق الرفق ..

وتريدين ان يموت ؟

- ليفعل الاحنف به ما يشاء فانا لا احبه ..

فنهض وهو يخاطب نفسه قائلاً : يكفي الآن. فقد ايقظت في صدرها عاطفة اخرى ابلغ بها الغاية . وبينا هو يهم بالانصراف ، أقبل الاحنف فقال لطارق : أقصَّ عليك شهريار ما يعرفه عن مقر الملك ؟

– نعم يا مولاي .

– وترغب في المسير الى كرمان ؟

– ارغب في قضاء كل حاجة يأمرني عمي الاحنف بقضائها .

– اذن تهيأ للذهاب ، واليتيمة ستبقى في منزلك ريثما تعود ..

وابتسم .. ثم خرج ليجلس للناس ، فقال طارق : كدت اقـــول له اني لا ارغب في الذهاب .

فقالت : الوطن قبل الحب فانظر الآن في امر وطنك ودع امر هواك ... واقبلت بعد خروج ابيها ، تحدث حبيبها بشأن ذلك السر ، الذي ينغص عليها العيش ، وجعل الاثنان يتعللان بالآمال ..

* * *

لم يفارق طارق حبيبته ، في الايام الثلاثة التي عرفت . كان يذهب الى قاعة الجلوس فيمكث بها ساعة ثم يعود ، وليس له حديث غير حديث الغرام . فلما دنت ساعة الرحيل ، حمل سيفه وخرج من المنزل لا ينظر الى الوراء ، كأنه لا يطيق ان ينظر الى اليتيمة نظرة التودع، أو لعله كان يخشى ان تهي عزيمته وتخور قواه ، عندما يرى الدموع في تينك العينين الساحرتين .

ومشى أمام شهريار وهو يتظاهر برباطة الجأش، والقوة على الاحتمال . وكان الاحنف قد قال له: اذا عرفتما ان يزدجرد في كرمان، فلا تنزل عن ظهر فرسك الا في مرو الروذ .

وكانت كرمان بلداً كبيراً فيه القصور والساحات والاسواق ، يحيط به سور ضخم هدمت العرب جانباً منه ، عند الفتح . فلما انتهيا اليه ، وكانا بلباس اهل فارس ، تظاهرا بانهما لا يعرفان اين يقضيان الليل . وكانا مكرهين على ان يلجأا الى الاكواخ التي تجاور السور ، والى تلك الاكواخ تلجأ طوائف الغرباء والفقراء وشهريار يعرف أسواق البلد وأحياءه ، كما يعرف المنازل التي تجاور منزله على شاطىء المرغاب ، فمشى دون ان يتردد الى ذلك الجانب من السور ، وانما اختار رجال يزدجرد ذلك الجانب ليبعدوا الظنون عن الملك . ولم يكن ذلك الليل مظلماً ، بل كانت السماء صافية ، والقمر يبسط نوره فوق المدينة الهادئة وقد قامت الى جانب المنزل، الذي وصفه طرخان بن نيزك اكواخ صغيرة يأوي اليها كل ليلة فريق من المتشردين، فدنا شهريار من المنزل وبدأ قلبه يضطرب في صدره.

ولا يحسّ الناظر الى منزل الملك ، الا بالوحشة تنشر ظلها فوقه، والسكينة تغمر نوافذه وسطوحه من الخارج كما تغمره من الداخل، كأنه منزل مهجور ليس عليه مظهر واحد من مظاهر الحياة ، فوضع شهريار وطارق أشياءهما بالقرب منه، عند كوخ فيه رجلان، احدهما شيخ جاوز السبعين، والآخر فتى في مقتبل العمر . وعلى الاثنين الثياب البالية ، وكل ما حولهما يدل على فقر، فقال شهريار للشيخ : أتأذن لنا في النزول عند كوخك ؟

قال : انزل حيث تشاء فالارض ليست لنا .

- ولمن هي ؟

- كانت لملك الفرس فأمست للعرب .

قال : مسكين يزدجرد فقد ضيّع ملكه .

- لقد ضاع هذا الملك منذ مات انوشروان.. ان التاج الذي تمتد اليه الايدي وتكثر الطلاب حوله ليس بالتاج الذي يثبت على الرؤوس .

- ومن نازع يزدجرد تاجه ؟

- القواد والزعماء الذين جعلهم في بلاطه.. أجل انهم لم يطمعوا بالجلوس على العرش ، ولكنهم قذفوا بملكهم الى ساحات الحرب فابتلعته الهـوة وابتلعت عرشه .

قال : وهل فتحت العرب المدائن كما يقولون ؟

فضحك قائلاً : هكذا يقولون ..

- وأين هو ملكنا اليوم ؟

- إنه في الحجاز .. ضيف على سيد العرب عثمان بن عفان !! أتسألني عن ملكك وليس له موضع يلجأ اليه ، وليس في فارس كلها رجل يرضى بان يجعله بين ضيوفه ؟! وأين هو الملك ؟ انه في بطن وادٍ أو على قمة جبل، أو في مركب من مراكب الروم ..

- كان عليه ان يلجأ الى هذا البلد فالعرب بعيدة عنه .

قال : لقد جعلت العرب عيونها في كرمان فاذا وضع يزدجرد قدمه فيها فكأنه وضعها في لهوة ..

فهامسه قائلاً : يخيل اليّ انك لست من الفرس .

- وما الذي يدعوك الى هذا الظن ؟

- يدعوني اليه هذا التردد الذي أراه .

قال : لم أتردد في الجواب عن كل سؤال وجهته اليّ ، قلت اني لا أعرف اين هو الملك وانا صادق فيما قلت .

قال : متى قدمت كرمان ؟

– منذ شهر .
– وأين كنت قبل الشهر ؟
– في طبرستان .
– ومنذ شهر وانت تقيم مع ولدك بهذا الكوخ ؟
– نعم ، على اننا لا نلجأ اليه الا عندما يجن الليل .
قال : انك تقيم بالقرب من المنزل الذي يقيم به ملكك وانت لا تعلم ..!
فتراجع قائلاً له أنا ؟!
– نعم أنت ، وانك لتحاول الآن ان تكتمني ما تعلم خوفاً من ان افضح سر الملك أليس كذلك ؟
– دلني اولاً على هذا المنزل الذي ذكرت .
فأومأ الى البيت المهجور وهو يقول : هذا هو ...
فأرسل الرجل نظرة اليه وقد بدت على وجهه مظاهر الاستغراب ثم قال : كفى فأنت تهزأ بي ..!
– بل أقول ما اعلم واقسم لك .
– ولكن المنزل مهجور كما ترى ، ولم تقع العين منذ شهر في اروقته وحجراته ، على أثر واحد من آثار الحياة ...
فخطر له خاطر فقال : لقد جعلتنا الاقدار نحن الاثنين من صعاليك القوم فليس لنا ان نهتم لأمر يهتم له نبلاء فارس واشرافها ، ولكن لي كلمة أقولها لك فقد وثقت بك كما أثق بنفسي وآمنت بأنك من أهل الاخلاص والوفاء .
– قل ما تشاء .
– أمخلص انت ليزدجرد أم ماذا ؟
– لا اعرف يزدجرد ولم أرَ في حياتي ملكاً ولكني أعلم ان يزدجرد عاجز عن الدفاع عن ملكه ، فعلى أهل فارس ان يساعدوا هذا العاجز في كل أمر يسألهم إياه ويبذلوا له المال ليسترجع العرش ...
– اذن انت من المخلصين وهذا ما اريده .

– وهذه هي كلمتك ؟

– لا ، ان هنالك امراً آخر ابوح لك به وراء كوخك !

فخرج الاثنان ، ثم خفض شهريار صوته وجعل يقول : ابشر فان يزدجرد الذي تحبه وتريد ان تساعده سيرجع إلى عرشه .

– وهل يستطيع ان يفعل ذلك والعرب في بلاده ؟

– يطرد العرب بقوة السيف ثم يرسل خيله الى الحجاز فيضمه الى ملكه .

قال : لم يبق حول يزدجرد رجال يخوضون المجال .

– وهل تظن اني اقص عليك حكاية من حكايات أهل الريّ ..؟ ان الرجال اليوم وراء الجدران وليس على الملك الا ان يأمرهم بالزحف الى عدوه !!

– في اي بلد هم ؟

– اتحلف لي انك لا تبوح لأحد بما اقوله الآن ؟

– اجل ، واعاهدك على خدمة الملك بما تشاء .

انهم في مرو الشاهجان وفي القرى التي تحيط بذلك السهل .

– ومن يقودهم ؟

– ستعرف كل شيء بعد حين .

– وعامل مرو فارسي ؟

– نعم ، وهو يتظاهر بالاخلاص للعرب ويبذل المال للجيش الثائر ، من وراء الستار .

قال : يظهر انك رسوله الى الملك ..

– أصبت فاخفض صوتك فقد يحمل الهواء هذه الكلمة الى الاذان ..

– ومن قال لك ان الملك في كرمان ؟

– قواد الجيش جميعهم وقد وصفوا لي هذا المنزل .

قال : لقد اخطأ القواد فيما وصفوا فليس لهذا المنزل أهل .

قال : اعلم ان اوامر الملك تخرج منه .

– اذا كان الملك في كرمان فهي تخرج من منزل آخر .

قال : لا اصدق فالقواد لا يكذبون .

– وأنا لا أصدق ان في المنزل بشرياً واحداً أتريد ان تدخله الليلة ؟

فخفق قلبه قائلاً : ونستطيع ذلك ؟

– أجل ففي السور الغربي باب مفتوح في النهار والليل وهذا يدلّ على ان المنزل لا أهل له .

فأطرق الخراساني يفكر فيما سمع وقد استولى عليه الذهول ، أيعبث بـه رئيس الخصيان ، في وصفه بيت الملك وهو الذي فتح له أبواب منزله وأذن له في البقاء فيه الى الابد ؟ وهل أراد طرخان ، من تلك الرواية التي رواهـا له ، ان يبعده عن المرغاب ، لغاية من غاياته ؟

وما هي هذه الغاية ؟ انها غاية رهيبة لم يجسر شهريار على ان يفكر فيها في تلك الساعة . قتل الله طرخان، لقد خدعني بما رواه لي.. انه يعلم سري ويعرف ان اليتيمة ابنة الملك، ولعله يريد ان يحملها الى أبيها وأنا بعيد .. ولكن اليتيمة في مرو الروذ ، وطرخان أعجز عن أن يمد يده الى عرين الاسد .

ذلك ما كان يفكر فيه ، وهو أمام المنزل المهجور الذي أيقن من قبل بأنه منزل الملك ..

ثم قال : أيطيب لك ان تذكر لي اسمك ؟

– أمهرز .

قال : هيا بنا الى المنزل .

– والفتيان ؟

– يبقيان في الكوخ حتى نعود .

فقام الرجل فقال لولده : ابقَ مع هذا الفتى فسنعود بعد ساعة .

ثم مشى الاثنان حتى انتهيا الى الباب الغربي وكان مفتوحاً كما قـال أمهرز ، فدخلا الى الفناء ومنه الى رواق داخلي يحجبه جدار من الخشب وقد بدت آثار الوحشة بكل معناها ، في ذلك الرواق .

فجعل شهريار ينظر الى الارض ثم يرفع نظره الى الجدران ثم يدنو من الدهليز القائم في آخر الرواق حتى خيل الى امهرز انـه نصف مجنون ... ولكن هذا

المجنون لم يلبث حتى رفع رأسه قائلاً: أكاد استنشق رائحة العود الذي كان يحرق في بلاط الملك !!

– أتريد ان تقول ان الملك في المنزل ؟

– هذه رائحة العود التي كنت استنشقها في بلاطه ..

فابتسم قائلاً: كنت منذ لحظة صعلوكاً من صعاليك فارس فأمسيت الآن من رجال البلاط !!

– اعترف لك باني من القواد وقد قطعت يدي في حرب القادسية ..

فذعر الرجل قائلاً : من القواد وتلبس لباس الفقراء ؟

– وماذا اصنع وانا اريد ان ارى الملك .. اني اهب للرجل الذي يدلني على منزل يزدجرد قبضة من الذهب ..

فوثق الرجل بان محدثه من النبلاء فقال : سأبذل جهدي كله لأدلك عليه .

– وانا أعدك بان اعطيك قبضتين ... لقد أمسيت الآن واثقاً بان يزدجرد كان مقيماً بهذا البيت ... ان رائحة العود لا تكذب وكأني أرى غلمان يزدجرد يروحون ويجيئون في هذا الرواق والعود يحترق في وعائه ..

وخرج الى الفناء يتبين منه منفذاً يستطيع ان يدخل منه الى الحجرات فلم يجد ، فقال : اودّ لو كان لي جناحان ..

قال : لو كان لك أربعة أجنحة لما قدرت على بلوغ الغاية ، ان المنزل يشبه الحصون فيكفي ان تتبين في هذه الدهاليز آثار يزدجرد فقد تجد فيها ما يثبت ظنونك .

وكان شهريار يفكر اذ ذاك في أمر آخر .. لقد احسن ظنه في تلك الساعة بطرخان وقام في ذهنه ان الملك خرج من هذا المنزل بعد خروج رئيس خصيانه منه ، خوفاً من ان يدل العرب عليه . وطابت نفسه لهذه الفكرة فجعل يقول: لم يبق الا ان نعود الى الكوخ فقد ثبت لي ان يزدجرد ترك هذا البيت لأمر لا نعرفه وقد يكون مقيماً بالقرب منه . اخرج فسننظر في الأمر عند الصباح .. وانثنى الى الباب وأمهرز وراءه حتى أتيا الكوخ فقال شهريار: أفي كوخك فراش؟

– اما فراشي وفراش ولدي فهذا الرداء البالي الذي تراه ..

– ونحن نجعل رداءنا فراشاً .. ادنُ يا بني .

فدنا طارق واضطجع الاثنان في زاوية من زوايا ذلك الكوخ وهما يتهامسان .

ولم يلبث أمهرز وولده حتى استسلما الى الكرى .

***

- ٢٨ -

لقد غادر يزدجرد هذا المنزل الى منزل آخر .

– في كرمان أم في سواها ؟

– لا أعلم الآن ولكني أظن انه لا يجسر على ترك كرمان في مثل هذا الزمان .

– وكيف استطعت الدخول الى منزله ؟

– دلني هذا الرجل على باب في سوره الغربي فدخلت ، ولكني لم أر الملك بل رأيت بعض آثاره .

– والآن ؟

– اما الآن فقد رأيت ان تعود أنت غداً الى مرو الروذ .

– وأنت ؟

– أما أنا فسأبقى وقل لعمك الاحنف اني سأرجع الى مرو بعد أن أرى يزدجرد بعيني الاثنتين ..

فقال طارق: أؤثر العودة على البقاء كما تعلم، ولكني أخشى أن يظن الاحنف ان غرامي أملى عليّ التعجل في الرجوع .

– سأكتب اليه ذاكراً له ما لقيت .

– اي انك ستقول له انك لم ترَ يزدجرد ، وهذا لا يكفي .

– بل اقول له اني قد اغيب شهراً فخير لطارق ان يكون في خلال هذا الشهر بالقرب منك ..

– وماذا تصنع أنت بعد رجوعي ؟

– اطوف في كرمان باحثاً عن الملك فان لم اجده فيها انتقلت الى سواها من مدن هذا الاقليم .

– وهذا الرجل ؟

– سيكون هذا الرجل عوناً لي في كل ما أريد .

– وهل يحب ملكه ؟

– أجل يحبه وهو لا يعرفه ويرغب في ان يبذل دمه من أجله ..

قال : قد يعلم غداً انك من الاعداء .

– لقد أمسى واثقاً باني من قواد الملك القدماء واني احاول اليوم ان استرجع له العرش ..

– وهو ينام الليلة على هذا الامل .

– بل ينام على امل ان اعطيه يوم يدلني على يزدجرد قبضتين من المال .

– ومتى تبدأ بطوافك ؟

– غداً بعد ان ترحل انت .

قال : لنفرض انك وجدت الملك في احـــد المنازل فكيف تنقل الى امير المروين خبر وجوده ؟

– اطير عندئذٍ الى مرو أو اعمــد الى امر آخر استطيـع معه الوصول الى غرضي ..

قال : اخشى أن يفسد عليك الأمر ، هذا الرجل الذي وثقت به ..

– لا تخف ، فقد علمتني الحادثات ان انجو من جميـع المحن التي تعرض لي ..

– وماذا أقول لليتيمة ؟

– لا تقل لها شيئاً فهي ستبقى عند أم عامر ريثما أرجع .... ولكني أخاف أمراً . . .

– ماذا ؟

– ان يعود عبدالله بن عامر امير البصرة الى ارسال رجاله يحملون الينا مرة ثانية رغبته في الخطبة ... فاضطرب قائلاً : اذا قدم الرجال الذين ذكرت فهم لا يرون اليتيمة في المرغاب ولا يرون اباها .

– ولكنهم يسألون عنها ثم يرحلون الى مرو .
– ومن يحدثون بامر الخطبة وأنت بعيد ؟
– يحدثون الاميرين الاحنف وعبدالله .
- ولكن اليتيمة لا تخضع للاميرين وليس لهما ان يتكلما باسم ابيها .
قال : سيطلب القوم ، باسم عامر، أن يتخلى طارق بن عبدالله عن الفتاة ..
قال : والله لئن فعلها امير البصرة لأقتلن رجاله .
- احذر ان تفعل فنحن اليوم بحاجة الى السلام في الداخل كما تعلم وليس من الرأي ان تنشب الحرب بين امراء المسلمين .
– إذن اعدهم بان اتخلى عن اليتيمة وينتهي الامر .
– بل يردهم الاحنف بالحسنى ويكتب الى عبدالله قائلاً : ان شهريار والد الفتاة ترك مرو الى بلد آخر ولا يلبث حتى يعود ..
– وبعد ذلك ؟

وحوّل وجهه عنه وغاص في لجة التفكير ، فأغمض طارق عينيه ،.ولكنه لم ينم ، بل كان يرى ، في ذلك الظلام صورة اليتيمة تملأ فضاء ذلك الكوخ ..

* * *

- ٢٩ -

لم ينسَ الروم فشلهم وخيبتهم في افريقيا ، بل كانوا يذكرون في مجالسهم ، ذلك النصر الذي أصابه المسلمون ، .ويتهيأون لحرب جديدة يسعرون نارها في البحر ، ليمحوا عارهم ، ويسترجعوا بعض ما خسروه ، من الأرض والشرف والمال . وعند الروم قواد ألفوا الأسفار واخضعوا البحــــار . وكان القيصر ، قسطنطين بن هرقل يقول لقومه : لم يبقَ الا ان نجعل الماء ، ميداناً للقتال تبذل فيه الأرواح ..

وقــد بلغ عبدالله بن سعد امير مصر خبر القوم ، فأعدّ عدّته وامر المسلمين والقبط بان يستعدوا للنزال . وذلك في مطلع السنة الحادية والثلاثين .

ومشت رسل المسلمين تحمل اخبار هـــذه الغزوة الى جميع العمال في مصر والشام ..

وفي النفوس ثورة كما قرأت من قبل وحقد يحمله بعض الصدور على عثمان وحكومة عثمان وأنسبائه وعماله . هذا يقول : غيّر عثمان عهده وخالف فيما يصنعه ، الخليفتين ابا بكر وعمر ،

وهذا يقول : دم عثمان حلال !!

وكان محمد بن ابي حذيفة ، ومحمد بن ابي بكر ، يحملان لواء هذه المعارضة في مصر ، ويوغران الصدور . وكانا يقولان : استعمل عبدالله بن سعد رجلاً كان رسول الله اباح دمه ونزل القرآن بكفره ..! وأخرج رسول الله قوماً وأدخلهم عثمان ، ونزع اصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبدالله بن عامر ،

حتى امتلأت مصر من هذه الأخبار، وتحدثت بها العامة والخاصة من الناس،

فرأى عبدالله بن سعد ان الرجلين يفسدان أهل تلك الغزاة ، ويعيبان عثمان أشد العيب ، فدعاهما اليه قائلاً : والله لولا اني لا أدري ما يوافق امير المؤمنين لعاقبتكما بالحبس . فقال محمد بن حذيفة : والله مالك الى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه ..

قال : كفّ خير لك والله لا تركب معنا ولا يركب هذا .. وأشار الى محمد ابن ابي بكر .

فقال : نركب مع المسلمين .

وكان الروم في جمع لم يجتمع لهم مثله قـط منذ كان الاسلام ، كانت سفنهم خمسمائة تغصّ برجال الحرب ، وتلمع فيها السيوف والحراب .

ويقال لهذه الغزوة غزوة الصواري . فلما التقى الفريقان على سطح المـاء ، رأى المسلمون مراكب لم يروا مثلها من قبل وخيل اليهم ان هذه المراكب تملأ البحر كله . وكانت الريح على المسلمين ، فأرسوا ساعة ، وأرسى الروم بالقرب منهم حتى سكت الريح . فقال قائل من المسلمين : الأمن بيننا وبينكم .

فقالت الروم : ذلك لكم ولنا .

قال : ان احببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وان شئتم فالبحر فهو القبر الواسع الذي يتسع لجثث القتلى .

قالوا البحر ، البحر .

فدنت العرب، فربطت السفن بعضها الى البعض الآخر وارتفعت الاصوات، ثم وثبت الرجال على الرجال يتضاربون بالسيوف على السفن ويغمدون الخناجر في القلوب حتى رجعت الدماء الى الشاطىء وحملت الامواج اليه جثث الرجال فجعلتها عليه ركاماً وأشلاء . وكان الناظر الى الساحل ، حيث تضرب الريح الموج ، يرى رمالاً حمراء ، استلقت فوقها اجساد الابطال ، من الأمتين . وبين رجال عبدالله بن سعد ، رجلان يقاتلان أشد قتال ويقذفان بالرجال الى اللجة ، هما محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر . وعبدالله يأمر المسلمين بالصبر على ما يرون ويدعوهم الى الاحتمال ، حتى جرح القيصر في يديه ورجليه ، فخفق لواء النصر فوق رؤوس المسلمين ، وفرّت الروم فراراً هو شر من الموت . ولم ينجُ منهم الا الشريد الطويل العمر ، كما يقولون . وقد رأى أمير مصر ، أن يقيم أياماً بذات الصواري، بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعاً وبعث باخبار الظفر الى عثمان . ومحمد بن ابي حذيفة يعيب الخليفة ولا يكفّ عن قوله، والمعارضون ، في مصر والشام ، والكوفة والبصرة ، وفي الحجاز نفسه ، يرددون ذلك القول ، ويعيبون بدورهم أمير المؤمنين .

* * *

- ٣٠ -

رجع الحارث بن يزيد ، وخالد بن عبدالله ، من المرغاب حتى انتهيا الى البصرة ، وكان اميرها عبدالله بن عامر ، متحيراً في موقفه من ناحية الحرب . لقد فتح القليل من ارض فارس والقوم لا يرضون الا ان يفتح الكثير من تلك الارض . كانوا يقولون له : ضع السيف في كل موضع من بلاد الاكاسرة فالفرس لا يكفون عن الاذى كلما اتسع لهم المجال وهو يرى الصواب فيما يقولون ولكنه

يتردد في الخروج ولم يكن خائفاً ، بل كان يكره أن يخرج بدون اذن عثمان ، وعثمان لم يأمره بذلك وقد يغضب عليه اذا فعل وفي البصرة قوم من بني تميم لا يطيب لهم العيش الا في الميادين . وبنو تميم قوم الاحنف بن قيس ، وبين رجالهم في البصرة ، أوس بن حبيب فدخل على ابن عامر فقال له : اصلح الله الأمير ان الارض بين يديك ولم تفتتح منها الا القليل فسر فان الله ناصرك على عدوك ..

قال : الرأي في ذلك رأي أمير المؤمنين .

قال : لقد امرك بالفتح عندما ولاك فلك ان تفعل من هذه الناحية ما يطيب لك .

– ما كنا لنأتي الآن امراً لا رأي له فيه .

– ابعث اليه من يشاوره فالعدو منك هارب وهو لك هائب والبلاد واسعة .

قال: لا يطيب لنا الا ان نبعث بواحد من الاثنين، اما خالد بن عبدالله واما الحارث بن يزيد .

– اجعل الاثنين رسوليك .

– لقد بعثناهما في مهمة لنا ولم يرجعا .

– الى اين ؟

– الى منزل على شاطىء نهر المرغاب ، بين المروين ..

– سمعت الناس امس يذكرون شيئاً من هذا وفي الأمر خطبة ..

فابتسم قائلاً : الأمر كما تقول .

– ومن هي الفتاة ؟

– ابنة رجل من خراسان امسى مسلماً وهو يدعى شهريار .

قال : يظهر ان لها جمالاً تحدّث به الناس ..

– لقد وصفت الوفود هذا الجمال قائلة انه السحر ..

– ومتى يعود الرجلان ؟

اظن انهما يعودان في هذين اليومين .

واقبل في تلك اللحظة غلام يقول : هذا الحارث وخالد بالباب .

فاشرق جبينه وقال : عليَّ بهما .

فلما دخلا قال : متى قدمتما ؟
– في هذه الساعة .
– لقد ذكرنا كما الآن لأوس ، أخطبتما لنا ؟
فقال خالد : ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة ايها الأمير .
فاكفهر وجهه قائلاً : لمن ؟
– لفتى من بني تميم هو ابن اخي الاحنف بن قيس .
– واسمه ؟
– طارق بن عبدالله ..
فقال لأوس : أتعرفه يا ابن حبيب ؟
– وأي رجل من بني تميم لا يعرف طارقاً ؟؟ انـــه فتى الحروب وفتى المكرمات .
قال : تعرف يا أوس ان تصف قومك.. وانت يا خالد كيف تقول ان الفتاة تكاد تكون مخطوبة ؟؟
– هذا ما قاله لنا شهريار وابنته وانا انقل اليك ما قالاه ..
– أي ان طارقاً لم يخطب الفتاة بعد ؟
– لا ، ولكنه سيخطبها والفتاة لا تريد ان تختار زوجاً سواه ، ثم قال :
ومع ذلك فهي لا تزف اليه في هذا العام ..
– وكيف ذلك ؟
– يصبر أبوها حتى تجاوز الفتاة عامهـا الخامس عشر ، ولهذا الصبر سرٌّ لم يبح لنا به ..
– ولم تفكرا وانتما على ذلك الشاطىء في أمر آخر ؟
– بلى، فكرنا في المسير الى مرو لنشاور الاحنف في الأمر ونسأله ان يخاطب طارقاً ابن أخيه .
– ولماذا لم تفعلا
– لان شهريار كان يقول : اذا رضي الاحنف فطارق لا يرضى وهنالك مانع آخر نذكره لك بعد حين .

– بل تذكره الساعة . ما هو ؟
– هو انه اذا رضي شهريار ورضي بنو تميم جميعهم فالفتاة لا ترضى .
– اقالت لكما ذلك ؟
– كانت الشفتان ترددان همساً هذه الالفاظ فلا نسمعها .
قال : تكاد يا ابن عبدالله تقرأ ما في قلوب العشاق . اخرج يا أوس .
فخرج .
فقال للحارث : وانت يا ابن يزيد ، أليس لك ما تقوله ؟
– اقول ما قاله خالد ولا ازيد كلمة .
– وأي رأي لك في مشاورة الاحنف ؟
– خير لك الاّ تفعل ايها الامير فالاحنف صلب العود لا يغضب قومه في أمرٍ مثل هذا وانت تعرف اي رجل هو .
فاطرق ملياً ثم قال : وهل رأيتما الفتاة كما وصفت لنا ؟
– لا يستطيع افصح الناس لساناً ان يصف ذلك الجمال .
قال : يخيل الينا ان بينها وبين الفتى عهداً .
– هذا ما ظهر لنا وانا واثق بأن امير المؤمنين نفسه لا يستطيع ان يكرهها على ما لا تحب .
فنهض قائلاً نترك امر الخطبة الان على ان تنظر فيه في وقت آخر . ان القوم يطلبون الحرب .
– الفرس ؟
– بل العرب فهم يسألوننا ان نضع السيف في كل سهل وكل جبل حتى يخضع اهل فارس خضوعاً لا رياء فيه .
– وستفعل ايها الامير ؟
– لا ننقل الى الحرب قدماً الا اذا اذن لنا امير المؤمنين . تهيأ يا خالد للسفر الى الحجاز .
قال : ان ناقتي في الفناء فانا ارحل الساعة اذا شئت .
قال : نشاور قومنا الليلة ثم نكتب ما نريد ان نكتبه عند الصباح .

وجعل يردد قـــائلاً : لقد سبقنا طارق بن عبدالله الى الفتاة التي تحدثت بجمالها العرب ولولا شرف الامارة وحرمة بني تميم لبلغنا غايتنا بقوة السيف . نعم ، يجب ان يكون امير البصرة ارفع من ان يسعر النار مـن اجل فتاة . ان الاحنف من عظماء الناس وله مقامه عند امير المؤمنين فليس من الرأي ان نعرض له . ثم قال : لقد نسينا هذه الفتاة . اجل نسيناها فخير المسلمين أثمن من وجـه حسناء . وكان عبدالله في ذلك من اعقل الناس ثم أمر الغلمان بأن يـدعوا وجوه البصرة ، فأتوه ، وجعلوا يتحدثون بأمر الحرب ، ويذكرون المواضع التي ستغير عليها الخيل ، حتى جنّ الليل ، ووضعوا منهاجهم وقد عولّ ابن عـامر على ان يكتب الى عثمان ويبعث برسوله عند الفجر . وقبل انـ يتفرق القوم ، هامس اوس بن حبيب قائلاً له : لقد نسينا الفتاة التي ذكرت لك فليهنأ بها طارق بن عبدالله ؛ فأجابه اوس قائلاً : اما انا فقد قام في ذهني منذ سمعت خبر طارق ، انك أعقل من ان تذكر الفتاة بعد الان .

***

- ٣١ -

استطاع سنجان ، عامل مرو الشاهجان السابق ، ان يخرج من مرو في ظلام الليل ، هارباً من ظلم عمه ماهويه الذي سلبه كل ما يملكه ، بامر الاحنف بـــن قيس ، كما قرأت في الجزء الاخير . خرج وحده لا رفيق له ، وأوصى أهل بيته بان يلجأوا الى شيخ من شيوخ اسرته وفر المال بين يديه ، ولم يذكر لاحد اسم البلد الذي فكر في المسير اليه .

كان يقول لاهله : لا اعلم الآن الى اين امضي ، فاذا عدت الى مرو فلكي انزع ماهويه عن كرسيه ، والا فابكوني حتى اعود ، وحاولت زوجته ان تثنيه عما يهم به ، فلم تستطع لأنـ ارادته كانت من الحديد . وخروج سنجان من مرو فرار ، فقد كان مكرهاً بحكم الأمر الذي صدر له من الاحنف ، على ان يقيم بمرو الشاهجان ستة اشهر ، وستة اشهر مثلها بمرو الروذ ، لا يخرج منها الا بأمر الاحنف

نفسه. واذا هو عمد الى غير ذلك يكون جزاؤه الموت، على انه لم يبالِ كما رأيت بل انصرف هادئاً يحمل ثورة نفسه، وفي صدره ذلك الحقد الذي لا يموت. وكان يعلم ان يزدجرد في كرمان، وخير الاراء في نظره، ان يذهب اليها ويمثل بين يديه، لينظر معه في امر ماهويه الخائن وامر استرجاع مرو وغيرها من اقليم خراسان، من ايدي المسلمين. ومعظم وجوه خراسان يعرفون هذا الرجل الثائر الذي نحاه عامل المروين عن الولاية واحاطه بنطاق من الرجال. وهو يعرف هؤلاء الوجوه، والنفوذ الذي يتمتعون به، في ذلك الاقليم الرحب الذي يغص بقبائل الناس. وكانت الطريق، بين كرمان ومرو، سهولاً وجبالاً، فيها طوائف القوم من كل جنس، وليس على تلك الطوائف عمال من العرب وانك لترى على جبل هناك، بينه وبين كرمان مراحل ثلاث، حصناً من حصون الفرس، حوله البيوت والأكواخ والخيام، على خط مستطيل يمتد فرسخين، وينتهي عندغاب التفّت اشجاره، تأوي اليه انواع السباع. ويقال لذلك الجبل جبل الزهاد. اما الحصن فقد بناه امير فارسي منذ مئة عام، ثم انتقل بالارث الى بنيه الثلاثة، ثم امسى بعد ذلك ملكاً لقائد فارسي عرفته حروب الفرس والعرب ولم يعرفه القراء، هو خراذمهر، اخو رستم القائد الكبير، واخو ابان زرد والد جهان روز. انتهى ذلك الحصن، الى يد خراذمهر بعد فتح المدائن، وقد جعله مقاماً له، بعيداً عن مواضع المحن والثورات. وكان القائد قد مل الحرب، بعد موت اخويه وبعد ان خسر يزدجرد عرش اجداده، وخرج من بلاطه. وانزوى في حصنه لا يبحث عنه يزدجرد ولا يبحث هو عنه، ولا يدله في تمرد اهل خراسان وعصيانهم. على انه خطر للملك المخلوع ان يستعين بسيفه على العرب الفاتحين، لما بخل عليه بذلك السيف. ولكن يزدجرد لم يفعل، فقد أنسته الحادثات قواده، بل أنسته الرجال المخلصين الذين كانوا يعيشون عبيداً في قصره. ولم يكن سنجان يجهل ذلك، بل كان يعلم ان خَراذمهر من جنود الملك، وان الملك نفسه ضيع الكثيرين من اولئك الجنود. فلما دنا من الحصن، وقف فرسه وبعث يسأل القائد ان يأذن له في المثول بين يديه. وكان واثقاً بان خراذمهر لم ينسَ رفاقه في الميادين، ثم دخل

وعند القائد عبدٌ يفتُّ له المسك؛فهشَّ له ثم جعل يتفرس فيه ويده على جبينه ، وكادت شفتاه تنطقان باسمه .

فقال سنجان : ما ذكرت لك اسمي لأني ايقنت بان القائد يستعين بالوجوه على ذكر الأسماء .. أعرفتني الآن ؟

فتردد قليلاً ثم قال : عرفتك وقد كنت فتىً ايام الفتح ... انت تدعى ... سنجان ؟

– أصبت فأنا هو .

– وكنت عاملاً للعرب على مرو الأولى ..

– أجل .

– ولكن العرب نحّوك عن الولاية وجعلوا عمك ماهويه خلفاً لك أليس كذلك؟

– بلى ، وهذا ما يثبت لي ان الامير يعرف كل شيء . .

فهزّ رأسه قائلاً : نعرف كل شيء اجل ولكننا ساكتون صابرون . واومأ الى العبد فخرج من القاعة ثم قال : أتعرف يا سنجان ان اجدادك كانوا اخلص لملوكنا الأكاسرة ؟

– اعرف ذلك . .

– وان النعمة التي تجرّ ذيولها الى الان ، منحة اولئك الملوك ؟

– نعم .

قال : تعرف هـــذا وتخدم العرب ، الذين فتحوا أرضنا ، وحطموا عرش كسرى وتاجه ؟ ؟ !

فقال في نفسه : اذا كان القول الذي يقوله مظهراً من مظاهر وفائه لملوكه فقد بلغت الغاية . ثم قال له : وهل يلومني الامير على ما فعلت ؟

– وكيف لا ألومك وانت من نبلاء فارس وقد رأى النبلاء عزّهم وعزّ ملوكهم تدوسه الاقدام ؟ .

قال : رضيت بان اكون عاملاً لأصون ما بقي من هذا العزّ الذي ذكرت..

– انها كلمة تقولها للدفاع عن عمك .. يكفي ان هذا الرجل الذي يقال له الاحنف بن قيس كان سيداً لك . .

– أليس العرب اليوم سادة الفرس ؟

– خير لنا ان نؤخذ جميعنا بالسيف من ان نحرق البخور في مجالس العرب ونخضع مستسلمين . . اجل ان العرب سادة البلاد وقد لا نجد القوة التي تعيدهم الى الحجاز ولكن الرأي ان يحفظ الفارسي كرامته ويكون سيد نفسه .

فابتسم قائلاً : اما انا فقد فعلت اكثر مما تقول .

– وماذا فعلت ؟

– تظاهرت بالاخلاص والوفاء للعرب لاخدم ملكي ووطني من وراء الستار.

– ذكر لي اذا شئت شيئاً من عملك.

– اذكر لك امراً واحداً يدلك على وفائي . لقد كنت اراسل الملك !

– وانت عامل مرو ؟

– نعم !

– وترد منه الرسائل عليك ؟

– الرسائل والمال لاشتري به الرجال . .

– ومن اشتريت من هؤلاء ؟

– طوائف كثيرة تحمل السيوف وتبرز الى الساحة عندما يرتفع صوت المنادي قائلاً : الى الحرب .

– وبعد ذلك ؟

– ظهر في مرو فارسي خائن افسد عليّ الامر .

– ايكون هذا الخائن ماهويه ؟

– نه ماهويه اللعين الذي باع شرفه وشرف قومه بمقعد الولاية .

قال : وماذا صنع ؟

– باح للاحنف بما يعلم ودله على مال الملك .

– وهل كان يعرف الاحنف من قبل ؟

– لا ، ولكن قرّبه اليه رجل كان فارسياً وصار عربياً يقال له شهريار وهو من خراسان ؛ فاطرق ثم قال : عرفت فتى في القادسية يحمل هذا الاسم . لقد كان شهريار من رجال اخي ابان زرد ولعله هو نفسه .

– وكان ذا يد واحدة ؟

– بل كانت له يدان ولم اره بعد ايام القادسية غير مرة واحدة في المدائن لم البين فيها يديه .

قال : لقد ثبت لي ان هذا الرجل يؤثر العرب على قومه .

– واين يقيم ؟

– في منزل له على المرغاب . أكان شهريار الذي عرفت فتىً جذاب الملامح اسمر الوجه ؟

– لا أذكر شيئاً من هذا .

– ولكنك تقول انه كان من رجال أخيك .

– كرهت الحياة بعد ان خسر رستم الحرب ، فلم اسأل عن أحد ولم ارَ الا ان انضمّ الى جيش الملك في المدائن ثم خرجت منها بعد الفتح الى هذا المنزل الذي اقيم به .

ونادى غلامه قائلاً : المسك ، فدفع اليه الغلام وعـــاء المسك فجعل يفتّه ويقول : قصّ عليّ ما جرى لك عند الاحنف .

– سألني الاحنف عن المال الذي حملته اليّ رسل الملك وجعل يسمي الاشياء باسمائها كأنه كان موجوداً في مرو الشاهجان .

قال : الذنب في ذلك ذنب اللعين ماهويه .

– وذنب كبير الحجاب في قصر الامارة .

– وكيف ابقى عليك الاحنف وانت تراسل عـــدو العرب وتمهد له سبل الرجوع الى العرش ؟

– فعل ذلك لواحد من أمرين ، اما لانه كان يخاف ان تشتعل نار الثورة ، واما لانه أراد ان يحيطني برجاله ، وانا حر ، ليطلع هؤلاء الرجال على كل شيء.

– اذكر لي قوله .

– امرني بالاقامة ستة اشهر بمرو الروذ ومثلها بمرو الشاهجان وانتهى الامر.

– وكيف خرجت اليوم ؟

– خرجت من مرو الشاهجان هارباً كما يهرب اللص الخائف من الموت .

– ولك من وراء ذلك غاية ؟

– أجل ، غايتي ان اراك ثم اسير الى كرمان لأرى الملك .

– وانت واثق بان الملك لم يترك كرمان ؟

– كانت رسله تجيء اليّ منها ثم وضع الحجاب بيني وبينه ..

قال : اسألك الآن عن غايتك .

– ألم تقل لي منذ لحظة ان النبلاء لا يخدمون الفاتح القاهر ولا يجعلونه سيداً لهم ؟

– قلتها الآن واقولها غداً وبعد غد .

– ولكنك من خدام العرب ايها الأمير !!

قال : الارض ارضي والرجال رجالي ، وليس على هذا الجبل عربي .

– ومع ذلك فأنت خاضع لهم خضوعاً لا رأي ولا ارادة فيه .

– وكيف اخضع لقوم لا اعرفهم ولم يخطر لي قط ان اقابل أميراً منهم !

– تخضع لهم بهذا السكوت الذي استسلمت اليه وانت ترى الملك يستعطف الرجال من كل اقليم وكل ناحية ليذودوا عن ملكه .

قال : لم يسألني الملك ، بعد خروجه من المدائن ، ان اشهر السيف في وجه عدوه كما سأل سواي .

قال : ألم تكن من قواده ؟

– بلى !

– وهل رأيت ان الحرب خمدت نارها بعد فتح المدائن ؟

– لا !

– فكيف تريد اذن ان يطلب الملك اليك ان تدافع عنه ؟

قال : كان الملك يدعو قواده الى كل بلدٍ ينزل فيه ، فيحدثهم بشأن الدفاع والحرب دون ان يخطر له أن يسأل عني او يرسل اليّ رجلاً من رجاله .

قال : لعله لا يعلم انك هنا وكان عليك ان تعرض سيفك كما كنت تفعل قبل ان يخسر تاجه .

– خفت ان يرد السيف الذي يعرض عليه بدون اذنه !!

قال : اسأل الأمير الآن ان يترك ماضيه وينظر الى حاضره .

– وما هو هذا الحاضر الذي تعنيه ؟

– هو ان تزور الملك في كرمان وتعطيه اليوم ما بخلت به عليه بالأمس ..

– وهل يطمع الملك بعد ظفر العرب المستمر بان يسترجع التاج ؟

– ان الملوك لا تستسلم الى اليأس كما تعلم وقد يساعده الحظ في نيل غرضه .

– واين هي الجيوش التي تدافع عنه ؟

– في كل اقليم جيش ينتظر كلمة .

– وهل وضعت بالاتفاق مع الملك خطة القتال ؟

– وضعت هذه الخطة في ذهني قبل ان اجيء اليك .

– صفها لي .

– اذكر لي اولاً عدد الرجال في جبل الزهاد .

– رجال السيف ألف .

قال : نسير الان الى كرمان فنطلع الملك على اخلاص شعبه في الاقاليم ، ثم نحمله على المجيء الى هذا الجبل ليقود الى مرو هؤلاء الرجال .

– وفي مرو ؟؟

– الناس في مرو ينتظرون نظرة من الملك كما قلت ، فاذا رأوه هتفوا له ، وأنزلوا ماهويه عن كرسيه واعتصموا وراء الاسوار حتى تجيء الجنود من النواحي

– وينتهى عندئذ كل شيء ؟

– لا بل يجيء عندئذ دور العرب الذين يعمدون الى الانقضاض على يزدجرد واخضاع البلد الثائر .

قال : لنفترض ان الامر انتهى كما تقول واقبلت صفوف العرب الى مرو أفنستطيع مع الجيش الصغير الذي نقوده ان نمحو هذه الصفوف ونظفر بالقواد الذين استولوا على فارس من النواحي الاربع ووضعوا أيديهم على كل قطر ؟

قال : ان الجيش الصغير يمسي بعد بضعة ايام جيشاً كبيراً يسحق جيش

الأحنف بن قيس ثم يزحف الى مرو الروذ فيستولي عليها، ويمشي بعد ذلك ظافراً الى جميع المدن في خراسان .

قال : لا تنسَ ان الذعر يملأ قلوب اهل فارس فهم لا يجسرون على حمل السيف والطواف في البلاد كما تقول بعد ان خسروا كل شيء.

– وانت لا تنسَ ان هيبة الملك وسلطانه يبعثان الاموات من القبور ...!

– ومن قال لك ان اهل مرو يخونون ماهوية وينضمّون الى يزدجرد ؟

– ذلك امر اعرفه انا ولا احتاج الى من يقوله وقد يبرز الى الساحة ، من اهل مرو واهل الجوار بضعة آلاف .

قال : اذا كنت واثقاً بهذا فقد انتهى الأمر .

– أتسير معي الى كرمان ؟

– نعم !

– وتعرض سيفك على الملك ؟

- نعم !

– وتدفع قومك الى القتال ؟

– ادفعهم ولا ابالي فالشرف قبل كل شيء .

فمدّ اليه يده قائلاً : ستكون اذن ايها الأمير منقذ فارس ..

– بل اكون عبداً من عبيد الملك الذي جار عليه الزمان .

وجعلا يتحدثان بامر الحرب ، ويحلمان بالمنى ، وقد عوّلا على السفر في مساء اليوم الثاني بعد ان تغرب الشمس .

* * *

– ٣٢ –

مرّ على وجود خراذمهر وسنجان في كرمان ، اربعة عشر يوماً استطاعا بعدها العثور على المنزل الذي يقيم به يزدجرد. ولولا الحيلة والدهاء لما عثرا عليه.

وكان شهريار واهرز قد سبقاهما الى هذا الاكتشاف .. ولكنهما لم يريا الملك .

ولم يكن في كرمان رجل يخطر له ان هذا المنزل المتداعي يلجأ اليه أعظم ملوك ذلك الزمان . بلى كانت هنالك فئة وثق الملك باخلاصها وسلم اليها سره ، وهي وحدها تعرف مقر ذلك الضيف العظيم الذي انتزعته يد القدر من سماء العزّ .

وهي وحدها تحرس منزله وتسهر على راحته وتطلعه على كل ما يجري في كرمان وخارج كرمان . ولهذه الفئة رئيس لا يأذن في الدخول الا للرجال الذين يؤمن بانهم اخلص الناس لمولاه . وهو الذي ادخل خراذمهر وسنجان ، في ليلة سوداء .. فلما جثا الاثنان عند قدميه جعل ينظر الى خراذمهر كما ينظر الى اثرٍ بالٍ من اثار مجده !! ثم تمتم قائلاً : خراذمهر .. أخو رستم وسليل القواد الذين رفعوا لواء كسرى في الخافقين ؟ .. فحنى الرجل رأسه حتى لامس الارض وهو يقول : نعم يا مولاي .. عبدك .. وسليل أولئك العبيد الذين نشأوا في ظل أجدادك !

– وانت حيّ وكنا نظن انك ميت ؟!

– اني حي كما يرى الملك ولكن حياتي ليست لي بل هي له ..

– وأين كنت ؟

– في جبل الزهاد يا مولاي .

فارتسمت الكآبة على جبينه وقال : في جبل الزهاد ، ولا تسأل عن ملكك ولا تعرض عليه سيفك وتقول له ان حياتك له .؟ ايه قواد فارس ، لقد نسيتم الاكاسرة ونسيتم حفيدهم المخلوع عن عرشه واللاجىء الى الجبال والاودية فراراً من السيف ..

قال : أما انا فلم انس يا مولاي وان في النفس ألماً اذكره اذا اذنت لي .

– وهل قدمت لتحدثنا بالألم والألم يكتنف الملك في نهوضه وقعوده، ونهاره وليله ؟؟ قل ما تشاء فقد أذنا لك ..

قال : ألم يدعُ الملك ، في الاعوام التي انقضت ، جميع الرجال المخلصين له لينظر معهم في أمر استرجاع الملك ؟

- ان الملك لم يدعُ أحداً ، بل كان هؤلاء الرجال يتبعونه من وراء الستار، في رواحه ومجيئه ، ليصغوا الى ما يأمرهم به ، ويموتوا بعد ذلك في الميادين دفاعاً عنه !!. قالها وهو يعلم انه اخطأ في نسيانه خراذمهر ، ولم يرَ الا ان يعمد الى الاكاذيب ليكون بريئاً في نظر قائده ، ويكره ذلك القائد على الاعتراف بانه هو الذي اساء الى مولاه .

ولم يكن يلتفت ، وهو يحادث خراذمهر ، الى سنجان الساجد عند قدميه بل لم يخطر له ان يسأل عن اسمه !!

ان حفيد كسرى نصف إله فهو لا يبالي بما يرى حوله من مظاهر السجود والخشوع .

فقال القائد : عفواً يا مولاي ، فقد قيل لي ان رسل الملك كانوا يطوفون على القواد في الاقاليم ، ويبذلون لهم المال ليشتروا بهم الرجال .

- لقد كذب من قال ذلك .. ان يزدجرد أرفع من ان يستعطف اميراً من امرائه .. وهذا الملك الذي ندافع عنه لا نريده ولا خير فيه اذا تخلى عنه القواد والامراء.. أجل كنا نبعث المال الى المخلصين لنا ليستعينوا به على امرهم ويبذلوا للجيش بعضه ، ولكن الملك لم يفكر قط في ان يستعطف شعبه ليبلغ غايته ! ثم قال :

إذن جئت أنت لتلوم الملك وتعتبه على قصوره .

فخاف الرجل ان يغضب ملكه فقال : بل جئت لالقي بسيفي عند قدميه.

فابتسم ابتسامة اليائس وقال: وماذا ينفع السيف والبلاد في أيدي المسلمين؟

- نسترجع هذه البلاد يا مولاي .

قال : لقد تكسرت سيوفكم يا أهل فارس وضاع الملك الذي بسط فوقكم كل هذا الزمان ، جناحي عظمته ومجده، فالجأوا الى منازلكم وانسوا هذا المجد الذي سلبتكم اياه العربان ولكن اذكروا في سركم ، انكم كنتم شعباً مدّ رواق سلطانه ، على هذا العالم الذي تطلع فوقه شمس المشرقين !!

- بل نذكر يا مولاي ان هذا الشعب لم يمت وسيحمل مليكه الى العرش الذي خلع عنه !!

- أجل تجلسون ملككم على عرشه بالخطب والالفاظ ..

- بل بقوة الرجال فاذا خسرت فارس بعض قوادها فهي لم تخسر الاباء والوفاء .

قال : عدّ لي رجالك قبل ان تحدثني بشأن الحرب .. لقد بذلنا من المال لعامل مرو ما يستطيع معه ان يشتري جميع أهل خراسان .. ولكن هذا المال الذي بذلناه انتقل الى أيدي العرب بسعاية خائن فارسي وعزل ذلك العامل الذي يدعى سنجان عن ولايته، فخسر الملك عندئذ أمله بالتاج وعمد الى التفكير في الاستسلام الى أعدائه !!

قال : ألا تسألني عن هذا الرجل يا مولاي ؟

وأشار الى سنجان .

فقال : من هو ؟

- هو سنجان الذي ذكرت ..

قال : ويلك ، أأنت يا سنجان الذي وثق به الملك واعطاه ذهبه ، فضيع ذلك الذهب ، وخسر ثقة مولاه ؟

قال : اعددت ذهب الملك لليوم العصيب فخانني ماهويه ..

- وكنت تعلم من قبل ان الرجل من الخونة ؟

- كانوا ينقلون اليّ أخبار خيانته ويطلعونني على الاكاذيب التي يوغر بها الصدور ..

- وماذا فعلت ؟

- جعلت حوله فريقاً من الرجال يحصون عليه انفاسه .

- ولكنك لم تحص عليه شيئاً فقد استطاع ان يخبرّ عامل المروين كل شيء، ويستولي على الامارة التي كنت سيدها بدون تعب وعناء ..

- ومن كان يعلم يا مولاي انه سيفعل ذلك ؟

– ومن كان يعلم انك ذلك الرجل الابله الذي لا يعلم كيف يصون مـــال مولاه .. رأيت ماهويه خائناً، وثبتت لك خيانته فكان عليك ان تضرب عنقه وتجعل جثته طعاماً للكلاب !!

قال: لا يستطيع العامل الفارسي، ان يقتل احداً الا اذا أمره بذلك العامل العربي ..

فظهرت الكآبة في عينيه وجعل يقول : أرأيت يا خراذمهر دهـاء الرجال الذين سلّم الملك اليهم أمره .. هذا واحد منهم لا يستطيع ان يقتل خائناً الا باذن الاحنف بن قيس .. ويلك يا سنجان .. ألم تكن قـادراً على قتل عمك في ظلام الليل ثم تنهض عند الصباح فتأمر جنودك بان يطلبوا قاتله ؟!. افلا تقتله الا في ساحة مرو بين صفين من الرجال ؟ عُد يا ملك الفرس الى عرشك فهؤلاء هم الرجال الذين يريدون ان يرفعوك اليه !..

قال : كان كبير الحجاب من رجال ماهويه وانا لا أعلم ..

– وهذا ذنب آخر تعترف به .. يخونك كبير حجابك وانت غافل فكأنك لم تكن في مرو غير أكرةٍ تتقاذفها أيدي الخونة من قومك.. ماذا صنع الاحنف بالمـال ؟

– نقله الى مرو الروذ ولم يبق منه لماهويه الا ما يفي بحاجته .

قال : متى نشأ هذا البغض بينك وبين عمك .

– قبل ان اتولىّ أمر مرو .

– قيل لنا ان سببه الطمع في الولاية . فاذا كان هذا فقد يكون مخلصاً لملكه .. أتعرف شيئاً عن هذا الاخلاص ؟

– ان رجلاً مثل ماهويه لا يسمونه مخلصاً يا مولاي .

– قل كان ذلك حسداً منه .

– بل هو ايثار للعرب على الفرس .

قال : سترى ان ايثاره كان كاذباً .

– اما انا فأقول انك ستلمس خيانته بيديك الاثنتين .

قال : لنتحدث الآن بما قدمتما لأجله، ما هو غرضك من المجيء يا خراذمهر؟

– غرضي ان ابذل دمي ودماء رجالي في سبيل الملك .

– لقد عدت الى ذكر الرجال فعدّهم لنا .

– في جبل الزهاد الف رجل يا مولاي .

– وماذا يستطيع ان يفعل هؤلاء الرجال والعرب يملأون الاقاليم ؟

فقال سنجان : انا اذكر للملك ما يفعلون .

قال : هات !..

قال : من هم الامراء في خراسان الذين يسيرون الى القتال تحت لواء الملك ؟

– يظهرون لنا الطاعة ولكننا لا نعلم ايهم يحمل السيف .

قال : يكفي ان يكون الملك واثقاً بوفائهم .

– ولماذا تسألنا عن هذا .

– لاني أخشى ان ينكثوا عهدهم بعد خروج الملك من كرمان ويمدوا أيديهم الى العرب ..

– لا نظن انهم يجسرون على هذا .

– ولكن ليس من الرأي ان نستسلم الى الظنون يا مولاي .

– وما الرأي إذن ؟

– ان يجعلوا بينهم رهائن لدى ملكهم .

– انه رأي لا بأس به سنفعل هذا .

– وانت قادر عليه ؟

– أجل !

– وان يكون للرهائن رئيس يا مولاي !

– الغاية منه ان يحاربوا تحت لواء رئيسهم .

– اذن نختار للرياسة رجلاً نثق به يدعى فرخزاذ .

– اني لا أعرفه ، وهل هو من رجال الحرب ؟

– نعم وقد خبرناه أكثر من مرة ووثقنا باخلاصه .

– ومتى تستطيع ان تفعل ذلك يا مولاي ؟

– في خلال شهرين أو ثلاثة .

– ويجتمع لديك الف من الفتيان ؟

– قد يجتمع أكثر مما تقول .

– اذن لم يبق الا ان اذكر لمولاي الملك ما افكر فيه .

فأمر الاثنين عندئذ بان يجلسا .. ! ثم قال : اذكر الآن ما تراه .

فقال : يسير الملك مع الرهائن من ابناء الأمراء الى جبل الزهاد .

– في وضح النهار ام في ظلام الليل ؟

– في النهار والشمس طالعة ..

– وعيون العرب ؟

– سترحل هذه العيون الى اطراف خراسان !!

– بأمر من العامل العربي ؟

– نعم بأمر من هذا العامل الذي يرحل معها الى المواضع التي ذكرت !.

– وما الذي يدعوه الى الرحيل ؟

– ثورة تتأجج نارها في آخر الاقليم فتسير العرب الى اخمادها وخنق اصوات الثائرين .

– لقد فهمنا الآن .. انك تريدان نضرم نحن النار في تلك الناحية ثم نخرج الى الحرب من الناحية الاخرى .

– أجل يا مولاي هذا ما يخطر لي .

قال : انتهينا الآن الى جبل الزهاد ، ثم ماذا ؟

– يضمّ الملك رجال ذلك الجبل الى رجاله ثم يزحف الى مرو الشاهجان

وفي مرو ؟

– يدعو صاحبها ماهويه الى التسليم فاذا أبى فالحرب !

– وهل نسيت ان عند ماهويه جيشاً كبيراً يخضع له ؟

– ان ذلك الجيش الكبير يخرج عن طاعة الرجل عندما يرى الملك

– هذا حلم لا يستطيع الملك ان يصدقه .

– بل هو الواقع الذي لا يستطيع احد ان يشك فيه .

قال : أتعرف انت في مرو جميع اصحاب الجند ؟

– وكيف لا اعرفهم وقد كنت سيدهم ولو خطر لي في ذلك الحين ان ارسلهم الى الموت لفعلوا .

– وهم الذين وعدوك بهذا ؟

– نعم يا مولاي !

وكان سنجان كاذباً في قوله فهو لم يحدث القواد بالأمر الذي ذكره للملك .

ولكنه كان يظن وفي ظنه شيء من الوثوق ، ان أهل مرو يؤثرون الرجوع الى الحكم الفارسي على البقاء تحت رحمة العربي الذي لا يحبونه .

وكان يرى ان وجود يزدجرد في مرو ، سيدفع الجيش الى العصيان ، وقد يدفعه الى قتل ماهويه فوق الاسوار ، وهذا ما يرغب فيه . فقال الملك : واذا كذبوا فيما وعدوا ؟

– أضمن أنا لك يا مولاي ان مرو ستكون لك وستسير منها الى مرو الاخرى لتقضي على من يكون فيها من حامية المسلمين .

– ماذا تقول يا خراذمهر ، أتوافق سنجان في هذا ؟

قال : قضيت أيامي كلها بعد الفتح في جبل الزهاد ولم أنقل منه قدماً ولا أعرف عن رجال الحرب شيئاً ... ولكني أرى في هذا الرأي خيراً للعرش .

قال : ما هو عدد الرجال الذين ينضمون الينا في مرو ؟

– الفا رجل في الأيام الاولى ثم يزداد هذا الجيش حتى يمسي ثلاثين الفاً .

قال : اذا صدق حلمك فملك الفرس يسترجع تاجه في هذا العام .

– ولأجل هذه الغاية قدمت يا مولاي .

– انك يا سنجان من المخلصين وسنجعلك من الوزراء ... متى تسعّر النار في أطراف خراسان ؟

– عندما يفد عليك ابناء الامراء وتتهيأ للخروج من كرمان .

قال : سنبدأ غداً بارسال الرسل الى الأنصار في نواحي هذا القطر .. امكثا هنا وسنأمر عبيدنا بان يعدوا لكما فراشين في هذا المنزل الذي هو بلاط كسرى.. وسننظر الليلة ، مع رجال المشورة في هذا الامر الذي تحدثنا به .

وقبل ان ينهض الرجـلان اقبل عبدٌ من عبيد يزدجرد يقول له : لقد أذن رئيس حرس الملك لرجل في الدخول .

– أرأيته قبل اليوم ؟

– يخيّل اليّ اني رأيته ، ولكن من زمن طويل .

– اذا كان هذا فافتح له .

فخرج العبد ، وأومأ يزدجرد الى الرجلين بان يخرجا الى الرواق .

ولم يلبث ذلك الرجل حتى دخل على الملك من الرواق نفسه ، فخفق قلب سنجان وحول وجهه كي لا يراه . وكان الداخل صاحبنا شهريار ، بيده الواحدة ووجهه الاسمر المكفهرّ ...

* * *

– ٣٣ –

استطاع شهريار ان يثبت لرئيس الحرس السرّي انه من عبيد الملك القدماء، ولم يأذن له الا بعد ان قصّ عليه طائفة من حكايات البلاط الفارسي قبل حرب القادسية وقبل فتح المدائن . وكان يقول له : اذا رأيت ان الملك لا يعرفني ولا يهش لي فاضرب عنقي .

فلما سجد في تلك الحجرة المظلمة لحفيد الأكاسرة استيقظت فيصدر يزدجرد ذكرى قديمة بالية اضطرب لها فؤاده الكئيب .

انهـــا ذكرى لم تتردد في صدره منذ خمسة عشر عاماً الا في تلك الساعة . وهذا معناه انه محا جميع الذكريات المؤلمة التي تعكر عليه صفو عيشه في منفاه .

وجعل يرفع رأسه ويخفضه وعيناه تختلجان، ثم قال: وجه من وجوه الخدم

في البلاط ما نسيناه . وانك تدعى ...

– شهريار الخراساني يا مولاي !

– شهريار الخراساني ... نعم ، وقد تركناك في حلوان لتكون عبداً لحظية لنا بقيت فيها يقال لها جهان روز ... اجل يقال لها جهان روز !!

وكأنه كان يتكلم عن فتاة من فتيات الصين ...

فقال شهريار : يظهر ان مولاي لم ينس شيئاً .

– بل نسينا كل شيء ، ماذا جرى لتلك المرأة .

فذعر الخراساني للهجته وقال : جرى لها ما جرى لأبيها وامها يا مولاي !!

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة رضى وجعل يقول : ماتت جهان روز ؟!

– نعم يا مولاي !

– وفي أي بلد صرعها الموت ؟

– في حلوان .

– إذن فقد اختارت حلوان مقاماً لها .

– بل اختارت القبر لأنها لم تعش بعد خروج الملك غير ليلة واحدة .

– أتقول انها ماتت منذ أربعة عشر عاماً ؟

– أجل ، وهـــذا هو العام الخامس عشر وفي حلوان اليوم قبر صغير فيه رفات حظية الملك .

قال : ان حظايا الملوك الأكاسرة لا تدفن الا في المدائن .

– ولكن كتب لجهان روز أن ترقد رقادها الابدي ، على شفير الوادي ، في البلد الذي ذكرته لمولاي .

قال : لا نريد ان تقول ان جهان روز كانت حظية لنا !!

– وماذا أقول يا مولاي ؟

– قل انها كانت جارية من جواري البلاط ..

– عفواً يا مولاي فقد سمعتها تقول انها كانت أحب حظية اليك ..

– كانت بغض النساء الينا وكنا نهمّ بان نطردها من الخدمة .

فلم يشأ شهريار أن يتمادى الملك في تجاهله ، فقال : أيأذن لي مولاي ان أقول كل شيء ؟

فحنى يزدجرد رأسه ، فقال الخراساني : لم يكن يخطر لي من قبل ان تلك المرأة التي امرتني بالبقاء عند فراشها تخدع الرجال

– ومن خدعت ؟

– هذا العبد الذي يخاطبك الآن ..

قال : اذكر لنا ذلك !

– لقد قالت لي انها زوجتك .. وان الطفلة التي ابصرت الوجود في تلك الليلة ، هي ابنة الملك .

فلمعت عيناه قائلاً : أتركت جهان روز طفلة ؟

– نعم يا مولاي !

– وماذا ظننت ؟

– كنت أظن يا مولاي ان هذه الطفلة سليلة الملوك .

– والآن ؟

– أما الآن فقد ثبت لي انها كانت ابنة عبد من عبيد البلاط وأنا اعترف باني قد خدعت .

واطرق متظاهراً بالتفكير ، فقال الملك : يخيل الينا انك نادم على ما فعلت ..

– وكيف لا اندم يا مولاي وقد كنت واثقاً باني اخدم مليكي فاذا انا اخدم رجلاً من رجال بلاطك جعل جهان روز عشيقة له ..

واخفى شهريار حقده ، وراء مظاهر ندمه . فقال : لقد ماتت المرأة وانتهى الأمر .

ولم يبدُ على جبينه ، اثر واحد من آثار العاطفة ، التي تتردد في صدور الاشراف فقال شهريار :

ان الامر لم ينتهِ كما تظن يا مولاي .

– وهل بقي شيء ؟

– بقي اني ربيت الفتاة التي لم تعرف امها .. وقضيت لياليّ ساهراً عليها أقرأ حظي وصفو عيشي في عينيها السوداوين واسجد لها كل صباح ومساء كما اسجد لك ولم يقم في ذهني اني اسجد لفتاة ليس الملك منها وليست من الملك!

وبكى من قهره ، والملك يظن ان ذلك البكاء مظهر من مظاهر ندمه ، ثم قال : لقد خطر لي خاطر يا مولاي .

– ما هو ؟

– هو أن اقتل الفتاة التي ربيت !

– والغاية من ذلك ؟

– ان القتل وحده ينسيني ما مضى !

قال : ان الفتاة بريئة وامها التي جنت .

– ولكني لا ابالي بهذه البراءة .. فهي ليست ابنة الملك وانا لا أطيق ان تقيم في بيتي فتاة لا اعرف اباها .

فوضع يزدجرد وجهه بين يديه ثم قال : كنت واثقاً بانها ابنة الملك كما تقول أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي .

– اذن كان عليك ان تحملها اليه لتنشأ في ظله ..

– بل كان عليّ ان اظهر للناس انها ابنتي وهذا ما فعلته .. اتريد يا مولاي ان احمل الطفلة من حلوان الى الري الى العراق الى خراسان باحثاً عن الملك لافتاً اليّ نظر هؤلاء العرب الذين يحصون علينا الانفاس ؟ وماذا اقول للحراس الذين حولك ؟ أأقول لهم اريد ان ارى الملك لأدفع اليه ابنته التي ولدت في حلوان ؟؟!

قال : ان لم تحملها طفلة فاحملها وهي فتاة !

– ليس في هذا الامر شيء من الدهاء. ولو رأيتها يا مولاي، لو رأيت عينيها الساحرتين لكرهت ان تطوف مع شهريار من بلد الى آخر وتتجه اليها العيون .

– أهي حسناء ؟

– كل حسن عند حسنها يموت كما تموت كل عظمة عند عظمة الملك !

– اذن هي آية من آيات الجمال .

– بل هي الجمال نفسه ولم تقع عينا الملك ، في فارس كلها على فتاة احسن منها وجهاً وابعد اثراً في القلوب .

فخفق قلب يزدجرد ، وبدأ يشعر عندئذٍ بأنها ابنته ... ثم قال : نريد ان نراها الليلة .

قال : بينها وبين كرمان مراحل يا مولاي .

– كنا نظن انها خارج هذا المنزل ، واين هي ؟

– في منزل بين المروين على شاطىء النهر .

– ومن يحرسها من القوم ؟

– عبدان وشيخ عربي معه زوجته .

– ويلك يا شهريار اتختار لخدمة الفتاة رجالاً من العرب ؟

– اني بين العرب يا مولاي فلا استطيع الا ان افعل ذلك .

– وتعرف امراءهم ؟

فقال وهو هادىء : المسلم يعرف امراء المسلمين !!

فاضطرب قائلاً : ماذا تقول ؟؟ مسلم ؟!

– نعم يا مولاي مسلم بين الاسلام ، فاذا خلوت الى نفسي فانا فارسي وديني دين فارس .

– وتقسم لي انك صادق ؟

– أقسم برأسك وهذا يكفي .

– وكيف يثق بك القوم وقد كنت من خدم البلاط ؟

– الدهاء يفعل العجائب يا مولاي ومع ذلك فهم لا يعلمون اني كنت في بلاطك .

قال : والآن ؟

– والآن ماذا يا مولاي ؟

– لأي سبب قدمت كرمان ؟

– لقد انتهى الامر الذي قدمتِ من اجله ، الآن ..

– وكيف انتهى وانت لم تحدثنا به ؟

– قدمت وانا واثق بان الفتاة ابنة الملك ، ولكني عرفت الآن انها ليست ابنته فلم تبق لي حاجة اذكرها له .

– بل تذكرها الساعة فنحن نريد ان نعرف كل شيء .

فتردّد الرجل وعيناه تنظران الى الارض ، فانتهره قائلاً :

نأمرك بهذ وتتردد ؟. اذكر حاجتك .

قال : جئت لاقصّ على الملك حكاية غرام .!

– ومن قال لك ان الملك يطيب له ان يسمع مثل هذه الحكايات ؟

– لو كانت الفتاة ابنته لطاب له ذلك .

– اذن فالحكاية حكاية الفتاة وهي عاشقة .

وتلألأ الحب الوالدي في عينيه .

قال : نعم يا مولاي وهو عشق ليست العبادة اشد منه .

– ومن هو هذا الفتى الذي تعبده ؟

– امير من امراء القوم .

– العرب ؟؟

– نعم العرب وهو من النبلاء الابطال الذين بعد صوتهم وهم في عنفوان العمر فتكلف الهدوء قائلا : أعرفته فارس ؟

– عرفته خراسان .

– وفي اي بلد هو ؟

– في مرو الروذ .

– ويلك أتعني الاحنف بن قيس ؟

– بل أعني طارقاً ابن اخيه .

– ومتى رأى الفتاة ؟

– في هذا العام يا مولاي وقد طلب الى عمه أن يخاطبها له ، ففعل .
– وماذا صنعت انت ؟
– ترددت في الامر ثم سألت الاحنف ان يمهلني الىالعام المقبل وكانت غايتي من هذا التردد ان اشاور الملك .
– وهل جاء الاحنف الى منزلك على الشاطيء ؟
– لا يا مولاي بل أمرني بالذهاب الى مرو وأفضى اليّ برغبته وهو في قصره .
قال : حكاية نشك فيها فاحذر .
– ولكن عندما أقول لمولاي اني رأيت في قصر الاحنف أميرين من امراء خراسان ، يزول هذا الشك من صدره.
– من رأيت ؟
– سنجان عامل مرو الشاهجان وعمه ماهويه .
قال ليبعد عنه الظنون ، فقال يزدجرد : ماهويه الخائن ؟
– اني أعرف الرجل يا مولاي فهو من المخلصين للعرش .
– اما نحن فقد عرفناه خائناً ولو لم يكن كذلك لما أقدم على السعاية بابن اخيه وهو من رجالنا .
– اذن تظن انه من اعدائك ؟
– أجل انه من الاعداء وقد باح للاحنف بكل شيء ودلّه على موضع المال الذي أعددناه للحرب فاستولى عليه .
– فعل ذلك ليتولى امر مرو وليس هنالك خيانة كما تظن .
قال : نراك تدافع عنه والشريف لا يدافع عن الانذال .
– لو لم يكن وفياً للملك لما خطر لي ان أذكر اسمه .. قلت انه من رجال الملك وأنا واثق بما قلت .
– والملك يقول انه لو كان من الاوفياء له لما عهد اليه الاحنف في الولاية .
– لقد سألني الاحنف عنه يا مولاي فأثبت له انه يحب العرب ويساعدهم في نيل غايتهم من بلاد الفرس . ثم قال : وكنت قد أوصيت ماهويه بان يخدع

الاحنف بمظاهره الكاذبة ويسأله ان يفوّض اليه أمر القبض على الملك .

– واذا ثبت للملك اليوم ان الرجل من الخونة ؟

قال : يريد الملك ان يرجع الى ما يكتبه اليه سنجان . ان سنجان يريـد في رسائله ، ان يوغر صدر الملك على ماهويه .

قال : لا نرجع الى الرسائل التي ذكرت بل الى سنجان نفسه .

فأحسّ شهريار بالخوف يتمشى مع دمه ، ولكنه تجلد قائلاً : سنجان في هذا المنزل ؟؟

– اجل : ولو ارسلت نظرك وانت داخل علينا لرأيته في الرواق .

– وهل تريد ان يقول لك يا مولاي ان عمه اشد الناس اخلاصاً لمولاه ؟!

فدبت الريبة في صدر يزدجرد وجعل يقول : لقد أمسينا في زمنٍ لا يعرف فيه الملك صديقه من عدوه . عد الى حكاية الفتاة فسنرى سنجان بعد ساعة .

فقال وهو غير مكترث : واي شأن بقي لي مع هذه الفتاة ؟ اني سأزفها الى طارق بن عبدالله ، بل الى صعلوك من صعاليك العربان ولا ابالي .

فصاح الملك قائلاً : لا لا ! اننا لا نطيق ان نفعل ذلك .

– لماذا يا مولاي ؟

– لان ملوك فارس لا يزفون بناتهم الى هؤلاء الاجلاف. ان الفتاة ابنة الملك نعم ابنته يا شهريار ، وجهان روز امها كانت من خطاياه .

– ابنة الملك ؟. اذن لم اكن مخطئاً فيما ظننت وقد ربيت ابنة مليكي .

وتنهد تنهد الارتياح كأن السعادة أمست بين يديه .

فأيقن الملك عندئذ بان الرجل مخلص له ، فقال : حدثني بكل ما تعلم ولا تنس شيئاً .

– هذا ما اعلمه يا مولاي !

– وتقول ان الفتاة اجمل نساء فارس ؟

– بل اجمل نساء الارض وستراها بعينيك .

– ومتى تحملها الينا ؟

– ان الملك لا يقذف بابنته الى الهوة !

– واين هي هذه الهوة التي ذكرت ؟

– على الطريق بين المرغاب وكرمان !

– أتعني العرب ؟

– نعم العرب فعيونهم على الشاطيء وقد لا ترغب اليتيمة في المجيء اليك لانها لا تعلم من ولان هنالك شيئاً آخر يمنعها من المجيء هو غرامها الذي وصفته لك .

– قل لها ان لك في كرمان انسباء تريد ان تراهم .

– هب انها رضيت بذلك فطارق لا يرضى !

فغضب قائلاً : ألا يستطيع ملك الفرس ان يرى ابنته ؟

– بلى يا مولاي يستطيع ان يراها في المنزل الذي تقيم به .

– بين المروين ؟؟ نعم .

– ولكنك تقول ان عيون العرب على ذلك الشاطيء .

– ومع ذلك فالملك يقدر ان يصل الى ذلك الشاطيء على رغم هؤلاء ..

– وكيف ذلك ؟

– يلبس ثوباً عربياً أعده له وأكون بالقرب منه حتى نبلغ المنزل فيستخفي فيه ما طاب له الاستخفاء .

– لقد ملّ الملك هذا الصنف من الحياة ، فرارٌ يرافقه الخوف واستخفاء تكتنفه فيه الكآبة والألم وهذا ما لا نريده .

– وكيف تعالج الزمان اذا جار ؟..

فظهر على جبينه اباء الملك وقال : سنعالجه بالسيف !.

– اذن تخرج يا مولاي الى قتال المسلمين .

– أجل سنخرج الى قتالهم فاما ان نسترجع تاجنا أو نموت !!

فابتسم الرجل ابتسامة الفرح ثم قال : التمس من مولاي ان يذكر لي ما يفكّر فيه فقد يكون لي رأي ..

قال : أتعرف خراذمهر صاحب جبل الزهاد ؟

ـ لا !

ـ لقد جاء هذا الرجل يعرض علينا سيفه .

ـ ولم يكن من قبل من رجال الملك ؟

ـ كان مقيماً بجهله لا يخرج منه ولا يبالي بالنار التي تستعر في خراسان ... حتى أتاه سنجان فأخرجه عن حياده وحمله على المجيء .

ـ ومتى كان ذلك يا مولاي ؟

ـ منذ ساعة وقد خبرناك ان سنجان هنا وستسمع منه ما تريد ان تسمعه .

فقال في نفسه : اخشى ان يفضحني هذا الرجل فيكون جزائي الموت .

ثم قال : خير لي ان أسمع كل شيء من فم مولاي الملك .

فقصّ عليه يزدجرد جميع ما حدثه بـه الرجلان ولم يلبث حتى نادى عبده قائلا له : ليدخل الاثنان اللذان خرجـا الساعة .. فخيّل الى شهريار ان الموت يكن في زاوية من زوايا حجرة الملك ..

ثم دخل سنجان وخراذمهر .

فقال الملك: سنجان . يقول هذا الرجل انه رآك في مجلس الاحنف بن قيس في مرو الروذ فهل رأيته أنت ؟

فنظر الى شهريار بعينين تتقد فيها نار الحقد وقـال : نعم رأيته يا مولاي وعرفت غايته من الذهاب الى مرو الروذ مع عمي ماهويه .

ـ وما هي غايته ؟

ـ أن ينحيني عن الولاية وقد تمّ له الأمر .

ـ ولماذا فعل ذلك ؟

ـ لتخضع مرو الشاهجان للعرب كما تخضع مرو الروذ .

ـ وهل تظن أنه يؤثر العرب على ملكه ؟

ـ بل أنا واثق يا مولاي ، فهو مسلم ولو استطاع ان يقبض على الملك الساعة ويحمله الى مرو الروذ لفعل .. !

ـ قال : نعرف انه من المسلمين ..

– وتسكت عنه يا مولاي ؟!

– يسكت الملك عن الرجال الذين يعترفون له بما يفعلون .. لقد خبرّنا بما جرى عند الاحنف بينك وبين ماهويه واعترف لنا بانه ساعد عمـــك في نيل غرضه ...

– اذن فالملك يكفيه هذا الاعتراف .

– ولكنه يقول ان ماهويه ليس من الخونة وانه أشد الرجال اخلاصاً للعرش الفارسي .

– اقسم برأس الملك انه كاذب فماهويه من المخلصين للعرش العربي .

قال : لو كان شهريار وحده يقول هذا لما صدقناه .

– ومن يقوله غير شهريار ؟

– رجل من رجالنا قضى زمانه كله في البلاط وكان أخبر الناس بشؤون الأمراء الخونة والمخلصين ..

– لقد حاول هذا الرجل ان يخدع الملك ..

– لم يتعلم رئيس الخصيان الخداع .. انه هو الذي قال ذلك ، قبل ان تجيء انت ويجيء شهريار .. نعم ، كان ذلك الخصي صادقاً ووفياً فكافأه الملك بأن طرده من خدمته وهو بريء ..

فلما رأى ان الملك يدافع عنه رفع رأسه وهو يبتسم ابتسامة الوثوق بنفسه ، كأنه يبذل حياته في سبيل يزدجرد . ولم يكن ذلك الدفاع صادراً من القلب .. ان يزدجرد لا يؤمن بالالفاظ التي تخرج من الشفاه ، بل كان دفاعه دهـاءً ليس فيه من اليقين غير الأثر الذي يضمحل كما يضمحل الظل . لقد عرف الآن ان له ابنة تقيم مع شهريار على شاطىء المرغاب وانه لا يستطيع ان يضمها الى صدره الا اذا كانت يد الرجل في الأمر ، وقد بدأ يشعر ، كما قرأت ، بانـه أب !! فمن الرأي اذن ان يستعين بالدهاء ليستسلم اليه هذا الخراساني استسلاماً يبلغ بـــه غايته .. فقال سنجان : ليس في خراسان رجل يعرف ماهويه كما أعرفه انا .

فقال شهريار : لقد ظلم سنجان عمه يا مولاي واني اثبت لك مرةً ثانية انـه

المخلص الطائع لمليكه كما يخضع العبد .. أجل لقد سلب ابن أخيه أمارته ولكنه لم يفعل ذلك خدمةً للعرب وانما هو طمع بالامارة نفسها اوحى اليه بان يفضح الأسرار .

قال : نلوم ماهويه على تسليمه مال الملك الى عامل المروين .. ومع ذلك فيكفي ان تقول انت انه صادق ليكون صادقاً !. أسمعت يا سنجان .. ان ماهويه من اصدق الناس ، فاحذر ان تحدثنا بشأنه مرةً اخرى ، بل احذر ان تحدثنا الا بأمر الحرب .. واما انت يا خراذمهر فاذا أردت أن تظفر بالعرب فاستعن برأي شهريار .

فحنى سنجان رأسه قائلاً : لم يبق الا ان اؤمن إذن بكل ما يقوله هذا الرجل ، ان ماهويه وشهريار من اخلص الناس يا مولاي ألا تريد هذا ؟

– بلى ونحن نسأل شهريار الآن ان يبدي رأيه في أمر الاستيلاء على مرو الشاهجان ، اذا فاجأناها بالجنود .

قال : استطيع ان أضمن لمولاي منذ هذه الساعة ان مرو لا تشهر على الملك سيفاً ولا تخرج الى القتال .

– أي ان ماهويه سيسلم الى الملك سيفه عندما يراه .

– نعم وسيجعلني الملك رسوله الى الرجل عندما يبلغ الجيش جبل الزهاد .

قال : تهيأ يا سنجان للخروج والطواف في الاقاليم لتنظر في أمر الرهائن ، وتحمل الى الأمراء أمر مولاك ، وسنكتب الليلة كتاباً الى فرخزاذ .

قال : وسأتهيأ يا مولاي لأمر آخر هو ان اشعل النار في أطراف خراسان كما قلت ليخلو لنا الجو ، في المروين .

– وتظن ان الاحنف سيزحف مع جنوده الى اخماد هذه النار ؟

– نعم !

– وما رأيك في هذا يا شهريار ؟

– ارى ما يراه سنجان فخير للملك ان يستولي على المروين دون ان تسيل الدماء ...

فأمر يزدجرد الرجلين بالخروج ثم قال لشهريار : يقي علينا ان نرى اليتيمة فأبوها لا يصبر على الفراق .

وجالت الدموع في عينيه !!.

فقال : وما هي حيلتي في ذلك ؟

قال: نهب لك من أجل هذه الغاية، نصف المال الذي ابقاه لنا القضاء الجائر.

– لو كان مال العالم كله بين يدي لما استطعت ان احمل الفتاة الى كرمان .

– اذن فالملك مكره على الذهاب بنفسه .

– أجل ، فاما ان يسير متحجباً عن الناس ، واما على رأس الجيش .

قال : بين جبل الزهاد ، وذلك الشاطىء ، بضع مراحل .

– ليس لك الا ان تخرج معي من ذلك الجبل ، الى المرغاب ، لترى ابنتك ، وعليك اللباس العربي .

– ونقدر عندئذ ان نحملها ونضمها الى الجيش الزاحف الى مرو ؟

– ليس من الرأي ان تفعل ذلك فاليتيمة لم تخلق لتسير مع الجنود .

قال : نبعث بها الى كرمان .

قال : ننظر في هذا الأمر عندما تأتي ساعته .

– وهل تبوح لها عند اللقاء بكل شيء ؟

– نعم يا مولاي ، سأرفع صوتي عند اللقاء قائلا لها : اسجدي ايتها الفتاة عند قدمي هذا الرجل الذي يلبس الثوب العربي ، فهو ملك فارس العظيم ، وانت ابنته !.

فتمتم قائلا : قرّبي ايتها الآلهة ساعة اللقاء ..

وجعل يصغي الى شهريار ، الذي كان يضع خطط القتال، ويعلله بالامال ..

* * *

– ٣٤ –

لم ترجع يا طارق الا لأمر ، اين شهريار !

فقال طارق لعمه : في كرمان .

– والملك فيها ؟

– لم نقف له على أثر في ذلك المنزل الذي وصف لنا وقد قام في ذهن شهريار انه انتقل منه الى منزل آخر قريب منه .

– ولماذا رجعت ؟

– هذا كتاب شهريار يقول لك فيه انه هو الذي أشار عليّ بأن أعود الى مرو فقد يمرُّ شهران وثلاثة أشهر لا يعرف في خلالها مقرّ يزدجرد .

قال : لو لم تكن اليتيمة في مرو لدبّ الريب في هذا الصدر .

قال : قد لا تجد بين المسلمين رجلاً أشد رغبة من شهريار في القضاء على ملك فارس .. انه يقضي نهاره وليله في الطواف ، وقد اختار صعلوكاً من صعاليك الفرس ليكون عوناً له على الأمر الذي يطوف من أجله .

ودخل عبدالله فعانق ولده وجلس يصغي الى ما يحدثه به .

وكان الاحنف يقول : ليس في هذا الطواف الذي تذكره لنا دليل على وفاء الرجل للمسلمين .. لقد سار الى كرمان ليبحث عن الملك ، فاذا طاف نهاره وليله فقد فعل ما يرغب فيه .

– وما الذي تخشاه يا عم ؟

– أما الذي أخشاه فهذا الرأي الذي قضى عليك بالرجوع قبل العثور على الملك ، ولو كان هنالك وفاء ، لدعاك شهريار الى البقاء في كرمان حتى ترى بعينيك ، ذلك المنزل الذي يقيم به حفيد الاكاسرة .

– لم يشأ ان ابقى خوفاً من ان تضطرب نفس عمي ونفس أبي ، وهذا ما ذكره لك في كتابه الذي قرأته الساعة .

قال : خرجت مع الرجل الى كرمان ، على أمل البقاء بضعة أيام تقضيانها بالبحث والطواف ، ولكن شهريار لم يرد ان تبقى غير يوم وليلة أفتريد ان يظن عمك وأبوك ان في هذا الرأي الذي رآه شيئاً من الاخلاص ؟

– نعم أريد أن تثقا انتما الاثنين باخلاصه .

قال : من ينقل الينا خبر يزدجرد اذا ثبت وجوده في كرمان ؟

– شهريار نفسه .

– أجل، ويخرج عندئذ جيش المسلمين من مرو ليقبض على الملك في كرمان. ولكنه عندما ينتهي اليها يكون هذا الملك قدغادرها الى بلد آخر برأي صاحبك الذي يخدع والي المروين ، ويخدع العرب .

قال : من يعلم فقد يبعث اليك بخبره مع رجل عربي .

– ليس من الرأي ان يثق بعربي لا يعرفه، ولو استحسن عمك ان يحمل هذا الخبر رجل من العرب ، لاختار هذا الرجل من قومه ولم يأمرك بالمسير مع شهريار وبأن تكون رفيقاً له .. ان شهريار يخون المسلمين فالويل له .

قال : هذا استسلام الى الظنون يا مولاي .

– بل هو الامر الواقع الذي ستلمسه بيديك .

– واليتيمة ؟

– أي شأن لهذه الفتاة البريئة التي تجهل كل شيء .

– لقد جعلها رهينة في بيتك ، فكأنه كان يعلم انك ستشك فيه وقد قلت الآن ان وجودها في مرو يضمن براءة الرجل .

قال : كان يجب ان أقول غير ذلك .

– ماذا يا مولاي ؟

– كان يجب ان اقول .. ان شهريار .. ترك الفتاة في مرو .. ليس لتبقى فيها شهراً أو شهرين بل .. الى .. الابد !.

– وهذا معناه انه لن يعود ..

– لا .. لن يعود فقد لحق بملكه وانتهى الأمر .

قال : ما سمعت من قبل ان رجلاً يؤثر ملكه على ابنته ..

قال : لا تكره عمك يا بني على الاعتراف بما في صدره من اسرار .. ان شهريار لا يبالي بفتاته !

– بل يعبدها يا مولاي وهي امنيته في حياته .

– كانت امنيته ان يختار لها فتى يزفها اليه وقد تمت له غايته الآن !!

- ولكنها لم تزف الى هذا الفتى كما ترى، ولم يشأ هو ان ينظر في امر الزواج الا في العام المقبل .

فهز رأسه قائلا : ذلك دهاء لا تعرفه ..

- ولكني لا استطيع ان اظن ان الرجل الداهية يسيء الى نفسه.. أفيطيب لشهريار ان يدفع ابنته الى مرضعها ، ثم يهجرهـــا الى الأبد ، دون ان ينظر في أمرها ودون ان يفكر فيها كما تقول ؟

- نعم يطيب له ذلك وأنا واثق .

قال : لنفرض ان طارق ابن عبدالله قتل في الحرب غداً فمن يتزوج الفتاة ؟

- فتى آخر تختاره هي .

- ولا يعرف ابوها هذا الفتى الذي تزوج ابنته ؟

- لا !!

فأحس طارق ان يدين حديديتين تقبضان على عنقه ، فقال : أ كاد اختنق يا مولاي فبح لي بما تعلم .

قال : اخشى ان ينتهي بك الامر الى ما لا تحب .

- اعدك بأني سأصبر على ما أسمع .

فقال لعبدالله : اذكر لولدك الظنون التي تتردد في صدرك ..

فقال طارق : اذن في صدر ابي ظنون يكتمني إياهـــا ... قل يا أبي فأنا مصغ اليك ..

قال : أظن يا بني كما يظن عمك ان شهريار لا يبالي بالفتاة التي ارضعتهـــا أم عـــامر .

قال : دلني اولاً على رجل لا يبالي بابنته .

فخفض صوته قائلا : لم يكن شهريار اباً لليتيمة ولم تكن اليتيمة ابنة له !!

فاستند الفتى الى مقعده وهو يقول : لمبنة من هي ؟

فكره ان يذكر له اسم الملك فيقضي على امله ، فقال : ابنة عظيم من عظماء فـــارس !

- وتعرف اسمه ؟

– لا اعرف من هو لأعرف اسمه ، ولكني واثق بأن الفتاة ليست من دم هذا الخراساني .

– وابوها حي ؟

– يقوم في الذهن انه حي .

– لتكن ابنة من شئت فأنا لا ابالي ويكفي اني احببتها كما احب الاسلام ! ولكني اريد ان اعلم اسباب هذه الظنون ..

قال : اذكر لك ثلاثة من هذه الاسباب أولها انك لا تجد في وجه اليتيمة اثراً لملامح شهريار .

فابتسم قائلاً : امـا انا فاعرف طائفة من الفتيان لا تشبه وجوههم وجوه ابائهم وقد تحمل هذه الوجوه ملامح الامهات ونحن لا نعرف ام اليتيمة ..

– اصبت ، ولكن السبب الثاني يخلق الظنون ويدعو الى التفكير ..

– ما هو !

– ألا تذكر تلك الحكاية التي رواها لنا شهريار عن زواجه ؟

– بلى

– وهل يخطر لك انه تزوج الفتاة التي يزعم انه تزوجها ، وهي لم تكن تحبه ولا تطيق ان تنظر الا الى ذلك الفتى العربي الذي كانت تهواه ؟

– يحدث في العالم كل يوم ، مثل هذا .

– وهل يحدث في العالم ان الرجل يعاهد زوجته ، التي تبغضه ، على الوفاء لها بعد الموت ، وعلى ان يبغض هو الفرس ، قومها وقومه ، وهو منهم ، منعها من ان تزف الى فتى من المسلمين ؟

فتردد قليلاً ثم قال : الحب يفعل اكثر من ذلك كما تعلم ..

قال : ثم تموت هـذه الزوجة ، فيعتنق شهريار الاسلام ، ويخون مليكه ووطنه ، ويتظاهر بأنه يبذل حياته في سبيل الفتح العربي ؟

– قد يكون هنالك سبب آخر لم يرَ ان يبوح به .

ـ اجل ان هنالك سبباً آخر هو الذي نخافه، ولو كان الرجل صريحاً وصادقاً لما حدثنا بالالغاز ولما اخترع لنا الحكايات لنؤمن انه من المخلصين .

ـ وماذا بقي الآن ؟

ـ بقي انه ترك الحرب منذ خمسة عشر عاماً كما يقول .

ـ نعم !

ـ وقد قضى هذه الأعوام وهو لا يشهر سيفاً ولا يشترك في قتال، ولا يعمل عملا يملأ يديه مالاً وتكتنفه معه النعم .. وانك لتراه اليوم ، يملك منزلاً على الشاطىء وعنده عبدان ورجل عربي من بني سليم وزوجته ، ودار للاضياف تخرج منها الوفود وتجيء اليها كل يوم ، فأية سماء تمطر شهريار ذهباً وأي جنيّ يهب له هذا المال الكثير الذي يبذله لاضيافه ؟!!

ـ لك ان تظن انه مال ورثه من آبائه ..

ـ بل اظن انه مال تحمله اليه يد خفية لغاية من الغايات .

ـ وهي يد ذلك الفارسي العظيم والد اليتيمة .

ـ او يد رجل من رجاله .

ـ واي شيء يدعو هذا الوالد الى البذل ؟

ـ ابنته التي تعيش في ظل شهريار .

ـ ولماذا لا تعيش في ظله بل لماذا نشأت في بيت هذا الخراساني ولم تنشأ في بيته ؟

ـ انه سر نفكر فيه ولا نستطيع ان نعرفه .

قال : لو كان والد اليتيمة غير شهريار لطلبها اليه .

ـ ومن قال لك انه لم يفعل ، هو يطلبها كما تقول وشهريار يتردد في الامر ويمد يده ليقبض المال الذي ينعم اضيافه به .

قال: اعجب لهذا الوالد الذي يصبر على دلال شهريار ولا يسترجع ابنته بقوة السيف ، وهو قادر على ذلك .

قال : نسيت ان المرغاب بين المروين ، وان صفوف العرب على الشاطىء .

ـ ونسيت انت ان الفرس يروحون ويجيئون بين العرب ولا يعرض لهم احد

بسوء ، ومع ذلك فلماذا كان شهريار يلجّ في طلب المال بالامس ، ولماذا اهمل أمر الفتاة اليوم حتى لتظن انه لن يعود ؟

– لأنه سئم الاستعطاف والرجاء وآثر اللحاق بمليكه على خدمة فتاة غريبة جعل نفسه عبداً لها ولأبيها الذي لا تراه العيون .

قال : اسألك سؤالاً آخر ستتردد في الجواب عنه .

– اسأل .

قال : لو مثل الوالد الفارسي بين يدي الملك وشكا اليه شهريار، ثم سأله ان يعيد اليه ابنته فماذا يقول ؟

– يأمر شهريار بأن يعيدها اليه فيجيبه قائلاً : لقد سباها رجال الاحنف بن قيس فهي في مرو الروذ !

فقال للاحنف : اني لا اصدق شيئاً من هذا يا مولاي .

– وهذه الظنون لا تزول الا اذا عاد شهريار حاملاً اخبار الملك .

قال : يخطر لي ان اعود غداً الى كرمان .

فقال عبدالله : وهذا ما يراه ابوك يا بني فخير لك ان ترى بعينيك جميع ما سمعته الآن وقد تعود بعد ايام وانت واثق بأن شهريار من أنصار يزدجرد واصدق رجاله .

– وقد اعود وانا واثق بانه من انصار الاسلام .

فقال الاحنف : ارى ان تنصرف بعد بضعة ايام فقد يرجع شهريار ونكون مخطئين فيما خطر لنا الآن .

وتظاهر بأنه يهم بالخروج لى السوق ، فقال طارق : اني ذاهب الي المنزل يا مولاي .

– اذهب الى حيث تشاء يا بني على ان تكون رجلاً ..

وعندما انتهى طارق الى الرواق كان الاحنف يقول لعبدالله : أصاب طارق في دفاعه عن شهريار ، وأصبت انت في قولك ان اليتيمة ليست ابنة له .

– وأي رأي لك في الرجل ، أهو يخون المسلمين ام ماذا ؟

– لقد ذكرت الخيانة لطارق وأنا غير واثق بما ذكرت ... ان الرجل في نظري ، صادق في اسلامه ، وسيظل صادقاً حتى تبدر منه بادرة خيانة أو خداع .

– وترى ان يرجع طارق ثانية الى كرمان كما قال ؟

– اجل ، وليحمل الينا هو نفسه اخبار ذلك الملك الذي يشعل النار وهو وراء الستار ..

فخطر لعبدالله خاطر فقال : لقد ذكرت الآن امراً أخشى ان يقع فتسوء العاقبة وكان علينا ان نلفت اليه نظر طارق قبل ذهابه .

– لقد عرفت ما تعنيه .. انك تخاف ان يذكر لليتيمة ما سمعه الآن فيعكر عليها صفو العيش

– هو ذاك .

قال : ليقل ما يطيب له فقد احب الواحد منهما الآخر حباً لا تؤثر فيه الحادثات ..

وبعد ساعة خرج عبد الاحنف الى الفناء يقول للقوم : لقد جلس الامير للناس فمن كانت له حاجة فليدخل . وكان طارق جالساً الى جانب اليتيمة وقد ابكى اللقاء الاثنين .



– ٣٥ –

أعرفتما مقرّ الملك ؟

– لم نعرف شيئاً فالملك ذو جناحين يطير بهما عندما يشاء ، الى حيث يشاء .

– ولكن ابي كان يعرف منزله وقد وصفه لعمك وابيك قبل ذهابه .

– ومع ذلك فهو لم يرَ في ذلك المنزل غير الوحشة الرهيبة التي تبعث الذعر الى كل قلب .

– وكيف طاب له ان يعود حاملاً خيبته ؟

– انه لم يعد كما تظنين .

قالت : خيّل اليّ انه في مجلس الامير .. ولماذا رجعت انت وبقي هو ؟

– لأنه لم يشأ ان يعود الا بعد ان يرى يزدجرد الذي يبحث عنه وسأرجع انا الى كرمان بعد بضعة ايام .

قالت : أتبشرني برجوعك في ساعة اللقاء ؟

– خير لك ان تعلمي ذلك الآن وتتهيأي له ، من ان تعليه فجأة صباح يوم الرحيل .

– قل لي أولاً لماذا قدمت وحدك ؟

– لأن شهريار أراد ذلك .

– وأي امر يدعوك الى الرجوع ؟

– لقد كره ابي وعمي ان يبحث شهريار وحده عن يزدجرد فأمراني بالعودة لاكون عوناً له في بحثه .

وحوّل وجهه ليخفي مظاهر الكآبة التي بدت على جبينه .

قالت : اقرأ الالم في عينيك وانا خائفة .

– اما ما ترينه في عيني ، فآثار التعب من هذا السفر الشاق ، واما انك تخافين فلم ارَ في الامر سبباً لهذا الخوف .

وكان التردد ظاهراً في لهجته، فاضطربت قائلة : اقسم لي انك تركت ابي في كرمان .

– أقسم لك اني تركته فيها .

– وانه حر ؟

– وأقسم انه حرٌ يتبين منازلها ويطوف في اسواقها كأنه في مرو .

– اذن فالاحنف لا يريد ان تبقى قريبا من الفتاة التي أحببت .

– بل لا يريد ان يبقى بعيداً عن أبيها وهو يشتغل لمصلحة العرب .

قالت : استحلفك بهذا الحب ان تبوح لي بكل شيء .

وكيف يعترف لها طارق بما جرى بينه وبين عمه وأبيه ، وفي هذا الاعتراف

جرح ، ولكنه رأى انه اضعف من ان يكتمها مـا جرى ، فقال : قلت ان ابي وعمي يرغبان في ان اعود لأساعد شهريار في أمره .

– وأنا اشعر انك تخفي الآن ما حدثاك به .

قال : لا تلجي في طلب شيء لا وجود له .

قالت : ان هذا القلب لا يكذب وانا أكاد ألمس الألم في عينيك . اريـد ان تقص عليّ الان حديث الأميرين فالخوف يملأ نفسي ولا استطيع ان اصبر .

فنهض قائلاً : سأعود بعد ساعة لأنقل اليك حديث الاثنين .

– بل تقول الآن ما تريد ان تقوله ثم تنصرف .

قال : رحمة أيتها الحبيبة فانا لست قادراً على الاعتراف بما تطلبين .

فتفجّر الدمع من عينيها وجعلت تقول : ويل لي ، فقد نسيت اني بين قوم غرباء ينظرون اليّ كما ينظرون الى الجواري اللواتي سبتهنّ الحرب !! نعم لقـد نسيت ذلك، فتجاوز عن ذنبي،وانسَ ما قلته لك ولكن اعلم انه لولا هذا الحب لما طلبت شيئاً .

واخفت وجهها بيديها واستسلمت الى البكاء .

ودموع المرأة سلاح لا تذكر معه السيوف والحراب .

فقال الفتى في نفسه : ابوح لها بالسرّ من هذه الناحية واكتمها إياه من الناحية الاخرى ولو جرحتها وجرحت شهريار .

ان الاعتراف بالاسرار خير من هذه الدموع التي لا تحتملها قلوب المحبين .

ثم قال لها : اصغي اليّ فستسمعين الان ما اردت ان تسمعيه .

فرفعت رأسها وهي تكفكف الدموع ، فقال : ابوح لك بسري على رجاء ان تنسي ما تسمعينه بعد قليل .

– لا أدري اذا كنت أستطيع نسيانه .

– انا اعلم انك تستطعين ذلك فهذا السر كلمة قالها الاحنف في ساعة مـن ساعات غضبه دون ان تخطر له من قبل .

– اذن هي كلمة عنى بها اليتيمة المنكودة الحظ .

– بل عنى بها شهريار .

– وما هي ؟

– هي انه من انصار يزدجرد ولو لم يكن من انصاره لما طلب اليّ ان اعود الى مرو روذ في مثل هذه السرعة .

قالت : الا تخدعني بهذا القول ايها الحبيب ؟

– لا والله بل اعيد عليك ما قاله لي .

فتنهدت قائلة : انه سر يستطيع البريء ان ينساه ولكن اي مظهر اوحى الى الامير بان ابي من انصار الملك ؟

– مظاهر كثيرة يجد فيها امراء المسلمين مجالاً الى الظنون .

– اذكر بعضها .

– حياة ابيك التي تكتنفها الاسرار حتى انه كتم ابنته اسراره لا يبوح بها لأحد الا بعد عام .

قالت : لكل رجل سر يحتفظ به لنفسه .

– اجل ، ولكن سر أبيك يتعلق بزواج ابنته والاسرار من هذه الناحية تخلق الظنون .

قالت : يصبر الامير عاماً فيعرف سره وينتهي الامر .

قال : رجال الحرب لا يعرفون الصبر .

قالت : أليس الاحنف بن قيس من رجال الدهاء والرأي في الاسلام ؟

– بلى وهذا ما يعترف به جميع الامراء .

– وكيف يظن ، وهو رجل الرأي، ان شهريار الخراساني من المخلصين للملك وهو لم يرَ اثراً واحداً من اثار هذا الاخلاص ، وقد مرت الاعوام وشهريار لم يرَ هذا الملك الذي يتهمونه بالانتصار له ؟!

يقول الاحنف ان لابيك داراً للاضياف يبذل فيها المال لمن يفد اليه من رجال العرب واهل فارس .

– اذا كانت دار الاضياف ذنباً فعند كل امير عربي دار مثلها فهم جميعهم مذنبون .

- لهؤلاء الامراء حصة من الغنائم وفي ايديهم المال يبذلونه باسم امير المؤمنين .
- ومع ذلك فأنا لا افهم ما تقول .
اقول : ان القوم لا يبذلون للناس مالهم الا اذا كانوا اغنياء .!
- ولهم ان يبذلوه اذا كانوا فقراء .
- الفقير لا يملك داراً للاضياف .
قالت : فهمت الان . ان الاحنف يريد ان يعلم أي يد تهب لأبي المال أليس كذلك ؟

- نعم ، وهو يقول ان شهريار لا يستعين بعمل من الاعمال على بذله ، بل يقضي ايامه كلها بالطواف في البلاد ثم يعود الى المرغاب ليمكث على شاطئه شهراً وبعض الشهر ، والوفود تمر ، والدار عامرة تغص بالنعم ، فالمال اذن مال الملك اذ لا يستطيع احد ان يفعل ما يفعله شهريار الا الملوك !!

فاطرقت تفكر في هذا الجواب الصريح الذي لا تستطيع ردّه . ان اباها يعيش في سعة كما تعيش وفوده ، وهو لا يشكو الفقر ولا يذكر الحاجة ، فكأن له المورد الفياض الذي لا ينضب ماؤه !

وهي ترى انه ليس من التجار الذين يشترون ويبيعون في الاسواق ، ويطوفون في المدن والقرى وبين صفوف الجيش ليكثر مالهم .

كما انها كانت ترى انه لا يتظاهر بالغنى الموروث ولا يتحدث بالذهب ، فاذا كان الاحنف يشك في امره ففي هذا الامر مجال للشك . ولكنها ارادت ان تتهيأ للدفاع ، فأبوها البار ، ابوها الذي يغمرها بالعاطفة والحب ويمهد لها اسباب الرفاه ، يستحق هذا الدفاع فقالت : اسألت ابي عن هذا الطواف الذي يعمد اليه من حين الى آخر ؟

- ليس لي ان اسأله عن ذلك . بلى ، كان يقول للاحنف انه يطوف من اجل غاية واحدة هي البحث عن يزدجرد .

قالت : لعله يطوف طواف تاجر ونحن لا نعلمُ .

- وللاحنف ان يظن ، انه يرحل كل شهر ليرى الملك ،ويقبض ماله ثم يعود.

– اما انا فلا اصدق انه يفعل هذا وهو مسلم ، وقد نفخ في صدر ابنته روح الحب للعرب والاسلام ، كما اني لا اصدق ان الرجل يستطيع ان يعلم ابنته ان تبغض يزدجرد وهو يحبه ، وان تحتقره وهو مخلص له .

وطابت نفسها عندئـــذ لهذه الناحية من الدفاع ، وكانت تقول : اجل يا طارق ان ابي لا يخدعني اذا هـو خدع العرب ، ولا يهزأ بي اذا هزأ بهم ، ولا يطلب اليّ ان احبهم كما احبه وهم اعدائه !!

– وهل تحلفين انت بهذا الحب انه يطلب اليك ذلك ؟

– خير لي ان اموت مـن ان اكذب واهزأ بالفتى الذي احببه ولن احب سواه .

ثم قالت : والان فأنا افترض امراً عالج به هذا الريب من جميع وجوهـــه لأثبت براءة الرجل الذي تشكون فيه .

– وماذا تفترضين ؟

– يطيب لي ان اظن الان ، ان ابي من رجال الملك ، وانه يخفي اخلاصه له وراء مظاهر اخلاصه للعرب ، ولكني لا اعلم ما هي الغاية التي يبذل مـن اجلها مال الملك ، لوفود الناس من كل بلد وكل جنس !!

– غايته من ذلك أن يتنقص العرب ويذكر لوفوده عظمة الملك الفارسي !

– وهل يجسر على هذا ، وهو بين المروين وبين جيشين من جيوش الاسلام .

– يقول ذلك سراً لأهل فارس ..

– ولكن معظم اضيافه من العرب فماذا يقول لهؤلاء ؟.

فرأى طارق أنه أعجز عن ان يقول كلمة بعد هذا الدفاع ، فقال : لم يخطر لي قط ايتها الحبيبة ان شهريار يخون العرب .

– ولن يستطيع أمير المروين انيثبت هذه الخيانة كما انه لا يخطر لأبي، وهو العدو الخائن ، ان يدفع ابنته الى أيدي اعدائه ، ويرحل هو الى كرمان ليقبض المال من مليكه ..!

قال : كفى فانا واثق بما تقولين ، ولولا هذا السر الذي يحتفظ به شهريار ،

ارتفعت صوتي في مجلس الاحنف قائلاً للقوم : هذا اعظم خـــادم للعرب في خراسان . وكره ان يذكر لها الظنون الاخرى التي ذكرها ابوه وعمه . انه اذا فعل ذلك طعن قلب اليتيمة بسهم وقد يخسرها الى الابد .

قالت : يخيل اليّ اني أعرف بعض سرّه .

ـ اذكري لي ما تعرفين .

ـ يظهر ان امي ، لأمر اجهله ، طلبت الى أبي وهي على فراش الموت ، الا يزوجني الا في عامي الخامس عشر ، وقد أراد هو ان يبرّ في قسمه ويحتفظ بسره الى ذلك اليوم .

قال : مهما يكن هذا السر فهو غير قادر على ان يبعد الواحد منا عن الآخر .

ـ بل هو لا يقدر على ان يعكر على القلبين ، صفو الحب .. ولكن مـــاذا اقول لأبي اذا رجعت ؟

ـ اقول ان الاحنف لم يرضَ الا بأن أكون رفيقاً له ، في ذلك البــلد الذي يحمل أهله لواء الثورة كلما عصفت الريح ..

قالت : تذهب ، وانا لا أعلم متى يعود أبي وتعود انت ..

ـ لا يعلم ذلك غير الله الذي يعطف على المحبين

وقبل ان يخرج طارق من المنزل اقسمت اليتيمة له انها لا تذكر لاحد كلمة مما سمعت ، ولا تظهر لأم عامر انها تعرف شيئاً .. وكان ذلـك الحادث ، عهداً جديداً وثـّق عرى الحب بين الحبيبين ..

* * *

- ٣٦ -

خرج سنجان من كرمان ، ليدعو امراء الاقاليم ، الى حمل السيف تحت لواء مولاه ، أو الى جعل ابنائهم رهائن تثبت لهم بقاءهم على الطـاعة ، وخضوعهم لكل ما يأمرهم به دون تردد وخوف.. نعم، كان يزدجرد المغرور، الذي يحاول ان يسترجع عرشه ، لا يثق بشعبه ، وهو يخاف ان يغدر هذا الشعب به . وكان

سنجان ، وهو ماضٍ في مهمته ، يفكر في شهريار اللعين الذي استطاع ان يحمل الملك على الوثوق به . ومن أين له ان يعلم ، ان في منزل شهريار فتاة هي قطعة من نفس يزدجرد ..

على ان شهريار ، لم يكن صاحب حظ ، في بقائه داخل جدران ذلك المنزل المتداعي الذي يقيم به عدوه. ولم يكن قادراً على الخروج منه، بل لم يكن قادراً على الخروج الى الفناء !.

لقد جعله يزدجرد اسيراً دون ان يظهر له انه آسره .. ودون ان يبدو على وجهه وفي مظاهره أثر واحد من آثار غايته . لقد آمن يزدجرد بان ابنته على شاطىء المرغاب ، ولعله لم يؤمن بأن شهريار غير قادر على حملها اليه ، كما قال . وقد خطر له ، في بادىء الأمر ، ان يبعث الى ذلك الشاطىء رجالاً يقولون لليتيمة ان اباها ملك الفرس .. وانه ينتظرها في كرمان ليضمها الى صدره .

ولكنه خاف ان تردهم الفتاة رداً قبيحاً قائلة لهم : ان أبي يدعى شهريار الخراساني وانتم من اللصوص . وكان يخشى ، اذا هو عمد الى القوة ان تستغيث اليتيمة بمن حولها من العربان ، فيخسر اولئك الرجال ، وقد تلجأ بعد ذلك الى الاحنف فيضيّعها الى الأبد وهذا ما لا يريده ؛ فعوّل أخيراً على الاحتفاظ بشهريار ريثما ينتقل من كرمان الى جبل الزهاد ، وهناك، في ذلك الجبل ، ينظر بالاشتراك معه ، في أمر الفتاة التي يذوب شوقاً الى رؤية وجهها الوضاح الذي وصف له . وكان شهريار يريد الخروج من المنزل ليختار له رجلاً عربياً يبعث به الى مرو الروذ ، والملك يمنعه من ذلك ، وكلما لجّ في طلبه ، أسمعه نغمة جديدة من نغمات الدهاء، حتى نفذ دهاؤه وضعفت نغماته، وأحسّ شهريار بعجز آسره، عن اختراع الاعذار . على ان يزدجرد لم يعجز الى النهاية ، فقد عمد الى وسيلة يبلغ بها غايته دون ان يلجأ الى النهج القديم ، الذي تعود أن يخدر بـه أعصاب أسيره .

لقد أمر عبده ، بان ينقل كلاماً الى رئيس الحراس ، الذي يطوف متنكراً ، في نهاره وليله حول ذلك المنزل ؛ فأقبل ذلك الرئيس ، بعد يومين يستأذن على

يزدجرد ، فأذن له ، وهو يعجب لطلبه ويقول لشهريار : لا يمثل هذا الحارس بين يدي الملك الا لأمر .

فلما دخل قال له : لقد حدث في كرمان حادث فما هو ؟

– لم يحدث شيء يا مولاي ولكن خيل الي ّ ان جواسيس العرب يملأون هذا الحي فأحببت ان أذكر ذلك لمولاي .

قال : يعلم الملك ان هؤلاء الجواسيس يملأون كرمان ، ولكن أي شأن له معهم وهو داخل المنزل ، وانتم الحراس المكلفون ان تسهروا على حياته .

– اني لا أخاف ان يخرج الملك من بيته فيقبضوا عليه ..

– وماذا تخاف اذن ؟

– ان يخرج احد هذين الرجلين فتسوء العاقبة .. ! وأشار الى خراذمهر وشهريار .

فقال : لا يخرج الاثنان الا عندما يخرج الملك .

– واسأل مولاي أن يهجر معها الرواق في هذه الأيام ..

– وهل يرى الجواسيس هذا الرواق وجدار السور يحجبه عن العيون ؟

قال : رأيت بعضهم يقف على ظهر ناقته وهو يتظاهر بأنه يضرب الهواء وليست له من وراء ذلك غير غاية واحدة هي ان يتبين ما في الداخل ..

– ومتى أقبل هؤلاء الجواسيس الى هذا الحي ؟

– في هذا الصباح ولم أرَ منهم أحداً قبل اليوم .

– وترى انهم يقيمون حولنا العمر كله ؟

– لا أعلم يا مولاي اذا كانوا يريدون ان ينزلوا ضيوفاً ، في الحي الذي ينزل فيه ملك الفرس .

قال : أتمازح مولاك أيها اللعين .

– وماذا يريد مولاي ان أقوله له وأنا لا أستطيع أن أقرأ ما في قلوبهم لأنقله اليه .

– وهل تستطيع ان تعدّهم ؟

– انهم بضعة عشر رجلاً يا مولاي .
– إذن نحن داخل نطاق من الجواسيس ..
– نعم والويل لنا اذا لاح في الرواق او في الفناء ، خيال رجل او امرأة ، من أهل المنزل .
– وأنت ماذا تصنع في الخارج ؟
– أقوم مع عمالي بنقل الاحجار ، من هذه الناحية الى الناحية الاخرى .
قال: انك من الحراس الذين يستحقون شكر الملك.. اذهب الآن، ولا تتردد في الدخول عندما يخلو الجو .
فسجد شاكراً ، ثم خرج وقد مثّل دوره كما أمره الملك . فقال يزدجرد عندئذٍ لشهريار :
أبقي لك ما تقوله بعد هذا الخبر الذي سمعت ؟
قال : أضمن لمولاي اني اخرج من الفناء دون ان يراني أحد ..
قال : لم أرَ رجلاً من رجال الملك ، يلحُّ في طلب الخروج كما تلحُّ انت .
– وهذا معناه انه ليس بين الرجال من يهتم لأمر مولاي كما أهتم له أنا ..
– وما هي غايتك من الخروج ؟
– لقد ذكرت للملك هذه الغاية اكثر من مرة واعيدها الآن .. اني أستطيع وأنا في السوق ، ان أخدم ملكي اكثر مما اخدمه وانا في هذا السجن ..
– ألا يطيب لك ان تكون سجيناً مع حفيد الاكاسرة ؟
– يطيب لي ان أموت عند قدميك يا مولاي، ولكني أكره ان استخفي في سجني ، وأنا قادر على الطواف في البلاد كما يطوف سنجان ، استغيث بابطال فارس المغاوير وأدعوهم الى طرد الفاتحين الذين اغتصبوا العرش .
قال : حسبك ان الملك راضٍ بأن تبقى بين يديه .
– لو فكر الملك في الأمر لراى ان الانصراف خير من البقاء ..
قال : يظهر انك لا تحب الملك كما يجب ان تحبه .
– وكيف ذلك يا مولاي ؟

– تريد ان تنصرف وانت تعلم ان في هذا الانصراف خطراً على ملكك ومع ذلك فأنت لا تبالي .. اتحب ان تدفع الملك بيديك الى ايدي اعدائه ، ليستولوا على ما بقي له من المال ، ويسبوا نسلهه ، ويجعلوه عبداً لذلك الرجل الحجازي الذي يقال له عثمان ويدعونه امير المؤمنين ؟!

– لا تستطيع العرب ان تفعل ذلك ونحن احياء .

– بل تستطيع ان تفعله عندما يقول يزدجرد قولاً ولا تسمعون له .. امرناك بالبقاء فابق ، وحسبك كما قلنا لك ، انـك نديم الملك ، وامين سره ورفيقه في منفاه ، وانه لشرف لم تكن لتحلم به والملك في بلاطه .

وعندما كان شهريار يحاول الفرار من سجنه وهو عاجز عنه، كان طارق بن عبدالله يروح ويجيء في اسواق كرمان واحيائها باحثاً عنه . وكأنه كان يبحث عن القمر في الليلة السوداء ، حتى مرّ شهر كامل على رجوعه ، وهو لم يره ، ولم يقص عليه احد خبراً من اخباره .. فقال في نفسه ، هذا دليل من دلائل الخيانة التي لم تخطر لي . وتعب في التفتيش عن امهرز ، الذي نام ليلة في كوخه ، مـع شهريار . ان امهرز ترك كرمان الى طوس ، مستعيناً بالاسفار على جور الزمان الغدار ، وطارق لا يعلم . ولم يكن في كرمان رجل يعرفه ، ليجعله عوناً له على الأمر الذي قدم من اجله ؛ فضاق صدره ، ولم يرَ الا ان يرجع ثانية الى مرو ، وهو يفكر فيما يقوله لعمه وابيه، بعد ذلك الشهر الطويل الأيام . وكان عزاؤه، فكرة واحدة هي ان يزدجرد انتقل الى بلد آخر فخطر لشهريار ان يلحق به . وهذه الفكرة هي التي تثبت براءة الرجل للاحنف الذي لا يرحم . وقـــد ارتاحت نفسه الى هذه الناحية من التفكير وايقن بان عمه واباه سيصدقان مـا يقوله لهما . وعندما انتهى طارق الى مرو الروذ انتهى سنجان الى كرمان راجعاً من مهمته ومثل في الوقت نفسه ، بين يدي الاحنف رجل عربي يحمل كتاباً من عبدالله بن عامر امير البصرة . وكان ذلك عند المساء ، وقد انصرف اهل البـلد الى منازلهم وهم يتحدثون بأمر ذلك الرسول الحامل كتاب عبدالله . وقـام في الاذهان ان الحرب على الأبواب ..

* * *

اضطرب يزدجرد وخفق فؤاده عندمـا رأى سنجان ساجداً عند قدميه ، وقد قام في ذهنه انه يحمل اليه اخبار خيبته وفشله . وكان مطرقاً وشهريار في الجانب الآخر من تلك الحجرة الصغيرة التي تقوم مقـام قاعة العرش ، فاستوى جالساً وقال له : ماذا فعلت ايها الرجل ؟

– فعلت ما امرني به مولاي الملك .

– وزرت جميع الاقاليم ؟

– زرت اقاليم خراسان الكبرى يا مولاي .

– كلها ؟

– نعم ومررت بسجستان .

– إذن كنت ذا جناحين تطير بهما من ناحية الى اخرى !

قال : لم اضيّع ساعة واحدة من الزمان الذي مرّ .

– ومن رأيت من المرازبة ؟

– صاحب سجستان وقـد عاهدني على نقض الصلح الذي تمّ بينه وبين العرب ..

– وصاحب نيسابور ؟

– ووضعت يدي بيد صاحب نيسابور ثم ذهبت الى البسطـين اللذين هما بابا خراسان وأوغرت فيهما صدور القوم وهم الآن يعدّون العدة للحرب .

– وطوس وما حولها ؟

– وأهل طوس ونسا وحران يحملون السيف .

فأشرق جبينه قائلاً : اذا كنت صادقاً فيما تقول فقد بلغنا الغاية .

– اني صادق يا مولاي وسترى بعينيك .

– ولكنك قلت انك ستجعل أبناء الامراء رهائن لدى الملك .

– أجل ، وقد وفيت بما وعدت يا مولاي .

– وأقبلت الرهائن ؟

– نعم فلدى الملك الآن ألف فتى من صغار الامراء .

– وأين هم ؟

– في السهل البعيد شرقي كرمان .

– ذلك الذي ينتهي عند جبل الزهاد ؟

– بل ذلك الذي ينتهي عند نهر برز .

– ومعهم السلاح ؟

– نعم يا مولاي ولكنهم يخفون سلاحهم في الخيام ويتظاهرون بانهم عشيرة انتقلت من الغرب الى الشرق في طلب الرزق .

قال : لقد ظهر للملك انك من اولئك الرجال الذين يحسنون قيادة الجيوش الى ميادين الظفر .

– قل يا مولاي اني من الرجال الذين يحسنون الطاعة .

– حسبك ان الملك راض عنك وسينظر في امرك عندما يسترجع عرشه .. صف لنا الآن خطة القتال التي وضعت .

– اما خطة القتال في مرو فسيضعها الملك .

– وقتال اهل الأقاليم لا يسيرون الى مرو .

– وماذا يصنعون ؟

– يسعرون النار في أقاليمهم فتخرج العرب اليهم من كل ناحية فيخلو لنا الجو .

– ومتى يبدأون بذلك ؟

– يحملون لواء العصيان في مطلع الشهر القادم كأنهم جيش واحد يرأسه قائد واحد .

قال : ماذا ترى يا شهريار ؟

– أرى الحكمة والدهاء فيما يقوله سنجان ولكن متى يخرج الملك من كرمان ؟

– بعد عشرين يوماً وبعد خروجه تخرج كرمان عن طاعة المسلمين .

قال : أيأذن لي الملك ان أقول كلمة ؟

– بل نأمرك بان تقول ما يخطر لك .

– الى اي بلد يذهب الملك بعد خروجه ؟

فقال سنجان : الى جبل الزهاد .

– وينتهي الى ذلك الجبل في اربعة أيام أليس كذلك ؟

– بلى !

قال : نحن اليوم في غرة الشهر ، فاذا غادر الملك كرمان في العشرين منه بلغ الجبل في اليوم الرابع والعشرين .

– هو ذاك !

– تندلع بعد ذلك ألسنة اللهيب في خراسان كما تقول وتزحف العرب الى هذه الاقطار لتخمد النار .

– نعم !

– وماذا يفعل الملك عندئذ ؟

– يبقى في الجبل ريثما يزحف القوم ويخرج الاحنف من مرو الروذ .

– ولكنك نسيت ان الملك في ذلك الجبـــل يكتنفه الخطر من النواحي الاربع وقد يضيع الامل الذي نتعلل به .

فقال يزدجرد : اما نحن فلم نفهم شيئاً مما تقول .

– ستفهم يا مولاي كل شيء عندما أقول كل شيء ..

– دلنا أولاً على موضع الخطر الذي ذكرت .

– موضعه الجيش العربي الزاحف من البصرة فقد يمر بجبل الزهاد وتقع عين قائده على جيش الملك ...

وكان خراذمهر حاضراً فقال : لم أرَ في ذلك الجبل عربياً قط .

قال : أتضمن حياة الملك ؟

فتردد في الجواب ، فقال سنجان : وتضمنها انت ؟

– نعم افعل اذا اراد الملك ان يصغي الى اقوال عبده ..

فقال يزدجرد : قل فنحن مصغون اليك .

قال : اتعرف يا مولاي ذلك الوادي الذي يقال له وادي خواست ؟

– وأين هو ؟

– وراء ذلك السهل الذي وصفه سنجان .

– يخيل الينا اننا نعرفه .

– اذن فالجأ اليه فذلك خير لك . .

– وبعد ذلك ؟

– تزحف الجيوش الى خراسان فتقود جيشك الى مرو الاولى وتبلغ الغاية .

وقد اراد شهريار ان يضيع الملك الزمان، في اعداد عدة القتال، ويبعده عن مرو الشاهجان شهراً أو بعض الشهر خدمةً للعرب . فقال الملك : اصغينا اليك وسنفعل ما اشرت به .

– وستعلم يا مولاي اني كنت مصيباً فيما رأيت .

فوضع يده على جبينه وارخى نظره الى الأرض كأنه يفكر في امر آخر .

ثم قال لخراذمهر وسنجان : لنا كلام نقوله لشهريار فاخرجا .

ولما انصرفا قال : نعود الآن الى ذكر اليتيمة .

– ماذا يا مولاي ؟

– لقد قرب اليوم الذي نترك فيه كرمان كما رأيت فهل لك ان تدل الملك على الوسيلة التي يستطيع معها ان يرى ابنته ؟

– قلت لك من قبل يا مولاي انك تستطيع ان تراها في المنزل الذي تقيم به على الشاطيء .

– قبل ان يزحف المسلمون الى خراسان ؟

– بل بعد زحفهم يا مولاي .

– وتبقى جنودنا في وادي خواست ؟

– أؤثر ان تبقى فيه دون ان تراها العيون ، على ان تجيء الى جبل الزهاد وتراها كل عين . .

– وانت واثق بان طوائف العرب النازلة على المرغاب لا تشعر بوجود الملك ولا تنصب له شرك الوقوع في الاسر ؟

– اجل يا مولاي ، انا واثق بان العرب لا تمد يداً ، الى ضيف شهريار ولو عرفت انه يزدجرد العظيم ..

– وطارق بن عبدالله الذي وصفته لنا ؟

– اني اخشى هذا الفتى يا مولاي من ناحية واحدة .

– ما هي ؟

– هي ان يحاول الفرار باليتيمة فتسوء العاقبة .

قال : سنعمد الى وسيلة نخدع بها طارقاً وينتهي الأمر .

– وسأكون انا يا مولاي العبد الطائع الذي يفعل ما تأمره به ، دون ان يتردد فيه او يسألك عنه .

قال : يكفي انك من المحسنين الى الملك ..!

– انا ؟!

– نعم أنت !

– وهل يحسن العبد الى مولاه ؟

– اجل، فقد ربيت ابنة الملك خمسة عشر عاماً وهذا خير ما يفعله المخلصون والان أتعلم ماذا نطلب ؟

– مر يا مولاي !

– نطلب ان تنسى الفتاة غرامها بذلك العربي .

– وهل يرى الملك ان امر العاطفة والقلب في يد شهريار المسكين الذي هو خادم اليتيمة ؟!

– بل يرى ان الفتاة التي احبّت بمثل هذه السرعة ، ترجع عن حبها عندما يخطر لك ان ترجعها عنه ..!

– لم يكن لي يد في هذا الحب يا مولاي .

– نعلم ذلك ولكن ستكون لك يد في حمل الفتاة على ان تنساه كما قلنا لك فعدنا بهذا .

– اعد مولاي باني سأبذل الجهد كله في سبيل غايته .

ثم قال : على اني اظن ان اليتيمة ستنسى حبها عندما ترى اباها وتعرف انه أعظم ملوك الشرق ..!

فابتسم ابتسامة الألم ثم قال:ولكنها ستعرف في الوقت نفسه ان الملك العظيم لا يجسر على الظهور في بلاده سافر الوجه ... وان عرشه امسى ملكاً للمسلمين فهو غريب في ارض ابائه واجداده .

– خير لك يا مولاي ان تنظر في هذا الأمر ، عندما نبلغ جبل الزهاد ونلبين زحف الجيوش .

فجعل يقول : سنفعل ذلك نعم، ولكن هذا القلب الذي حطمته الحادثات، يحدثنا الآن بان الفشل سيكون نصيب الملك ، في امر ابنته ، كما كان نصيبه في أمر تاجه ..

واغمض عينيه ثم استند الى وسائده وجعل يستعرض حاضره وماضيه ، والبكاء يتردد في صدره ، وعزة الملك تصارع ذلك الضعف الذي استولى عليه.

فكره شهريار ان يشهد كآبة مولاه ، فقام فخرج وهو يقول في نفسه : لقد صبرت جهان روز على جورك ، فأصبر يا يزدجرد على جور الزمان ، اذا استطعت .

وكان سنجان يهامس خراذمهر في الرواق قائلاً له : الويل لنا وللملك من شهريار اللعين الذي خان قومه ..

* * *

– ٣٨ –

أتحمل أيها الرسول كتاباً من أمير البصرة ؟

– نعم يا مولاي !

فقال الاحنف لطارق ابن اخيه وكان قد دخل مجلس عمه : اقرأه يا بني وسنسألك عن مهمتك بعد قليل .

فقرأ الفتى : من عبدالله بن عامر عامل امير المؤمنين على البصرة الى الاحنف ابن قيس عامل المروين: اما بعد فقد بلغنا ان بعض اهالي خراسان يتحفزون للوثوب فلم نشأ الا ان نفاجئهم بالسيف ونخمد نار الثورة التي تتأجج في الصدور ، فتهيأ للزحف فقد جعلناك على مقدمة الجيش وسنلتقي في كرمان .

فالتفت الامير الى رجال المجلس قائلاً لهم : اما ان الفرس يتحفزون للوثوب فتلك عادتهم وهم لا يكفون عنها الا اذا داست اجسادهم حوافر الخيل ، ولكن من قال لأمير البصرة انهم يتهيأون اليوم للقتال ونحن لم نسمع شيئاً من هـذا ولم يرد علينا من النواحي خبر الثورة التي يذكرها في كتابه ثم قال للرسول : مـن خبر الامير بذلك ايها الفتى ؟

– لا أعلم يا مولاي !

– ألست من رجاله ؟

– بلى ولكني لا أسأله عن شيء ولا افعل الا بما يأمرني به .

قال : وهل تعرف أوس بن حبيب التميمي ؟

– نعم وقد كان لأوس رأي فيما كتبه الامير اليك .

فابتسم قائلاً : ليس في البلاد ثورة كما يقول ابن عـامر ، ولكن الرغبة في الفتح ، أملت على أوس ابن عمنا ومن حوله مـن بني تميم ان يخوض الميادين من جديد ويضعوا أيديهم في فارس على كل شيء . نحن نعلم اي رجل هو ابن حبيب . ولكن متى يجيء ابن عامر الى كرمان ؟

– من يعلم فقد ينهي اليها بعد شهر او شهرين وقد يمرّ باصبهان .

قال : يأمرنا بالمسير اليها وهو لا يجعل موعداً للقاء ؟

قال : هذا كتابه بين يديك فافعل ما يخطر لك .

قال : خذوه الى دار الاضياف وسيحمل جوابنا غداً ، وقال لطارق : قدمت الآن ؟

– نعم يا عمّ ولم أرَ في مرو الروز غير اهل السوق .

– أي انـك لم تمرّ بالمنزل ولم ترَ مـن فيه ، ان اهل المنزل بخير . وسيجيء

أبوك بعد قليل فنسأله رأيه في الحرب . وهذا ابن عامر يأمرنا بالزحف الى كرمان كما قرأت فالويل ليزدجرد فقد دنت ساعته .

قال : لو دخلت جنودك بيوت كرمان واحداً واحداً لماوقعت العين على من ذكرت .

قال : أفرَّ الملك ؟

– لا أستطيع ان أعلم أي شيء جرى لهذا الملك .

– وكيف تقول ان الجنود لا تستطيع ان تراه ؟

– لأني لم أرَ شهريار وقد مكثت شهراً وانا اسأل الناس في القصور والاكواخ والاسواق دون ان أسمع خبراً واحداً عنه .

فظهر الغضب في عينيه وقال : هذا ما خطر لنا من قبل وقد ذكرناه لك ولأبيك ،

ودخل في تلك اللحظة عبدالله وهو يقول لولده : عرفت الان انك في مجلس الأمير وقد قدمت منذ ساعة .

فقاطعه الاحنف قائلاً : ولكنك لم تعلم ان الارض فتحت فاها وابتلعت شهريار . .

فتراجع الى الوراء وجعل يحدق الى أخيه ثم قال : ألم يجد طارق شهريار في كرمان ؟

– بل لم يسمع خبراً من اخباره . !

– ويزدجرد ؟

– وكذلك يزدجرد فقد حملته السحب الى عالم آخر !

فنسي ان يعانق ولده وجعل يقول : ان الله عزَّ وجلَّ يهب النصر للمسلمين في حربهم ويخذلهم في امر القبض على هذا الملك الذي تسيلُ من اجله الدماء .

والتفت الى طارق وقال : حدثنا بما فعلت يا بني .

قال : كنت واثقاً باني سأرى في كرمان ، ذلك الرجل الذي بتنا في كوخه ليلتنا الأولى ، ولكني لم اجده وقد قيل لي انه رحل عنها الى بلد آخر .

– ثم ماذا ؟

– ثم انقضى الشهر وليس في كرمان رجل يعلم شيئاً عنه وعن يزدجرد .

فقال الاحنف : وهل بقي لك ما تقوله عن الرجل ؟

– بقي أن ادافع عنه حتى أعلم اين هو ؟

– انه الآن بين يدي ملكه .

– بل هو يتبعه من بلد الى بلد حتى يظفره الله به .

– اما نحن فيطيب لنا ان نظن ان خيانته قد ظهرت وقد لمسنا الان هـذه الخيانة بالايدي وانتهى كل شيء .

قـال : لا أستطيع ان اصدق ان الخائن يجعل ابنته في منزل القوم الذين يخونهم ثم ينصرف !

– قلنا لك من قبل ان اليتيمة ليست ابنة له .

– لو لم تكن ابنته لما احبها الحب كله .

– لقد احبّ المال الذي يبذل له مـن اجلها ليس غير ، وان طارقاً ابن عبدالله عندما يتزوج اليتيمة يتزوج فتاة لا يعرف اباها . !

قال : كفى يا عمّ فاليتيمة بريئة .

– اجل بريئة ، ولم يكن لها يد في الامر الذي انتهت اليه ، ولكنها في نظر عمك الاحنف وابيك عبدالله فتاة لا نسب لها فهي لا تليق بأن تكون من نساء بني تميم !

قال : سيعود شهريار فنعلم سره .

فقهقه ضاحكاً ثم قال : رآك مـن العشاق الذين برح بهم الغرام ، فجعل الفتاة في منزلك كأنه يقول لك :

تزوج عندما تشاء ! ثم رحل على امل ألا يعود ، ثم قال : واي شريف من أشراف العرب يجعل ابنته في منزل الفتى التي تحبه ثم ينصرف وهو لا يبالي ؟

قال : جعلها في بيت الرجل الذي أرضعتها زوجته واحسنت اليها واليه .

– ومع ذلك فهو لن يعود وستذلّ قومك .

– بماذا يا عمّ ؟

– بهذا الزواج الذي ستتحدث به العرب في خراسان، والبصرة والكوفة ، والحجاز ، وفي مجلس امير المؤمنين نفسه .

– وماذا تقول العرب ؟

– تقول : ضيمت فتاة من الفرس نسبها فتزوجها سيد فتيان بني تميم !

– بل تقول : تزوج طارق ابنة شهريار الخراساني الذي ترك قومه ودخل في الاسلام .

– واذا سألوك اين هو شهريار الخراساني فماذا تقول ؟ أتقول انه مات في سبيل الدفاع عن المسلمين ؟

– اقول انه يبحث عن يزدجرد ليدفعه الى يد الفاتح العربي .

– ثم تمر الايام والاعوام والناس يرون انه لم يرجع !

– اني واثق بوفائه يا مولاي .

– ونحن واثقون بأنه خائن .

فاطرق الفتى ملياً ثم قال وهو يتردد : لقد رأيت رأياً .

– وانت تتردد في ابدائه . قل ما هو .

– هو ان الزواج لا يتم الا بعد ان يثبت لك وفاء الرجل .

– وكيف يثبت هذا الوفاء ؟

– بواحد من امرين ، اما ان يعود شهريار حاملاً اليك اخبار الملك ، واما ان ينتهي اليك انه قد قتل .

فاضمحلت اثار الغضب وجعل يقول : انه رأي لا بأس به ولكن أتقسم الان انك ستفعل ما قلت ؟

فوضع يده على جبينه كأنه يشاور نفسه في امر هذه اليمين التي ستكون قيداً لغرامه ثم قال : اجل ، اقسم ب...

قال : لا تقل كلمة فأنا املي عليك . اسمع يا عبدالله واشهد ، قل يا طارق : احلف بمن رفع السماء وبسط الارض اني لا اتزوج اليتيمة الا بعد ان يعود شهريار وأعرف سره او بعد ان يموت .

ــ ولماذا تعود الان الى ذكر سره ؟

ــ لان نسب الفتاة يتعلق به .

فاحسّ العاشق ان الارض تهتز تحت قـــدميه ، ولكنه لم يستطع ، وهو الشريف الابي ، الا ان يردد تلك الكلمات الخطيرة التي املاها عمه الداهية ، وقد شعر بأن الموت اهون من ذلك .

واختنق صوته وهو يقول : لا اعلم اي هوة هي التي قذفت بنفسي اليها الان .

قال : بقيت اليمين التي احلفها انا ويحلفها ابوك .

احلف يا عبدالله برافع السماء وباسط الارض انـك ستقتل اليتيمة اذا لم يبرّ طارق في يمينه !

فاقسم عبدالله ثم اقسم الاحنف بدوره ورفع صوته قائــلاً : ليرجع شهريار عندما يشاء، ولتقم اليتيمة بيننا ما طابت الاقامــة لها ، فقد أنقذنا الان شرف العشيرة !!!

وابتسم قائلاً للفتى : وأما انت يا بني فعالج هواك بالصبر حتى يتم لك الامر.

فقال وشفتاه ترتجفان : اذا كان شرف العشيرة بالموت فقد آثرت الموت على العار ...

وقام فخرج وهو يترنح كالسكران ، ولكن كان في صدره بقية من الرجاء، هي ان شهريار من الاوفياء ولا يلبث حتى يعود . وتمسي اليتيمة عندئذ زوجة له.

* * *

- ٣٩ -

كان طارق يبتسم ، عندما رأتــه اليتيمة في فناء المنزل ، ولكن خيل اليها انه يتكلف الابتسام ، وانها ترى على جبينه سطور اللوعـــة والهم ، مكتوبة بحروف سود . وقد احست ، وهي تصافحه ان يده ترتجف في يـدها ، وان في صوته نغمة اليأس وخيبة الرجاء . ولم تشأ ان تسأله ، وهما يمشيان الى احـدى القاعات ، عن أبيها شهريار ، لانها كانت تعلم من حديث القلب ان اباها لم يعد .

وهو نفسه لم يشأ ان يقول لها كلمة قبل ان تسأله ، حتى جلس الاثنان ، والتقى النظران . وجال الدمع في عينيها الساحرتين، ثم قالت: الم ينتهِ ابي من هـــذا الطواف الذي يقوم به ؟

قال : لا ينتهي هذا الطواف الا بالعثور على مقر الملك ..

– يظهر انه يبحث عن الملك في الشرق ، وهو في الغرب ..

– هذا ما يبدو لي وانا اظن ان الملك ضاعت اثاره ..

– ومتى يعود ابي الى مرو ؟

– لا اعلم متى يعود ايتها الحبيبة فقد يكون ذلك بعد يومين او بعد شهرين .

قالت : لو عهد اليّ كما عهد الى ابي في التفتيش عن يزدجرد لتركت كرمان منذ اكثر من شهر وانتقلت الى بلد آخر .

– وهذا ما فعله شهريار ..

– ترك كرمان ؟ – نعم !

– الى اين ؟

– لو كنت اعرف البلد الذي ذهب اليه لما رجعت اليوم الى مرو .

– إذن سرت الى كرمان ورجعت دون ان تراه .

– اجـل !

– وانقضى الشهر وانت لا تعلم شيئاً عنه ؟

– اجـل !

قالت : كنا نطلب رجلاً فاكرهتنا الأقدار على ان نطلب اثنين .. لقد قضى ابي زمانه كله في الطواف وانا اجهل غايته ..

وجعلت تبكي وتقول : اني خائفة ..

قال : ليست هي المرة الاولى التي يترك فيها ابوك منزله .

– ولكني لم اخف قط كما أخاف الآن .

قال : ليس في الأمر ما يدعو الى الخوف فقد عرف على ما يظهر ان الملك رحل عن كرمان فلحق به .

– لم يتعود من قبل ان يغيب عن المرغاب اكثر من شهر ..

قال: كان يخشى ان تجني الوحدة في المرغاب على يتيمته، اما اليوم فاليتيمة في مرو الروذ وهي احبّ الناس الى عامل المروين والى القوم الذين حوله ..

قالت : اخشى ان يعلم انصار يزدجرد ان ابي من اعدائه فيحكم عليه بالموت.

– وكيف يعلمون ذلك وأبوك يمشي الى غايته من وراء الستار .

وقد أراد طارق في تلك اللحظة انيسبر غورها في قضية الزواج، فقال وهو يتكلف المزاح : ألم يقل للأحنف قبل ان يغادر مرو الروذ ان اليتيمة لا تزف الى طارق الا في العام المقبل .

– بـلى !

قال : بيننا وبين العام المقبل بضعة أشهر لابد من ان يعود في خلالها الى مرو فينتهي عندئذٍ كل شيء .

– وان لم يعد ؟

– نعمد الى الزواج في مطلع العام وهذا خير ما نلجأ اليه .

– وهل نسيت ذلك السر الذي وعد بأن يبوح لنا به قبل ان نمسي زوجين؟

– يبوح به بعد ذلك ..

– ولكن الفتاة لا تخون اباها في عهده ..

– ليس في الأمر خيانة فهو الذي جعل العام المقبل موعداً للزواج .

– وهو الذي يجب ان يكون في مرو الروذ ليشهد زواج ابنته ..

– إذن فانت لا تتزوجين الا بعد ان يجيء .

– وبعد ان اسمع من جديد كلمة الرضى من فمه ..

– اما انافسألج في طلب الزواج واناواثق بانك لا تستطيعينالا ان تسمعيلي.

– وتريد ان يقول الناس اني عبثت بكرامة أبي وانتهكت حرمته ؟

– وانت ، اتريدين ان يقتلني غرامي وينتهي بي الى الموت ؟

قالت : بي مثل ما بك ايها الحبيب فلا تتعجل في الأمر .

قال : لنفترض ان العام انقضى ولم يرجع أبوك ..

– خير لي ان تمر الاعوام وانا كما انا من ان يتحدث المسلمون بأمري ثم يقولون: آثرت اليتيمة هواها على أبيها وتزوجت وهو لا يعلم ..

قال : ارى انك تمزحين لتلمسي بيديك غرام طارق .

قالت : لا يطيب لي المزاح في مثل هذا الموقف وانا اقسم لك اني سأفعل كل ما قلت . فرأى الفتى ان أمر الزواج انتهى الى ما يحب دون ان يبوح لها بما جرى بينه وبين عمه وأبيه ، فقال : انه حكم جائر على القلبين ..

– ومع ذلك فنحن مكرهان على الرضى به وليفعل الله ما يشاء . قل أأنت راض ام ماذا ؟

فتظاهر بالتفكير ثم قال : وان لم أرض فماذا تصنعين ؟

– انصرف غداً الى المرغاب فامكث بذلك المكان المنفرد وابكي غرامي حتى يعود أبي اليه ويسلم شرفي !

– ولكنك لا تستطيعين الانصراف وانا حاضر !

– إذن اقتل نفسي قبل ان يكتنفني العار ..

فحنى رأسه قائلاً : لقد اكرهني القدر على الاحتمال فلا حول ولا قوة الا بالله

قالت : عدني بانك لا تفكر في الزواج وأبي غائب ..

– اردت ذلك فليكن ما تريدين ..

– أقسم لي .. – فأقسم لها !.

ثم رأى الاثنان انهما امسيا داخل نطاق من العهود ، فبكيا ..

ولم تلبث الشفاه حتى انفرجت لخاطر خطر لهما هو ان شهريار سيعود قبل ان ينقضي العام ..

* * *

– ٤٠ –

ضاق صدر شهريار في ذلك السجن كما رأيت ، ولو استطاع ان يبعث الى الاحنف رسولاً يحمل اليه أخباره وأخبار يزدجرد لطابت نفسه وآثر البقاء بين يدي الملك على الفرار . ولكن الملك لا يأذن له في الخروج ورجال الملك رجال امناء يمنعونه من الهرب اذا خطر له ان يفعل ، والحراس حول المنزل ، يحملون

جسده جرحاً واحداً اذا جعل السور وسيلة لفراره .. ويكفي شهريار ، ان عدوه سنجان بالقرب منه ، وهو ينظر اليه بعينين تتأجج فيهما النار ، ويعدّ له، من وراء الستار عدة القضاء عليه . والملك لا يطيق ان يبتعد عنه ، لانه يريد ، وهو في نكبته ، ان يرى تلك الفتاة التي نشأت في ظله وهي قطعة من روحه . ولم يكن واثقاً به الوثوق كله، بل كان يريد ان يجعله اداة لنيل غرضه وقد قرأت شيئاً من هذا في الجزء السابق . وكيف يثق به ، وقد اعترف له بانه مسلم بين المسلمين يصلي في مساجدهم ، ويجالس امراءهم ويسألهم حاجاته فيقضونها له ! يستعين يزدجرد بهذا الخراساني على حمل ابنته الى المعسكر، ويستعين به في وضع خطة القتال والاستيلاء على مرو الاولى، وقد يخطر له بعد ذلك ان يكافئه ويعترف بفضله ، فيومىء الى الجلاد فيضرب عنقه .. ويستريح من هذا الخائن ، الذي يلبس كل يوم ثوباً ويكون فارسياً عندما يشاء .

ويظهر ان الاثنين الملك وشهريار كانا يتبادلان الحب.. وقد جاوز شهريار في حبه كل حدّ ..

انه لم يكن يريد ان يموت الملك كما يموت جميع النـــاس ! بل كانت غايته ان يقهره ويسحق فؤاده ، ويحطم قواه ، ثم يدفعه الى أيدي اعدائه قائلاً لهم : هذا هو الرجل النذل الذي تطلبون . أجل ، انــه يستطيع ان يقتله بيده ، ولكن كان يخاف ان يقتل هو في أثره، ولا يطيب له الموت قبل ان تعرف اليتيمة كل شيء . وهو لم يضع المنهاج الذي يتمشى عليه ، بل كان يفكر في أمر واحد هو ان تمثل اليتيمة بين يدي أبيها ثم يقول لها: هذا قاتل امك ..! وهذه الكلمة تسحق قلب الملك سحقاً وليس افظع من موت رجل تلعنه ابنته قبل ان يلفظ الروح .. على ان الاقدار لم تكن مكتوفة اليدين . هذا شهريار ، من هــذه الناحية ، يفكر في انتقامه ، وهذا سنجان من الناحية الاخرى ، يتـآمر مع خراذمهر . وقد دخل على الملك يوماً ، وشهريار في الحجرة التي أعدت له وهو يغطّ في نومه ، وقال له : أتشك في اخلاصي لك ولعرشك يا مولاي ؟

وكان الملك في فراشه وهو يهمّ بان يطبق جفنيه ، فقال : لماذا تسألنا هذا السؤال في مثل هذه الساعة ؟

– لاني احسّ ان الملك لا يثق بي .

– وهل يطيق الملك ان يقيم الرجل بمنزله وهو لا يثق به ؟

– قد يفعل ذلك لغاية له .. .

– ليست لنا غاية غير استرجاع العرش وانت من اولئك الرجـــال الذين يبذلون دمهم في سبيل استرجاعه .. قل ما هو غرضك من سؤالك .

– جئت لأقول للملك كلمة تتعلق بعرشه ..

– ما هي ؟

– هي ان هذا الخراساني الذي تبوح له باسرارك رجل لا وفاء له .

وهو عين للعرب عليك وسيدفعنا الى الهاوية ..

قال : لا يأذن لك الملك ان تحدثه بالظنون ..

– بل احدثك بالواقع يا مولاي فالرجل خائن ..

– ومن قال لك ذلك ؟

فعمد اللعين الى الكذب فقال : أرسلت رجلاً الى المرغاب ثم الى مرو الروذ فعرف كل شيء .

– وهو الذي نقل اليك انه من جواسيس المسلمين ؟

– نعم وقد بعثوا به الى كرمان ليحمل اليهم أخبارك ..

والملوك ، في معظم احوالهم ، يؤمنون بالأقوال التي يسمعونها من رجـــال البلاط ، فقال : بعثوا به ليحمل اخبارنا ؟

– اجل وهـــو من اجل ذلك يلجّ في طلب الخروج من هذا البيت لينجو بنفسه ويعود الى اصحابه ..

فوضع الملك الضعيف يده على جبينه وجعل يقول : فكرنا في كل هذا من قبل ، ولم يكن لدينا دليل يثبت خيانته .. وما الراي الآن ؟

– الراي ان يموت !   – هنا ؟

– نعم هنا، وفي هذه الليلة، وسنحفر له في الدهليز الذي ينتهي الى الفناء، حفرة يرقد فيها الى الأبد !

فتمتم قائلاً : لا لا ، اننا لا نريد ان يموت في هذا الليل .

– ومتى إذن ؟

– لا نعلم فقد يكون ذلك بعد شهر او شهرين .

قال : انظر فيما تقول يا مولاي .

– لقد نظرنا فيما نقوله منذ زمن طويل فلا نريد ان يموت .

قال : ذلك معناه انك واثق بوفائه .

– لا ، لم يبق الآن في الصدر ظل لما ذكرت .

– وكيف ترضى بان يبقى الرجل بين يديك ؟

– نرضى بذلك لأننا نحتاج اليه .

– الملك يحتاج الى جواسيس العرب ؟

– قد يحتاج الى العرب أنفسهم ليتم له الغرض الذي يفكر فيه .

– وما هو غرضك يا مولاي ؟

– انه غرض لا يتعلق بالعرش بل بالملك .

– اذن فالرجل الذي يحتاج الملك اليه يجب ان يعيش .

فرأى سنجان ان يلجأ الى وسيلة اخرى ، فقال : اذا كان هذا فلم يبقَ الا ان اسأل الملك ، باسمي واسم خراذمهر ان يأذن لنا في الانصراف .

– الى أين ؟

– الى جبل الزهاد نقضي فيه بهدوء ، ما بقي لنا من العمر !

– وهذه الحرب التي طلبتم الينا ان نخوض غمارها ؟!

– ينظر الملك في امرها مع القواد الذين هم أبعد منا صوتاً وأشد اخلاصاً ، واطول سيفاً !!

– أي انك ترغب مع صاحبك ان تتخلّيا عن الملك !

– نعم يا مولاي وهذا ما يفعله القواد الذين لا يسمع لهم رأي ...

فرفع رأسه قائلاً : لو كان مولاك على عرشه لما كنت تجسر على ان تقول له ما قلته الآن ..

ويلك يا سنان ، نقول لك اننـا بحاجة الى الرجل لأمر يتعلق بنا فتستأذن بالانصراف وتنسى انك تهين ملكك ؟!

– ولكننا لا نستطيع يا مولاي، ان نباشر القتال والرجل في الصفوف.

– قلنـا لك سيموت فلم تصدّق أفتريد ان نكتب لك عهداً ونجعل عبيدنا وجوارينا شهوداً علينا ؟

قـال : عدنا بهذا يا مولاي ونحن راضون ..

– لقد وعدنا وانتهى الأمر .

– وهل يطيب لك ان تذكر اليوم الذي يموت فيه ؟

– يقضي حاجتنا ثم نجعل السيف جزاءاً له !!

– ألا نستطيع نحن يا مولاي ان نقضي هذه الحاجة ؟

– لا يستطيع قضاءها رجل من رجال فارس غير شهريار .

– ولكن تأذن لنا ان نحصي عليه انفاسه ونحيطه بالعيون .

– افعلا من هذه الناحية ما يطيب لكما دون ان يعلم .

– واذا بدر منه بادرة لا يريدها الملك ؟

– نأمر عندئذ بقتله وينتهي الأمر .

– بقيت لي كلمة يا مولاي هي ان تسلم الرجل الي عندما تأتي ساعته .

– لقد سلمناه اليك منذ هذه الساعة .

فخرج اللعين وهو يقول في نفسه : نزعت الولاية من يدي يا شهريار فسأنزع روحك ..

وقد صدر الحكم بالموت على المسكين، كما رأيت وهو يناجي بالحلم روح جهان روز ، ويعدها بقتل يزدجرد .

* * *

– ٤١ –

أتت الساعة وخرج الملك من كرمـــان ، في ليلة مظلمة حجبت غيومهـا نجوم السماء .

شهريار وسنجان وخراذمهر في المقدمة تتبعهم النساء والجواري ووراءهم يزدجرد وخصيانه والعبيد وفي الوسط عشرة بغال تحمل المؤونة والمال .

ذلك هو موكب يزدجرد العظيم ملك فارس ... والسكوت يسود القوم والحراس عن الجانبين يراقبون الافق ويمنعون الثعالب والذئاب من ان تعكر على الملك صفو سكوته وهدوئه . وعيون سنجان وخراذمهر كعيني النسر تعد على شهريار خطواته .. وتحصي عليه النظرات .. ان شهريار المسكين اسير ضعيف بين قائدين قويين . وهو لا يعلم ان القوم الذين يرافقهم من الملك الى احقر عبد فيهم اعداء له لا يطيب لهم العيش الا اذا قتلوه . وسنجان وحده هو الذي أوغر عليه الصدور .. وكان الملك يفكر في ابنته كما يفكر في تاجه ، ولكنه كان ينظر الى مستقبله ، نظرات الخوف والذعر . دفعوه الى الحرب ، بالمال القليل ، والجيش الصغير ، وعدوه الفاتح يملك منافذ فارس وابوابها ، وحصونها وابراجها ، وهو العدو القاهر القوي الذي استولى على كل شيء . وخدعوه بقولهم انه يستطيع الاستيلاء على مرو ، وان اهلها ومن حولها من قبائل وجيوش ، سيهتفون له عندما يرونه قائلين : يعيش ملك الفرس . ثم يقتحمون بسيوفهم صفوف العرب ويسترجعون الملك . على ان الامل لا يفارق صدور الملوك ، الذين تخلعهم الحادثات عن العروش ، ولا يستولي اليأس على ملك الا اذا أبصر الموت بعينيه . ولم يكن بين رجال الموكب واحد يجسر على الدنو من يزدجرد ، ليس لانهم كانوا يخافون غضبه ، بل لأنهم كانوا يخشون ان يزعجوا الملك المخلوع الزاحف الى ساحة الحرب ليشتري النصر بدماء شعبه ، ويقطعوا عليه خط احلامه ، في ذلك الليل .

وهو على بغله ، ترفعه الأماني الى القمّة .. ثم تحطه العاصفة الهوجاء ، الى السفح ... حتى بزغ الفجر ، فضربوا له في ذلك الوادي الذي انتهوا اليه ، خيمةً من جلد تحجبه عن العيون ، وضربوا للنساء خيمةً مثلها تبعد عن الاولى مئة ذراع . واضطجع الرجال والخصيان حول الخيمتين حتى طلعت الشمس . ثم تفرقوا في ذلك الوادي خوفاً من ان يلفتوا الأنظار ، ولكن لم يمرّ بذلك الموضع بشري في ذلك اليوم ! الى ان جن الظلام فمشوا وباتوا يمشون حتى لحقوا بجيش الرهائن

في السهل الذي يجاور نهر برز ، ومثل فرخزاذ قائد الجيش بين يدي ملكه . وبعد ثلاثة ايام بلغوا وادي خواست ، فعسكروا فيه ، وقد عولوا على ان يمكثوا بــه ريثما تزحف جنود العرب الى خراسان . ومرّ يومان كاملان وهم ينظرون في امر جيشهم الصغير الى ان خطر ليزدجرد ان ينظر في أمر ابنته .

* * *

- ٤٢ -

لم يتهيأ الأحنف للزحف كما أمره عبدالله بن عامر ، الا بعد ان اشتعلت النار في جميع الاقاليم . واقبلت رسل العرب تحمل انباء الحرب . حمــل الناس في اقليم كرمان لواء العصيان لا يبالون بذلك الصلح الذي تمّ بينهم وبين العرب ، وثار القوم في سجستان ، ونيسابور وزام وخواف وغيرهـــا من النواحي ، وخرجت المرازبة والعمال فيهــا ينفخون في الصدور روح التمرد على المسلمين . فبعث الاحنف يستشير عبدالله بن عامر ، فورد جوابه يقول فيه : ستملأ الخيل هـــذه الاقاليم التي ذكرت ، وسيجيء سعيد بن العاص في جند الكوفــة الى جرجان فيكون عوناً لجيش البصرة . اما انت فلا تتردّد في قيادة جيشك كله الى كرمان كما كتبنا اليك من قبل .. فقـــال الاحنف لرجال مشورته : نقود جيشنا كله الى القتال ونترك المروين لقمةً سائغة لانصار يزدجرد الذين يستخفون وراء الجدران ونحن لا نعلم من هم ؟! انــه لرأي يخسر المسلمون اذا اتبّعوه . ثم التفت الى اخيه عبدالله قائلا : اختر رجـــلا يحمل كتابنا الى ماهويه الفارسي عامل مرو الاولى .

قال : يحمله من تشاء من الرجال ، اين الكتاب ؟

قال : اكتب .

من الاحنف بن قيس الى ماهويه الفارسي : بلغنا ان الملك وانصاره سعروا النار في الاقاليم فنحن زاحفون لنفتح ارضهم ونخمد نارهم من جديد .. وقــد

ابقينا لك جيشاً تستعين به على الدفاع اذا فاجأتك خيل الملك ، فاحذر.. واعلم انه اذا سقطت مرو الشاهجان في يد العدو سقط عزك ..

هذا كتابنا اليك فاقرأه عـلى مسمع من قومك والويل لمن تحدثه النفس بان يخون العرب .. ثم قال لعبدالله : ابعث اليه بهذا واوص الرسول بان ينقل الينا كل كلمة تقال في مجلسه . فخرج عبدالله ولم يلبث حتى عاد وهو يقول : أتظن ان الملك خرج من مخبئه ؟

– يخرج منه اذا دفعه الجنون .

– او اذا احاطت به الجنود يفدونه بالدماء .

قال : يحتاج الى مئة الف يركبون الخيل ويحملون الحراب ..

– وأين يجد هؤلاء !

– في بـلاد فارس ، فالانصار كثار والاوفياء للعرب اقل مما تظن ، ولكن هؤلاء الانصار لا يجسرون على الظهور .

– اذن فيزدجرد لم يزل وراء الجدران .

– من يعلم فقد يخرجه بعضهم الى الساحة ثم يلتف حوله المخلصون ويمشون في ركابه الى الموت .

قال : سنطوف نحن في بلاد فارس وقد نراه .

– خير لنا ان نراه في الميادين ونأخذه بالسيف مـــن ان نقضي العمر كله باحثين عنه في بلاد تمتد الى منتهى الافق .

قال : قد يخطر له ان يظهر في نيسابور .

– لو خطر له ان يظهر في الهند أو الصين لحطمنا ابراجها على رأسه وحملناه الى بلاده جثة خرساء .

ثم قال : انظر الان في امر الحامية التي ستبقى في مرو الروذ .

– الجيش في مرو الروذ قليل كما ترى فلتكن الحامية من جيش البصرة بقيادة احد الامراء .

– بل تكون من هذا الجيش القليل الذي تعود الظفر في الميادين .

قال : عندنا اليوم ثلاثة الاف .

– انهم ثلاثون الفاً اذا تلاحمت السيوف . !

– ولكن أتقود الفين الى كرمان وتبقي الفاً في مرو .

– بل نبقي خمسمائة لا غير . أين زياد المازني ؟

فقام زياد فقال : انا هنا أيها الامير ؟

– ماذا تقول اذا جعلناك قائداً لحامية مرو

– اسمع واطيع ولكن ..

– ولكن ماذا ؟ – ولكن هذا السيف عطشان !

– ستسقيه من دماء العدو الطامع بمرو الروذ وستكرع أنت في هذه الدماء عندما يشهر السيف .

قال : ليست مرو ايها الامير ميداناً للقتال .

– ستمسي كما تقول عندما يعلم انصار يزدجرد ان الجيش قـــد غادرها الى الاقاليم وان حاميته بضع مئات .

– يظهر انك تريد ان ابقى وسأفعل ما تريد .

– ولكن اعلم ان مرو ستبقى للعرب ولو هاجمها يزدجرد نفسه بجميع جنود فارس . أتعرف معنى هذا .

– اعرف شيئاً واحداً أيها الامير ؟

– وما هو هذا الشيء ؟

– هو انه يجب أن اموت مع رجالي جميعهم حول هذه الاسوار قبل ان يفتح الفرس ابوابها .

قال : احسنت يا زياد فقد عرف الاحنف ان يختار الرجال . والان بقي ان تجعل حاميتك ثلاثة اقسام .

– وكيف ذلك ؟

قال : في مرو عشائر ثلاث ، مازن وتميم وبنو الحارث السلمي فاختر جنودك من هؤلاء لتشترك العشائر كلها في الدفاع .

– وهل تأذن لنا ان نخرج من المدينة اذا فاجأتنا الفرس ؟

– والى اين تريد الخروج ؟

– الى هذه الساحات التي سينزلون فيها ليحاصروا مرو .

قال : ويلك ، تخرج للقاء الالوف من جيش عدوك بخمسمائة من الرجال ؟

– وماذا اصنع اذن ؟ – تدافع من وراء الاسوار !

– لم يتعود المسلمون ان يحتموا بالجدران في حروب فارس . نحن نقتحم القوم بصدور الخيل ونحتمي بالسيوف والرماح .

– ولكنك اذا فعلت ذلك خرجت مرو من يد المسلمين .

قال :تخرج اليوم ثم نسترجعها غداً .

فقهقه قائلاً : خير لنا ان تبقى في يدنا من ان ندفعها الى العدو ، ثم تسيل في سبيل استرجاعها ، عند هذه الاسوار ، دماء الرجال .

قال : لا أعدك بهذا ايها الامير .

– بل تفعل مختاراً ما نأمرك به دون ان يكون لك في ذلك رأي .

قال : تريد ان تذلني في هذه القيادة التي عهدت فيها اليّ !

– لا يذلّ الرجل الا اذا خسر الحرب ونحن اردنا ان تخرج من المجال ظافراً ، وان يبقى العلم العربي خفاقاً فوق هذه الارض .

فقال مازحاً : أخشى ان يثب فرسي من الداخل وأعجز عن ردّه .

قال : نوصيك بان تذكر امراً واحداً هو ان نساء المسلمين وأبناءهم داخل الاسوار فاذا دفعتك الحمية الى الخروج دفعت نساءنا الى السبي .

فقال عبدالله : أطع يا زياد فهذا يكفي .

قال : لقد أطعت .

وكان طارق مطرقاً ونار الغرام تحرق أحشاءه . ان الحرب ستحجب اليتيمة عن عينيه أشهراً وقد تمتد هذه الاشهر فتصير عاماً أفلا يكفيه ان غيبة شهريار تحول بينه وبين الزواج حتى تخلق له الايام حرباً جديدة تبعده عمن يحب ؟ وهل يليق به ، وهو من امراء الجيش ، ان يبقى في مرو مقيما بين النساء وفتيان قومه

يدفعون الخيـــل الى الميادين ليخضعوا عدوّهم بقوة السيف ؟ وأي نبيل عربي يرضى بان يحمل هذا العار ؟ لا .. ان شرف قومه فوق غرامه ، وخير له ان يحطم قلبه بيده ويخنق ذلك الغرام ، مـن ان يتحدث الاشراف بعاره ويجعلوه مضغة في الافواه . ولكنه لا يذهب الا اذا اوصى الاحنف زياداً باليتيمة وهذا ما سيسأله اياه عندما يصرف الناس مـن مجلسه وليقل الاحنف ما يشاء فطارق قد اعترف بحبه وليس في الحب ما يعيبه .

فلما همّ القوم بالانصراف هامسه قائلاً : متى يترك الجيش مرو ؟

– يتهيأ في ثلاثة ايام ثم يسير بعد رجوع الرسول من مرو الشاهجان .

– وهل تريد ان توصي الرسول بأمر أرغب فيه ؟

فابتسم الامير وقد عرف هذا الامر ثم قال لزياد : ابق فقد بقي لنا ما نقوله لـــك .

وانصرف الناس ، فقال : اتعرف شهريار الخراساني ؟

– ومن لا يعرف الرجل النازل على شاطىء المرغاب .

– وتعلم ان له فتاة في مرو الروذ ؟

– أعلم ذلك وهي في بيت الامير عبدالله .

قال : ان شهريار ترك مرو منذ زمن ولم يعد ، فاذا عاد فليعن بـــأمر ابنته ريثما نرجع .

– نعم .

– والا فكن انت أباً لها ولابناء المسلمين .

قال : يكفي ان اعلم انها ستمسي زوجة لأبن اخيك .

ونظر الى طارق ضاحكاً .

فقال الاحنف : ومن قال لك هذا ؟

– المسلمون جميعهم في مرو الروذ يتناقلون خبر هذا الزواج .

اما نحن فلم نتحدث بأمره ولا يفكر طارق في الزواج الا بعد ان يقتل يزدجرد وتصبح هذه الارض كلها ملكاً للعرب . اخرج الان وانظر فيما امرناك به فسنتهيأ للزحف منذ هذه الساعة .

قال : أليس لي ايها الامير ان اختار من الرجال من أشاء ؟

– بلى ! بشرط ان يكونوا من العشائر الثلاث .

قال : لقد اخترت من تميم مئة وسبعين رجلاً اميرهم طارق !!

فاراد ان يمتحن الفتى فقال : ليكن ذلـــك اذا رضي طارق نفسه . ماذا تقول انت يا بني ؟

– لا ارضى يا مولاي .

وكيف لا ترضى وانت ستحمي المدينة وتحمي قومك ؟

– أوثر ان احمي قومي والسيف في يديّ وانا اخترق صفوف العدو .

فقال: لا يطيق الامير من تميم ان يجلس في منزله والنار ترسل السنتها في الاقاليم

كفى يا زياد فطارق لا يبقى . قـــالها وخرج الى منازل الجيش ليعد عدته ووراءه عبدالله ، اما طارق فانصرف الى منزل أبيه ليرى حبيبته ويطلعها على ذلك النبأ المروّع ، نبأ الفراق . وعيناه تدمعان وفؤاده يقطر دماً .

* * *

- ٤٣ -

عاد الرسول من مرو الشاهجان يحمل جواب ماهويه وقـد جاء فيه : سلم اليّ امير المؤمنين مدينة مرو قبل ان تنشب الحرب ، فسأسلمها اليه بعدهــا وانا راض بأن تضرب عنقي اذا خرجت من ايدي المسلمين . فقال الاحنف للرسول : ماذا صنع الرجل وانت في مجلسه ؟

– دعا قومه فقرأ كتاب الامير ، ثم اجمعوا اذا فاجأهم جيش يزدجرد ، على ان يخدعوا ذلك الجيش ويقضوا عليه ولو كان يزدجرد نفسه على رأسه .

– وكيف يخدعونه ؟

– يظهرون له الطاعة ثم ينصبون له شركاً يسقط فيه .

– ويفتحون له أبواب مرو ؟

– كانوا يقولون انهم سيفتحون هذه الابواب ولكن ماهويه لم يكن من هذا الرأي .

– ووافقوه في ذلك ؟

– نعم يا مولاي وهم يضمنون النصر من جانب الحيلة اكثر مما يضمنونه من جانب السيف لان جيشهم القليل اضعف من ان يثبت في المجال .

قال : الفرس رجال حيلة ودهاء وقد مـا لا يبلغون بها مـا لا يبلغونه في ساحات القتال. ليفعلوا ما يشاؤون والويل لهم اذا عمدوا الى الخيانة. ان مرو تسقط عندئذ على رؤوس اصحابها ... وكان الجيش قد تهيأ للسير ؛ فخرجت الصفوف من مرو عند الصباح ورافقها زياد المازني فرسخين وكانت النساء على الاسوار يهتفن لازواجهن وأبنائهن الزاحفين الى مواقف الشرف ، بينهن اليتيمة التي ضعضعتها لوعة التوديع . ومشت الطلائع تريد كرمان .. وكان عبدالله بن عامر قد خرج من البصرة ، وسعيد بن العاص قد خرج من الكوفة ، ولم يخطر لاحدهما ان ذلك الملك الذي يطلبانه معسكر في وادي خواست الذي لا تمر به الجيوش . بل لم يخطر لهما ان يزدجرد الخائف المضطرب يجسر على الظهور في بلاده ، في وضح النهار .

مرّ عبدالله ، بذلك الطريق الذي يجاور جبل الزهاد ، والجبل هادىء ولا ثورة فيه ، وقدم سعيد على طريق جرجان ، وهو لا يبصر جنداً ولا يسمع صوت بوق الحرب . أجل ، كانت أطراف خراسان مستسلمة الى السكينة يسودها السلام والأمن ، وكان قلبها وجناحها الغربي بؤرة الفساد والشر ، حتى انتهى عامل البصرة الى كرمان ، وقد سبقه الاحنف اليها ونزل في ذلك السهل الفسيح الذي يمتد الى الشمال ، وقد أمر جيشه بألّا يباشر حرباً قبل قدوم عبدالله بن عامر . وقد رأى ان اهل كرمان يتحفزون للقتال .

فلما التقى الجيشان ، قال عبدالله للاحنف : ماذا رأيت يا ابن قيس ؟

قال : رأيت قوماً ينكثون العهود ويتحفزون للوثوب .

– ويزدجرد بينهم ؟

– لا أعلم، ولكني أظن انه اضعف من ان يتصدى وجهاً لوجه للجند العربي .

– إذن يغذيّ الفتنة وهو داخل الجدران .

– اجل، وهذا ما يفعله منذ خلع عن العرش وفرّ من المدائن .

قال : سيظفرنا الله به كما اظفرنا ببلاده ، وماذا عرفت عن الجيش الثائر في كرمان ؟

– ايسأل الأمير عن عدده ؟

– نعم !

– هب ان عدده عشرة الاف فنحن لا نبالي .

– ولكن كان يجب ان تعلم ذلك لنتدبر امر الحرب .

قال : رايت هذه الاسوار ايها الأمير ... انها تسقط تحت ضربات العرب ، في الهجوم الاول ، ثم تستسلم المدينة بعد ذلك .

قال : افتحها غداً .

– سأفعل ، وسأقود جيش مرو وحده ، وسترى بعينيك .

قال : لا تنس انك على مقدمة الجيوش .

– ما نسيت ذلك ، وسيخضع جيش المقدمة هذه الأقطار الثائرة ، الواحد خلف الآخر ، في اقل من شهرين ..

قال : العرب تشهد للاحنف بن قيس انه فتى الميادين ، ولكن الا ترى ان نستبدل في هذا الفتح الجديد ، ذلك الثوب البالي ؟

– فسكت قليلاً ثم قال : ماذا يعني الأمير ؟

– اعني هؤلاء العمال الذين سلمنا اليهم البلاد .

– رجال فارس ؟

– نعم رجال فارس الخونة الذين يشعلون النار .

قال : بينهم فريق من المخلصين على ما ظهر لي .

– لهذا الفريق اغراض لا تتم له الا اذا تظاهر بالاخلاص ، وهـذا الخضوع الذي يبدونه لك مظهر من مظاهر الخداع والدهاء .

– اذن لم يبق الا ان تجعل العمال جميعهم من العرب .

– هذا سنفعله بعد اخماد النار .. اين مجاشع بن مسعود ؟

فأقبل الرجل فقال : لقد ولـّيْناك امر كرمان منذ الآن ، فافتحها غداً مع قومك وقوم الاحنف واعزل من تشاء وولّ من تشاء .

قال : انا لها ايها الأمير ووالله لأجعلن اهلها اذلّ من العبيد .

– ولا تنسَ يزدجرد فقد يكون فيها وقد تعودت من قبل ان تطلبه وتتبع آثاره في هذه الارض .

قال : لئن كان فيها لأحملن جثته على الأسنّة ..

– يكفي ان تعلم مقره ونحن ننظر في امره ..

ثم قال للاحنف : أتهاجم البلد من ناحية واحدة ؟

– اهاجمه من هذه الناحية واقتحم باب السور ، ويذهب مجاشع الى الناحية الاخرى فيفتح الباب الآخر ..

– ولكن القوم سيعمدون الى الحصار فيطول زمن الحرب .

– لا تثبت كرمان اكثر من يوم واحد وقد يحتمل اهلها فيصبرون يومين ثم يخضعون للسيف وهم مكرهون .

– إذن من الرأي ان يشترك الجيش كله في الهجوم عند الصباح لتسقط في المساء ..

– ليفل الأمير ما يشاء فسقوط كرمان لا بد منه .

– وسندعو اهلها الى الاستسلام في كتاب نبعث به الآن .

وكتب عبدالله كتابه يقول فيه : الى اهل كرمان ، أمـا بعد فانكم ترون جيش العرب حول الاسوار ، فننصح لكم بأن تفتحوا ابوابكم ليدخل صلحاً . والا دخلنا عنوة والنصر بيد الله .

وحمل كتابه فتىّ من قومه ، فلما ابصره الحراس فتحوا له ، ثم مثل بين يدي المرزبان. وكان الرعب قد استولى على الجماعة ، وخطر لهم قبل وصول الرسول ، ان يفتحوا ابوابهم عنـد الصباح ويحنوا الرؤوس للفاتح العربي . وجعل المرزبان يقرأ كتاب عبدالله وهو ساكت ، ثم قال : امير البصرة هو قائد الجيش ؟

– نعم !

فشاور قومه بالفارسية ، وكثرت الاراء وارتفعت الاصوات ثم عهد الى الترجمان في ان يتكلم فقال : لقد جعل صاحب كرمان جوابه كلاماً تنقله الى مولاك .

قال : هات !

قال : لم يخطر لأهل البلد ان يخرجوا عن الطاعة فهم من المخلصين .

– وما هذا اللواء الذي يخفق فوق قصره ، اليس هو لواء العصيان .

– قل لمولاك ما ذكرنا لك وسيراه اميرنا فيعرف كل شيء .

– ومتى يفعل ؟

– عندما يشاء عامل البصرة .

فخرج واعاد على عبدالله واركان حربه ما سمعه من الرجل ، فقال عبدالله : ارجع وقل لكبيرهم اني اريد ان اراه الساعة ، فرجع ولم يلبث حتى خرج والمرزبان وراءه . وكان هذا المرزبان يطمع بأن يبقى عاملاً للمسلمين . فلما رآه ابن عامر هشّ له ودعاه الى الجلوس ثم قال وابتسامة الاستخفاف على شفتيه :

– ماذا فعل قومك ايها الفارسي ؟

فتمتم قائلاً : خدعهم الملك بوعوده !!

– اي ملك ؟

– يزدجرد ...

فظهر الغضب على جبينه وقال :

– وهل كان يزدجرد ضيفاً عليك ؟!.

– لا ايها الأمير وانما بعث رجاله سراً الى كرمان فأوغروا الصدور وانا لا أعلم شيئاً من أمره !!

– سمّ هؤلاء الرجال .

– اذكر منهم رجلاً هو سنجان ، كان عاملاً للعرب على مرو الأولى .

فنظر الى الاحنف يسأله رأيه ، فقال الاحنف : سنجان هنا ؟

– كان هنا منذ شهر .

فعمد الى الدهاء قائلاً : ان سنجان يقيم بمرو الشاهجان ولا يجسر على الخروج منها الى بلد آخر ..

– ومع ذلك فقد خرج ..

قال : كذبت فمنزل الرجل في مرو تحيط به الجنود ..

– قلت انه قدم كرمان ولا ارجع عما قلت .

– وكان يدعو الناس الى الثورة ؟ – نعم !

– ذلك خبر كاذب نقلوه اليك.. ان الأمير لا يطيب له ان يصدق مثل هذه الاخبار ..

فقال عبدالله : أتهزأ بنا ولا تبالي ؟

– أقسم لك اني صادق وقد رأيت الرجل ..

فابتسم الاحنف وجعل يقول : ولكنك لم تعلم سره ..

– بل علمت ذلك وقد باح لي بكل شيء !.

فالتفت عبدالله وقال : شأنك به الآن ، فهو يعلم كل شيء ، وقد قال منذ لحظة ان سنجان أوغر صدور القوم وهو لا يعلم شيئاً ..

فاضطرب المرزبان ، وعرف عندئذٍ ان الأحنف نصب له ذلك الشرك فسقط فيه دون ان ينظر في الأمر . وقد لمس عبدالله دهاء الاحنف بيده ، وكبر عليه ان يخدعه العامل الفارسي بمثل هذه الاكاذيب . وارتجفت شفتاه وهو يقول : إذن رأيته وعرفت سره .

– أجل ايها الأمير ولكن بعد ان تمّ له الأمر الذي قدم من اجله .

– وكيف يستطيع الغريب عن كرمان ان ينفخ في صدور القوم روح الثورة وهم لا يعرفونه ولا يثقون بما يقوله ؟!

– كان يحدثهم باسم الملك ويقول : ان الملك لا يلبث حتى يحمل السيف ويطرد العرب من أرضه .

– ولكنه انصرف بعد ذلك ولم يرجع . – نعم !

– ثم جاء دورك في اخماد النار وخنق الثورة فماذا صنعت ؟
فاصفرّ وجهه وظلّ ساكتاً .
– قل ماذا صنعت انت ؟
– حاولت ان اصرف القوم عما يهمون به فلم أستطع ..
– وكيف استطعت ان تفعل اليوم ما عجزت عنه بالامس .
– لأن الذعر ملأ قلوب اصحابي عندما ابصروا الجيش فطلبوا اليّ ان افتح لكم الابواب وأدعوكم الى الدخول .

قال : بل ملأ الذعر قلبك ايهـا اللعين فجئت تعرض علينا الصلح لتبقى على كرسيك ويكثر المال بين يديك .

وقال لمجاشع : هذا اسيرك فاطلق سراحه عندما يطيب لك وقم الآن فادخل المدينة ونحن وراءك واضرب اعناق المتمردين .

ولم يلبث حتى قال للرجل : والآن فقل لنا اين ذهب ملكك فقد انتهى الينا انه كان في كرمان وقد مكث بها زمناً ليس بالقصير .
– اني لم أرَ هذا الملك قط .
– ولا تعلم انه كان يقيم بكرمان !؟ – لا ..
– إذن كنت في ولايتك خيالاً لا خير فيه ، ونهض قائلاً : انهضوا فسيبيت الجيش كله داخل الاسوار .

وأمر المرزبان الحراس ففتحت الأبواب وملأت جنود العرب المنازل والاسواق واهل كرمان لا يقولون كلمة .. ووضع مجاشع بن مسعود في اليوم الثاني ، يده على كل شيء ، وضرب اعناق قواد الثورة الذين هيجوا الصدور . وبثّ الجواسيس يسألون عن الملك الفارسي . ولم يتردد ابن عامر في الخروج على طريق الصحراء التي يقال لها صحراء رابر ، وهي ثمانون فرسخاً ، وكان يريد أبر شهر وهي عاصمة نيسابور ، وقد ولىّ الربيع بن زياد الحارثي امر سجستان . وعلى مقدمة الجيش الزاحف ، الاحنف بن قيس .

* * *

أحسّ شهريار وهو في وادي خواست ، بذلك الضيق الذي يخلقه الأسر ، وقد أيقن عندئذ بأن عيون القوم كلهم تتجه اليه . وكان يعلم انه يموت اذا حاول ان يفرّ من المعسكر ، فخطر له اولاً ان يغمد خنجره في صدر يزدجرد ثم ينزعه ليغمده في صدره ، ولكن عاطفة الانتقام الغريب كانت تشل يده ، فهو لم يكن يريد ان يموت الملك قبل ان يسمع لعنة ابنته . وكانت نار الشوق الى اليتيمة، تتأجج في ذلك الحين ، في صدر يزدجرد ، وهو يـؤثر ان يرى الفتاة التي كانت امها من ضحاياه ، قبل ان يباشر القتال . فدعا اليه شهريار ، في احدى الليالي ، قائلاً له : لقد خطر لنا خاطر نحب ان تبدي رأيك فيه .

– ان الراي رأي الملك فليأمر وانا اطيع .

قال : اين هو المرغاب ؟

– يمتد المرغاب يا مولاي في السهل الذي تحجبه الجبال السوداء التي تراها في آخر الافق ، من ناحية الشمال الشرقي .

– وهو بعيد ؟

– بيننا وبين مصبّه اربعون فرسخا .

– وبيننا وبين منزلك ؟

– اكثر من ثمانين !

– افلا تذكر اننا كنا عولنا على الذهاب الى ذلك المنزل ؟

– بلى يا مولاي !

– ولكن راينا اليوم ان نعدل عن ذلك .

– إذن فمولاي الملك لا يريد ان يرى ابنته !.

لو تبينت ما في صدر الملك لرأيت انه يذوب شوقاً الى ما ذكرت .

- وما الذي يمنعه من ان يفعل ؟

– بُعد المرغاب والخوف من ان يعلم بنا احد فنخسر كل شيء .

– اما البعد يا مولاي فدواؤه بغل تركبه فيجتاز بك الجبال حتى تنتهي الى منزل عبدك،واما الخوف من ان يعلم بك احد فأنا اقسم لك انه في غير موضعه..

– ولكن ليس من الرأي ان يسير ملك فارس ثمانين فرسخاً مع رجل واحد من رجاله ..

– يستطيع مولاي ان يحمل حوله مئة رجل يحرسونه ..

– وليس هذا ايضاً من الرأي . – وعلى اي امر عولت ؟

– على ارسال رجل الى المرغاب يحمل كتاباً منك .

– الى اليتيمة ؟ – أجل !

– وماذا أقول فيه ؟

– تأمرها بالمجيء الى هذا الوادي مع حامل الكتاب .

– وأين هؤلاء ؟

– انهم في كل بلد وسيطوفون في الاقطار، في هذا الزمن ، لانه زمن حرب.

قال : تلبس الفتاة لباس الرجال فنحن نريد ذلك .

قال : خير لك يا مولاي ان تلجأ الى وسيلة اخرى تبلغ بهـا الغاية . هي ان أذهب بنفسي مع بضعة رجال من حراسك .

وتحمل اليتيمة الينا ؟ – نعم !

وكان شهريار ينظر عندئذ في امر النجاة من الملك ، فبدت على وجه يزدجرد دلائل الرغبة في ذلك ثم امحت فجأة هذه الدلائل وكان يقول : لا لا ، اننا لا نطيق ان تخرج من بيننا ساعة واحدة ..

قال : اخرج من اجل مولاي ومن اجل الأميرة .

– اما نحن فلا نريد وقد آثرنا الآن الرأي الاول .

قال : اني طائع يا مولاي وسأكتب الى سنان .

– من هو سنان هذا ؟ – خادم اليتيمة .

قال : سيترك رسولنا غداً وادي خواست فاكتب الآن .

فكتب : الى سنان بن سليم، اذا وصل اليك كتابنا هذا فابعث باليتيمة مع من يحمله ونحن بالانتظار ، ثم قال : هذا كتابي يا مولاي .

وترجمه له بالفارسية ، فقال : وبماذا توصي الرسول ؟

– اوصيه بامر واحد هو ان يبقى وجود الملك في هــذا الوادي سراً من الاسرار .   – واذا سألته اليتيمة عنك ؟

– ليقل لها اني بين اخوان لي .

فتناول الملك فهو لا يجد اليتيمة عــلى المرغاب . وكانت غاية يزدجرد من ارسال ذلك الرجل ، ان يتبين صدق شهريار من كذبه فقد قام في ذهنه، في ذلك اليوم ، ان وجود الفتاة حكاية كاذبة ..

ولم يخطر له قط ان هــذا الخراساني ، هو ذلك الفتى الذي مثــل بين يديه في بلاطه ، ورده الرد القبيح عندما سأله باسم ابان زرد ان يتزوج جهان روز ...

* * *

- ٤٥ -

كان حامل الكتاب يتكلم العربية ، فلمــا أمسى في فناء المنزل أبصر سناناً فقال له : أأنت سنان بن سليم ؟   – أنا هو .

– ان معي كتاباً اليك .   – ممن ؟

– من شهريار .

فدمعت عينا الرجل قائلاً : لقد طالت غيبة مولاي هذه المرة فأين هو ؟

– في كرمان !!..

– مع الجيش العربي ؟   – نعم !

– ولكنك من الفرس وكان على مولاي ان يجعل رسوله من العرب .

– اني في خدمة المسلمين منذ بضعة اعوام .

– وهل نقض اهل كرمان صلحهم كما يقولون .

– اجل ولكن العرب اخضعوهم بالسيف .

قــال : الحمد لله ، وجعل يرددها حتى دخل الاثنان المنزل وجلسا ، ثم قرأ سنان ذلك السطر الذي كتبه شهريار .

ولم يلبث حتى اضطرب ودب الشك في صدره . لقد كان شهريار يعلم ان

ابنته في مرو الروذ ، فكيف خطر له ان يأمره بارسالهـا اليه مع رسوله ؟! بل كيف يدفعها ، اذا كانت حاضرة الى يدي ذلك الرسول وهو من غـير قومها ، وصعاليك الناس يروحون ويجيئون بين المرغاب وكرمان والأمر فوضى والايام أيام حرب .

ان في الامر سراً لا يستطيـع ان يدركه عقل سنان. فقال : أتعلم ايها الرجل ما هي غاية مولاي من طلب ابنته ؟

– يظهر انه فعل ذلك بطلب من احد الامراء ..

فذكر سنان عندئذ طارق بن عبدالله ثم قال : وهل يطيب له ان يزوجهـــا وهو في الميدان ؟ – لا أعلم !

– يخيل الي ان مولاي اسير !!

فضحك اللعين وقال : اجل اسير في جيش المسلمين الذين يحبونه كما يحبون قوادهم ! ثم قال : اي خاطر اوحى اليك بما ظننت ؟

– هذا الامر الغريب الذي ورد عليّ فيه .

قال : أتخـاف ان تسلم الفتاة إليّ ؟ انهـا ستلبس ثوب رجل ولا نسير نحن الاثنين الا في وضح النهار .

– لو كانت هنا لما سلمتها الا الى ابيها نفسه .

– واين هي ؟

– في مرو الروذ وقد ذهبت اليهـا بأمر من الأحنف بن قيس ولم ترجع بعد وكنت اظن ان مولاي في مرو التي ذكرت .

قال : انك تهزأ بي وقد نسيت اني اتيت من كرمان من اجل هذه الغاية ولا اعود الا اذا تقدمتني اليها الفتاة .

– ليس لك الا ان تذهب الى مرو .

– ومن أرى فيها ؟ – قائد الحامية ويدعى زياد المازني .

– واسأله ان يرسل الفتاة الى ابيها ؟

– نعم وتطلعه على كتابه اليّ .

قال : اخشى ان يسيء الظن بي .

– افعل ما تشاء فليس لي رأي في هذا .

فوضع خـادم يزدجرد يده على جبينه ، كأنه يفكر في الأمر ، وقد أحسن تمثيل الدور الذي علمه اياه مولاه .. ودخل في تلك الساعة رجل ، اهتز لدخوله جسم ذلك الرسول ، وتمشت قشعريرة الخوف في عروقه . كان ذلك الرجـــل طرخان بن نيزك ، رئيس الخصيان الذي عرفت ، وقـد جعل يتفرس في ذلك الضيف الفارسي الجالس بين يدي سنان ، وقد عرفه وأيقن منذ رآه أن في الامر ما فيه ، ثم قال لسنان وهو هادىء : ماذا يصنع هنا هذا الرجل ؟

– يحمل كتاباً من مولاي شهريار .

فقال للرجل : أتعرف شهريار يا برسي ؟

فتمتم قائلاً : نعم أعرفه .

– وماذا يقول في كتابه ؟

فقال سنان : يطلب اليّ أن ابعث اليه بابنته .

فخاطبه بالفارسية والنار تتقد في عينيه : اين تركت شهريار ؟

– في كرمان .

– ويزدجرد ؟ – لم أره منذ حين .

– وهل طردك كما طردني من خدمته ؟

– طرد جميع خدمه ولم يبق غير العبيد !

– ولا تعلم اسم البلد الذي لجأ اليه ؟ – لا !

– ولكني رأيت يديك ترتجفان عندما دخلت .

– ذلك لأنه لم يخطر لي اني سأراك .

وقد ظهر الخوف في عينيه ، فـارتفع صوت الخصي وهو يقول : لقـد قيل لمولاك ان عـلى المرغاب فتاة حسناء فأراد ان يضمها الى نسائه ، ثم يقذف بها ، بعد عام، الى هوة الموت ..

قال : أقسم ان الكتاب كتبه شهريار .

– وأنا أقسم ان القضاء قد جـــار فدفع شهريار الى يدي ملكك فهو اليوم اسيره وهو الذي املى عليه كتابه. فقال هامساً: هب ان الأمر كما تقول أفيطيب

لك ان تخدم هؤلاء العرب الذين فتحوا بلادنا وسلبونا الملك ؟!

– بل يطيب لي ان اقبض بيدي على عنق يزدجرد وانا اقول له : مت ايها القاتل ، حتى تزهق روحه .

والتفت الى سنان قائلاً : ان هذا الرجل من عبيد يزدجرد ..

فذعر وقال : وانت واثق بذلك ؟

– نعم وقد دخل بلاط يزدجرد منذ جلس على العرش .

فنهض الرجل يحاول الفرار ، فوضع سنان يده على كتفه قائلاً خير لك ان تبقى فالموت يكمن لك وراء هذا الباب ..

قال : اني بريء .

– اثبت براءتك اذا قدرت !

– يثبتها هذا الكتاب الذي لم يزل في يدك !

– لقد ارغم يزدجرد شهريار على كتابته ولو رأى الوالد ان تنتقل ابنته الى كرمان لقدم بنفسه .

– ومن اين يعلم الملك ان لشهريار فتاة هي في هذا المنزل ؟

– لقد كان مولاي مكرها على الاعتراف بكل شيء ، كما كان مكرهـا على كتابة هذه الكلمات .

ومشى الى الباب ونادى عبديه فـأقبلا ، فقال : اقبضا على هذا الرسول ، فامتدت اليه الايدي فصاح قائلاً لطرخان : لم يكن من الرأي ان تخرج حياً من منزل الملك . انك من الانذال وانت تخون قومك . وكان يريد ان يعطي رئيس الخصيان درساً في الشرف . على ان العبدين كانا اسبق منه ، فقـد أعطياه درساً آخر شهدت بأثره تلك السلسلة الضخمة التي جعلاها في يديه . وهو درس قـاس كما ترى حنى له رأسه وجالت الدموع في عينيه . وهامس الخصي سنانـاً قائلاً : يجب ان يعترف بكل ما يعلم .

– يعترف بذلك لزياد المازني .

– في مرو الروذ ؟ – نعم !

– ومن ينقله اليها ؟

– احد هذين العبدين وانا معه وتبقى انت مع العبد الآخر في هذا المنزل .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– ان ارى اليتيمة ، ويرى قائد الحامية رأيه في جاسوس فـــارسي هو من خدام يزدجرد كما تقول .

قال : لقد ايقنت الان ان يزدجرد قريب من هذا الشاطىء ، وانا اخشى اذا لم يرجع برمي اليه ، ان يفاجئنا بجنوده في ظلام الليل .

– لا يجسر على ذلك والعرب حوله .

– بل يفعل وهو آمن فهو يعلم ان الجيوش زحفت الى كرمان .

ففكر قليلاً ثم قال : هب ان الرجل اعترف لنا الان بمقر مولاه فماذا نصنع؟

– تستعين عندئذ بزياد .

– اذا كان لا بد من الالتجاء اليه فخير لنا ان نسير غـــدا قبل ان يحتاط يزدجرد لأمره ، ويفر من الموضع الذي نزل فيه .

قال : ما هو عدد الجنود في مرو .

خمسمائة كما سمعت .

– وهل يستطيع زياد ان يقبض على الملك وقد يكو جيشه بضعة آلاف ؟

قال : لقد ذهب الزمن الذي كان يقود فيه يزدجرد ، الالوف من الرجال . ان هـــذه الالوف حطمتها الميادين ولم يبق غير فريق قليل يحمل السيف وراء ملكـــه .

– ولكن يزدجرد لا يخرج من مخبئه الا اذا كانت الجماعـــات خلفه تحميه وتدفعه الى الامام .

– ومع ذلك فالرأي في كل ما تقول لزياد وقد عولت على المسير .

ثم قال للعبدين : احتفظا بالرجل الى الصباح والويل لكما اذا ضيعتماه .

فقال احدهما : بل الويل له اذا حاول الفرار . وباتوا ليلتهم ، ثم مشى سنان باسيره عند الفجر وهو يقول لطرخان : ليفاجىء يزدجرد هذا المنزل بجنوده فانا لا ابالي ، وانك لتستطيع ، مع عمرة والعبد الاخر ، ان تنجوا من الموت !

وكان برسي يقول : من اين لي ان اعرف هذا المنزل لو لم يدلني عليه شهريار. اني مظلوم فاصغوا اليّ ولا تفسدوا على شهريار امره . وسنان لا يجيب ولا يغفل عنه ، وقد جعل العبد طرف السلسلة الاخر حزاماً له ، ومشى الاثنان كأنهما اسيران ، حتى انتهوا اخيراً الى مرو ، واستأذن سنان على زياد قبل ان يسأل عن مولاته التي هي أحب الناس اليه .

***

سنان بن سليم ؟ اني أعرف معظم رجال بني سليم ولكني لا اعرفك .

فقال : لقد عجزت عن حمل السيف فتركت الحرب ولجأت الى الخدمة في المنازل .

– ومن تخدم اليوم ؟ – شهريار الخراساني .

– شهريار الذي اوصاني الاجنف بابنته . ان لمولاك فتاة تقيم بمرو ، في منزل عبدالله بن قيس أخي الاحنف .

– اعرف ذلك يا مولاي ..

– وهي ستزف الى طارق بن عبدالله .

– هذا ما لا شأن لي به . – وما هي حاجتك ؟

– أتعرف مولاي ؟

– عرفته قبل سفره فقد رأيته في مجلس الامير .

– وكان سفره الى كرمان كما يقولون ؟

– أجل ، ولكنه لم يعد وسأدفع اليه ابنته عندما يعود .

– يخيل اليّ يا مولاي انه أمسى اسيراً .

– ومن هو آسره ؟ – يزدجرد !

– ويلك وهل يعلم احد مقرّ يزدجرد ؟

– نعم يعلمه احد خدمه وهو في الرواق .

– وماذا يصنع هذا اللعين في مرو ؟

– يحمل اليّ كتاباً من مولاي يأمرني فيه بأن ابعث باليتيمة معه اليه .

وهذا كتابه .

فقرأه زياد ثم قال : خير لك ان تعود الساعة الى منزلك من ان تسألني قضاء حاجتك .. ان الفتاة لا تخرج من مرو ، وابوها بعيد الا بأمر الاحنف نفسه ، او بعد ان اموت ٠ !

قال : لم استأذن عليك يا مولاي من أجل هذه الغاية

- ولكن ماذا ؟

- جئت لأسأل مولاي ان يقرأ اسرار الخادم الفارسي الذي ذكرته ويكرهه على الاعتراف بفقر ملكه .

- لقد فكرت في هذا منذ لحظة . ليدخل صاحبك .

فدخل برسي وهو يكاد يسقط على الارض ، فقال زياد : أتظن يا ابن سليم ان يزدجرد أمر شهريار بكتابة هذا ؟

- بل أظن انه كتبه وهو مكره .

- وماذا تقول انت ايها الرجل ؟

- لا اعلم اين هو يزدجرد فقد خرجت من خدمته وشهريار هو الذي امرني بالمجيء الى المرغاب .

- واين هو شهريار ؟ - في كرمان .

- اذن هو مع الاحنف .

فتردد في الجواب ثم قال : مع الجيش العربي .

- وانت من اهل كرمان ؟ - نعم !

- وتعرف قواد هذا الجيش ؟

- اعرف وجوههم ولا اذكر الاسماء .

- ألم يكن شهريار قادراً على ان يختار رسولاً من المسلمين ؟

- اني في خدمة المسلمين يا مولاي .

فقال سنان كذب الرجل .

فأسكته الأمير قائلا : في خدمتهم ولا تعرف قوادهم ؟!

صف لي اميراً واحداً من امراء المسلمين الذين دخلوا البلد على رأس الجيش .

ـ بل أصف لك شهريار . !

فنادى احد الغلمان قائلاً له : السوط . فـانثنى الغلام وتناول سوط زياد ثم اقبل . فقال له الامير : اضرب فأنت من الفتيان الاشداء ، فضربه ضربتين وبرسي يستغيث . وزياد يقول : لا تكف عن الضرب الا اذا امرناك بذلك . فجعل السوط يرتفع ثم يهوي والفارسي يتململ ويتلوى حتى خارت قواه ولم يبق بينه وبين الموت غير ضربتين اخريين ، فصاح قـائلاً : سأعترف بكل شيء . فأومأ الامير الى غلامه بان يستريح . ثم قـال : اسقه ماء . فسقاه ، وهو يئن ، وقد سالت دماؤه ، ثم سقاه مرة ثانية والمـازني ساكت حتى رأى ان ساعة الاعتراف قد دنت فقال : أأنت في خدمة المسلمين ام ماذا ؟

فتنهد ، ثم تمتم بضع كلمات وقفت عند شفتيه .

فهزّ الغلام السوط . فقال الرجل : اني .. خادم يزدجرد الملك .

فرفع عينيه الى العلاء كأنه يشكر الله ثم قال : وفي أي بلد رأيت شهريار ؟

ـ انه بين يدي الملك ، في نهاره وليله !

ـ اي انه من الاسرى ..

ـ ضيف ، ولكن الاسير خير منه !

ـ وكيف استطاع الملك ان يقبض عليه ؟

ـ لا اعرف من هذا غير امر واحد هو اني رأيته في احدى الليالي بين يديه ولم اكن أعلم من هو ؟

ـ ولا يستطيع الآن ان ينجو بنفسه ؟

ـ لقد أمر الملك رجاله بان يقتلوه اذا حاول الفرار .

ـ إذن فهذا الكتاب من يزدجرد !

ـ بل كتبه شهريار بأمره ، وكانت دلائل الرضى على محياه !

قال : احذر فاذا كذبت ضربت عنقك .

قال : الرجل الذي يبوح لك بانه خادم عدوك وعدو الاسلام ، لا يخطر له بعد ذلك ان ينقل الاكاذيب .

ـ وكيف كتب شهريار ما كتب وهو راضٍ ؟

ـ لا استطيع ان اجيبك عن هذا السؤال .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لاني لم اتبين ما في صدر شهريار من اسرار .

ـ بقي ان تذكر لنا الآن مقرّ ملكك .

فهمّ بالجواب ثم سكت .

قال : خير لك ألاّ تتردد في جوابك .

ـ ولكن يصعب عليّ ان ابوح لك بذلك .

قال : أي الأمرين أحبُّ اليك الاعتراف او الموت ؟

ـ سيكون جزائي الموت في الحـالين .. اني اذا اعترفت ضرب الملك عنقي بعد رجوعي اليه ، وان لم افعل قتلتني انت بسوطك فالرأي ان احتفظ بسري وأموت من يدك ..

فبرقت عيناه قائلاً: اما انا فقد رأيت لك رأياً غير هذا هو ان تعترف وتبقى في مرو !.

ـ واترك الملك ؟

ـ فضحك وهو يقول : أترك ملكك بـــأمر المسلمين وهو حي وادخل في الاسلام كما دخلت الجماعات من قومك ، والا فسيكرهك السيف على تركه يوم تقع العين على العين ، هذا ان بقيت !!

فبكى وقال : وكيف اخونه وقد عشت في نعمته بضعة عشر عاماً وهـو يحتاج اليوم الى المخلصين له !.

ـ ألم تقل الآن انك ستعترف بكل شيء ؟

ـ بلى ولكن رأيت اخيراً ان اموت وفي الصدر بقية من الشرف .

قال : انك من الفتيان ويجب ان تعيش .

ـ وينظر اليّ المسلمون بعد ذلك نظرهم الى الخونة من أهل فارس .

ـ بل ينظرون اليك نظرهم الى فارسي آثر عبادة الله على السجود للنـار ، اسقه يا غلام وعالج جوارحه بعد حين فسيمسي مسلماً .

وكان زياد يقول في نفسه : خير للمسلمين ان يمسي برسي منهم ويبوح لهم بفقر يزدجرد واسراره ، من ان تضيع بموته هذه الاسرار .

فلما شرب قال : اسأل الآن ما تشاء فقد تخليت عن الملك ولكن اطلب اليك أن تهب لي ما اعيش به ، فأنا لا املك شيئاً كما ترى ..

– سنعطيك ونعطي اهل بيتك ما تحتاجون اليه ويكفي انك ستصير مسلماً لك ما لنا وعليك ما علينا .

قال : لا أهل لي فقد دخلت البلاط وانا غلام .

– إذن لست مكرهاً على الرجوع الى يزدجرد . – لا !

– وماذا تخاف إذن وقد ضمنت حياتك ؟

– أخاف ان يهزأ بي القوم قائلين : هذا خائن مولاه ..

قال : في مرو الروذ وحدها ألف فارسي اعتنقوا الاسلام أفلست انت واحداً من هؤلاء ؟

فرفع رأسه قائلاً : بلى وان لي قسوة بالقوم الذين تركوا دين فارس .. قل الآن ما الذي يجب عليّ ان اصنعه لأمسي من المسلمين .

– ستعلم ما يجب بعد قليل ، فحدثنا بأمر الملك .

وكأنه ذكر ان ذلك الأمر من اسرار الجيش فقال : اخرج الى الرواق يا ابن سليم واما انت ايها الغلام فامنع الناس من الدخول ثم قال لبرسي : اين تركت يزدجرد ؟

– في واد يقال له وادي خواست .

– من اي اقليم ؟

– اقليم المروين بينه وبين جبل الزهاد عشرون فرسخا ..

– ومن معه من الرجال ؟

– الف فتى من ابناء الامراء هم رهائن لديه .

– وغايته الحرب ؟

– نعم فقد ملّ حياة الاستخفاء فاما ان يظفر او يموت .

– وفي مثل هذا الجيش الصغير يسترجع المغرور عرشه .

– في جبل الزهاد الف من الرجال ينتظرون وصوله .

– مسكين يزدجرد .. كان الجيش الذي يقوده مئة الف ولم تكن الخيل تجول جولة واحدة ، حتى يفرّ من الساحة . أفيريد الآن ان يطرد العرب من بلاده بألفين من أبناء الأمراء ؟

– يقولون ان حول مرو الشاهجان بضعة الاف هم اعداء العرب .

– من يقول هذا ؟

– رجل كان عاملاً على البلد الذي ذكرت يدعى سنجان .

– هذا ابن اخي ماهويه وقد عرفته ، وهل يخون ماهويه المسلمين وقد ولاّه الاحنف وأحسن اليه ؟

اذا كان سنجان يريد الاستيلاء على مرو فانما هو يفعل ذلك ليقهر عمه ويقضي عليه لانه سلبه الولاية .

فاطرق ساعة ثم قال: ليستول يزدجرد على مرو ولكن يجب ان يعلم ان هذا الاستيلاء لا يعيش. والآن أسألك سؤالاً آخر عن الفتاة.. أيطلبها الملك لانهـــا وصفت له ام ان اباها يريد ان يضمها اليه ؟

– أعلم شيئاً واحداً هو ان الملك يلجُ في طلبها وأنا لا اعلم لماذا .

– وكان ابوها راضياً بذلك ؟

– كان يرغب في ان يجيء هو نفسه ويحمل ابنته . ولكن الملك لم يوافقه في رغبته ولم يشأ الا ان يحمل احد خدمه رسولاً له .

– إذن فشهريار يخدع يزدجرد ، ويزدجرد صابر على مـــا يراه منه حتى تمسي اليتيمة بين نسائه .. ان في الأمر سراً سيعرفه الاحنف بعد رجوعه .

ونهض فدعـــا سناناً وقال له : تبيت الليلة في مرو ، وترى ابنة مولاك ، ثم تسير غداً الى مرو الشاهجان مع ثلاثة من الرجال نختارهم لك .

قال : اعطني كتابك فسأذهب قبل ان يبتسم الفجر .

– نحن لا نكتب ولكن نقول لك كلاماً تنقله اليه .

وأعاد عليه ما سمعه من برسي فيما يتعلق بالحرب .

قال : فهمت الآن ، واين الرجال ؟

– سيبيتون في المنزل الذي تنزل فيه .

قال: لم يبقَ إذن الا ان تأمر غلامك بان يدلني على منزل الأمير عبدالله لأرى مـولاتي .

فأمر الغلام بان يفعل وكان يفكر في تلك الساعة في ارسال كتاب الى الاحنف يخبره فيه بما سمعه عن يزدجرد .

ولم يلبث حتى كتب اليه ، وبعث برسوله .

* * *

– ٤٦ –

رأى سنان ان يكتم اليتيمة خبر ابيها ، فلم يذكر لها خبر وجوده مع الملك في وادي خواست .

لكنه اثبت لها ، بنعومته ودهائه ، انه لحق بجيش الاحنف وهو اليوم معه في اقليم نيسابور .

فقالت له وهي تذرف الدموع : ومن خبّرك بذلك ؟

– رجل من اهل البصرة ارسله ابن عامر الى مرو الشاهجان .

– وذكر لك طارقاً ؟

– أجل، وذكر لي ان مولاي لا يفارق الفتى، وانهما ينزلان في خيمة واحدة حتى ليظن الجيش ان طارقاً ابن مولاي .

ولكن قلبي يحدثني بأني سأخسر احدهما !

– اما انا فقلبي يحدثني بأنهما سيعودان وسيجتمع الشمل .

وأراد ان يغيّر حديثه فقال : لقد عرف زياد المازني مقر يزدجرد وسيرجع جيش الاحنف ليقبض عليه فيخلو الجو للمسلمين في بلاد الفرس .

فخفق قلبها وجعلت تقول : مسكين هذا الملك .. انهم يطاردونه كأنه من المجرمين .. وأين مقرُّه ؟

– في اقليم المروين ، في واد يبعد ثمانين فرسخا .

– وكيف يجسر على الخروج الى الاودية ؟

– خرج وهو حامل سيفه يريد القتال ، وسيزحف الى مرو الاولى .

قالت : لو كنت صاحبة الأمر والنهي في العرب لأعطيته مرو وما حولها واذنت له في ان يقضي ما بقي له من العمر في أمن وعزّ .

– نسيت يا مولاتي انه عدو الاسلام ؟

– ما نسيت شيئاً ولكني اعلم ان هذا العدو لا يستطيع انْ يسترجع عرشه فخير للعرب ان تهب له بلداً يعيش فيه كما تعيش الملوك .

– ثم قالت : اني لا احبه فقد قصّ عليّ أبي طائفة من اخباره ، ولكني أحسّ كلما ذكروه ، وذكروا فراره وخوفه ، ان هذا القلب يقطر دماً ..

– أما انا فلو ساعدني الحظ في القبض عليه لوضعت خنجري في صدره وجعلت فمي على جرحه اكرع في دمه حتى ارتوي .

– واين توجد الرحمة ؟

– في قلوب النساء اللواتي لم يشهدن الحرب.. يكفي ان يزدجرد عدو قومي وعدو مولاي ، بل يكفي ان المسلمين خسروا في حروبهم معه نخبة الابطال والفتيان الأشداء .

– وهل يظن زياد المازني ان هذا الملك الشقي يستطيع الاستيلاء على مرو بقوة السيف ؟

– لا يقدر ان يظن الآن شيئاً.. اني ذاهب غداً اليها لأوصي عاملها الفارسي بالدفاع والاحتيال ريثما يزحف المسلمون .

– غداً ؟

– نعم غداً قبل ان يبزغ الفجر .

– إذن لم تجيء اليّ الا لترحل ؟

– هذا ما امرني به قائد الحامية .

– ومتى تعود ؟!

– بعد بضعة ايام .

- ومتى يعود الاحنف ؟
- عندما ينتهي اليه كتاب زياد .
- وارى عندئذ أبي وطارقاً ..

فخطر له في تلك اللحظة ان شهريار لن ينجو من قبضة الملك فارتجفت شفتاه وهو يقول : أجل ، سنراهما يا مولاتي وسيبوح أبوك باسراره فقد انقضى الزمن الذي ذكره وانت الآن في الخامسة عشرة من العمر .

واستأذنها في الانصراف قائلاً: ان الله القادر على كل شيء سيمنّ علينا جميعنا باللقاء بعد حين . وخرج والكآبة تملأ نفسه فقد قام في ذهنه كما قرأت ان مولاه لن يعود ولن يفلت من يد عدوه . وقبل ان يأوي الى فراشه ، مرّ بذلك البيت الذي نزل برمي فيه ليعالج جراحه ويستعيد قواه . وكان قد عرف انه دخل في الاسلام . وجلس عند فراشه وهامسه قائلاً : أتحقد عليّ كما تحقد على زياد ؟

قال: لو لم تكرهني على المجيء الى مرو الروذ لماعرفت هذا الدين الذي يدنيني من الله ، اني شاكر لك ولزياد هذا الفضل .

فابتسم له وجعل يهوّن عليه أمر جراحه ثم قال : وهل عولت على البقاء في مرو الروذ الى الأبد ؟

- سأبقى في البلد الذي يأمرونني بالبقاء فيه .

قال : جئت استشيرك في أمر .

فتململ قائلاً : لم اكن قط من اهل المشورة في بلاط الملك .. كنت من الخصيان القائمين بخدمة النساء .

- ومع ذلك فأنا اريد ان تنصح لي بما تراه .. لقد امسيت الآن واثقاً بان مولاي اسير في الوادي الذي ذكرت .

- بل هو يروح ويجيء ولكن العيون وراءه ..

- وهل يظن يزدجرد انه من اعدائه ؟

- كان يظن في بادىء الأمر انه من المخلصين . ولكن سنجان أوغر صدره فاستيقظت في ذلك الصدر الظنون .

– وبات واثقاً بانه عدوه ؟
– هذا ما يبدو لي .
– ولماذا لا يأمر بقتله ؟
– يظهر أنه آثر الاحتفاظ به ريثما تحمل إليه الفتاة !
– يقتله ويحمل الفتاة بالقوة ..
– وهل نسيت ان الملك لا قوة له .
– ولكن ما هي غاية هذا الملك وهو في زمن يجب ان ينسى فيه النساء والرجال ولا يفكرّ الا في العرش ؟
– اما هذه الغاية فلا أعلم ما هي ولكن رأيت ان يزدجرد يبذل نصف ما يملك في هذا السبيل .
– وانه سيعمد الى قتل شهريار عندما يبلغ غايته ؟
– قد يكون ذلك .
قال : رأيت الان ان أسير الى وادي خواست . – لماذا ؟
– لأنقذ مولاي من الأسر .
– وكيف تنقذه وانت رجل عربي تحيط به طوائف من الفرس ؟
– ألبس لباسهم واستعين بفارسي مخلص للعرب .
– واين تجد هذا الفارسي ؟
– في مرو الروذ أو في مرو الأولى فانا ذاهب اليها غداً .
– ولكنك لا تحسن الفارسية والويل لك اذاخطر لأحدهم ان يسألك سؤالاً او يوجه اليك كلمة .
– إذن يقتل مولاي ولا انقل اليه قدماً ؟!
– خير لك ان تختار فارسياً كما قلت وتبعث به الى ذلك الوادي من اجل هذه الغاية ، من ان تذهب انت .
قال : لولا هذه الجراح لذهبت انت .
فأشرق جبينه قائلاً : يطيب لي ان اخدم المسلمين بعد ان امسيت منهم واني لا اتردد في الذهاب عندما تعود اليّ العافية .
قال : اتقسم لي بالله الذي شهدت ان لا اله الا هو انك ستفعل ؟

– أقسم لك .

– اذن فخير الاراء ان اتعجل في الذهاب الى مرو والرجوع منها وقد يمن الله عليك بالعافية في خلال هذه الأيام .

فحنى رأسه وهو ينتفض من الألم ثم تمتم قائلاً: اني لك ولكل مسلم. فدمعت عيناه من الفرح ثم قبل رأسه وأوصى الرجل الذي يعالجه بالعناية به ، وانصرف وقد طابت نفسه .

* * *

- ٤٧ -

خفي امر الملك عن ماهويه فلم يعلم شيئاً عنه . وعندما بلغه ان ببابه اربعة رجال من العرب هم رسل زياد المازني نهض مضطرباً وهو يقول لمن حوله : ان في الأمر ما فيه . ثم دعاهم الى الدخول يتقدمهم سنان، فقال : رسل زياد ؟

فأجابه سنان قائلاً : نعم وقد جئنا ننقل اليك كلاماً .

– ماذا جرى ؟

– أسمعت انت شيئاً عن يزدجرد ؟

– لا ولكني عرفت منذ حين ان سنجان عامل مرو ، الذي عزله الاحنف، فرّ من البلد وقد ضيّعت أثره .

– اما زياد فلم يضيّع هذا الأثر..ان سنجان اليوم بين يدي ملكه وسيجعله، على مقدمة الجيش عندما تنشب الحرب .

– وأي جيش تعني ؟

– الجيش الزاحف الى هذه المدينة، ليدك اسوارها ويقضي على اميرها ويعيد سنجان بقوة السيف الى المقعد الذي أُخذ منه .

فذعر قائلاً : قلت انك تخاطبني باسم زياد .

– نعم وباسمه اتكلم الآن .

– واين هو الجيش الذي وصفت ؟

فسمّى له ذلك الوادي النازل فيه ، فقـــال : ومن اين عرفت انه زاحف الى مرو ؟

فنقل اليه عندئذ كلام زياد ثم قال : اذا رأيت ان تبعث برجل يحمل اليك اخبار الملك فافعل . فاطرق ملياً ثم رفع رأسه وجعل يقول : قل للأمير المازني ان مرو الشاهجان لا تؤخذ الا بعد ان يموت جميع من فيها من رجال ونساء .. اهلاً بيزدجرد فقد دنت ساعة موته .. واهلاً بسنجان الذي يقذف باهل فارس الى النار من اجل الامارة .. وامر حاجبه بان يدعو ولده براز واعيـــان مرو ، فأقبلوا وهم اكثر من عشرين ، فقال لهم : تهيأوا فقد أتاكم يزدجرد .

فقال براز : طالب صلح ام طالب حرب ؟

– جاء يطلب حرباً والموت يلمع على شفرة سيفه ..

– ومن هم قواده ؟

– خراذمهر ، وفرخزاد قائد الرهائن من ابناء الامراء .

وهنالك قائد عام سيخضع العرب ويعيدها الى الحجاز أتعرفون من هو؟ انه ابن اخينا سنجان حـــامل لواء الفتنة وموقد النار ... فجعل كل واحد منهم يبدي رأياً ، ثم اجمعوا من قبل ، عـلى ان ينصبوا ليزدجرد شركاً يقع فيه . ولم يبق لسنان ورفاقه ما يقولون ، فخرجوا من مرو راجعين الى قومهم وهم واثقون بان ماهويه ومن حوله لا يخونون المسلمين .

* * *

– ٤٨ –

ويلك يا شهريار ، أيخطر لك ان تخدع الملك ؟

– وكيف اخدعك يا مولاي وانا على طاعتك وبين يديك .

– ولكن برسي لم يعد وقد طالت غيبته .

– وما هو ذنب عبدك اذا طالت هذه الغيبة ؟

– نخشى ان يكون منزلك الذي وصفته لنا غير موجود .

– سيعلم مولاي بعد حين اني لم اكن خائناً .

– واين تذهب الفتاة يا مولاي وانا بعيد عن المنزل ، وهي لا تعرف احداً غير طارق بن عبدالله وطارق في مرو الروذ ؟

فاضطرب قائلاً : لقد منعناك من قبل ان تذكر هذا العربي .

– ما حيلتي يا مولاي اذا كنت مكرهاً على ذكره ..

ان اليتيمة تحبه ولا تريد ان تنساه ...

– ونمنعك الآن من ان تـذكر هـــذا الحب الذي سيصير بغضـاً بعد أن تجيء الفتاة .

وجعل يضحك ضحك الاستخفاف ويقول : ابن صعلوك من صعاليك العرب يتزوج ابنة كسرى ؟! اذن فعظمة الملك وعز السلطان تدوسها الأقدام .. لا.. خير للملك ان تخرج فارس من يده ، ويمحو القدر ذرية الأكاسرة من الوجود من ان يقول الناس هذا العربي صهر يزدجرد !!

– وماذا يصنع الملك اذا كانت ابنته لا تريد أن تترك طارقاً ؟

– ماذا نصنع ؟ نعمد الى السيف ثم نقول لهـا على مرأى ومسمع من القوم : اما ان تتركي الفتى او تموتي !!

– وقد تؤثر الموت على تركه ..

– اذن تموت فيسلم الشرف الفارسي .. والآن ! قـل لنا ، أتظن ان شذاذ العرب عرضوا لبرسي وهو راجع مع اليتيمة .

– لا أجسر على ان أظن هذا يا مولاي .

– وماذا اذن ؟

– خطر لي خاطر أخشى ان افكـّر فيه ... – ما هو ؟

– هو ان الفتاة انتقلت الى مرو الروذ بأمر من الاحنف .

– وأي سبب يدعو الاحنف الى ذلك ؟

– غرام ابن اخيه .

– وترضى هي بان تخرج من بيتها لتقيم ببيوت الناس ؟

– لا يبالي الاحنف برضاها اذا اراد ان يفعل .

فاستند الى الجدار وجعل يتنهد ويقول : هب ان الاحنف لم يفكر في هذا فحظ يزدجرد يحمله على التفكير ... آه ... ان الدهر قد جار ، حتى ليخيل الينا ان الأرض ستبتلع ملك فارس .

وبينا هو يخاطب نفسه ويلعن الزمان وقف احد الحجاب بالباب قائلاً : لقد جاء برسي الخصي يا مولانا . فاستوى جالساً وعيناه تنظران الى الباب دون ان يقول كلمة .

فقال الحاجب : أتأذن له في الدخول ؟

فحنى رأسه ثم وضع يده على قلبه كأنه يمنعه من الوثوب .

ودخل برسي واهي القوى ، اصفر الوجه ، ترتجف ركبتاه حتى ليكاد يسقط على الارض تحت حمله الثقيل ..

فقال : ويلك أكنت في القبور ؟!

– نعم يا مولاي كنت فيها وقد داعبني الموت بضعة ايام بيديه الحديديتين ثم نجوت بفضل هذا الرجل .. واشار الى شهريار .

– ولكن هذا الرجل لم يترك الملك ..

– ان في منزله كهلاً عربياً يتكلم باسمه ..

فقال شهريار في نفسه : خرج برسي من هذا الوادي وهو فارسي ثم عاد وهو مسلم ... ومدّ عنقه ليسمع ما يقول وقد طابت نفسه وكان يزدجرد يقول : اذكر لنا جميع ما جرى لك منذ خروجك ، فقد ايقن الملك الآن بانه شقي لا حظ له ، أرأيت الفتاة ؟

وكان برسي قد رآها قبل خروجه من مرو الروذ ، بحضور سنان وذكر لها الملك ورأى عندما ذكره دمعتين تسقطان من عينيها السوداويين . وسنان هو الذي ضمن لزياد اخلاص برسي للاسلام الذي دخل فيه، وسأله ان يأذن له في الرجوع الى الوادي ، كما سيجيء .

فقال : اجل رأيتها يا مولاي .

– في منزل ابيها ؟

– بل في مرو ، في منزل عامل المروين .

فأخفى شهريار وجهه بيديه متظاهراً في البكاء !!

فقال يزدجرد : وذهبت انت الى مرو ؟

– نعم يا مولاي ، فان سناناً خادم شهريار اراد ان ينفذ أمر مولاه ويقضي حاجته وقد ذهب معي اليها .

– وهل كان الاحنف فيها ؟

– ان الاحنف اليوم في اقليم نيسابور .

– وابن اخيه ؟

– حدثني سنان بأمر ابن اخيه الذي يدعى طارقاً وهو مع عمه .

– ومن نقل الفتاة الى مرو ؟

– نقلها الاثنان اللذان ذكرت قبل ان يخرجا الى الحرب ، على رغم سنان المسكين الذي لم يصغيا الى رجائه .

– ومرو اليوم بدون جيش ؟

– الجيش فيها كثير يا مولاي وحول الاسوار ألوف من أهل البصرة . قائدهم جميعاً رجل اسمه زياد المازني .

– وماذا فعلت بعد وصولك ؟

حمل سنان كتاب شهريار ، الى زياد ، وطلب اليه ان يبعث بالفتاة الى ابيها فأبى قائلاً : انه لا يسلمها الا الى الاحنف نفسه .

ثم دعا حامل الكتاب ، فمثلت بين يديه فقال : ابن شهريار؟ قلت في كرمان ، فقال : أتكون في خدمة هذا الخائن اللعين وتدخل مرو ؟

وأمر غلمانه فجلدت حتى رأيت الموت بعينيّ . ثم نقلوني الى كوخ وانا ميت ! وسنان يعالج جراحي ويعطف عليّ حتى رجعت الى عالم الاحياء ولم يخطر لي اني قادر على الرجوع الى مولاي الملك .

– بعد ذلك ؟

– اقبل زياد ينظر في امري فقيل له اني حي ، فلما رآني قال : أمرناهم بان

يضربوك حتى تموت فصرعت الموت ، فننصح لـك الان بان تغادر مرو وتقول لشهريار : سيعلمك المسلمون كيف يكون جزاء الخونة !

وكنت اقول له : ان شهريار في صفوف الجيش وهو ينتهرني قـائلاً كذبت يا عدوّ الله فالجيش لا يضم خائناً مثله الى صفوفه .

– وكيف عرف زياد انه خائن ؟

– خبره بذلك عبدان فارسيان جعلها شهريار خادمين للفتاة وقد قال لقائد مرو : لم يكن شهريار مسلماً قط وانما هو من انصار الملك !

– ثم ماذا ؟

– ثم ماذا يا مولاي ؟ رأيت ان اترك مرو في تلك الساعة وانا غير قادر على المشي ، ولكن سنانا أراد ان ارى الفتاة واخاطبها قبل خروجي ففعلت ، اني لم أرَ في كل ما رأيت من نساء لها جمال عينيها وسحرهما فخان الجلد الملك المسكين وجعل يبكي . وكان شهريار يبكي مثله ، ثم قال : أتأذن لي يا مولاي ان أسأل برسي عما يخطر لي ؟

فأومأ اليه بأن يفعل ، فقال له : أذكرت للفتاة انك تحمل كتاباً من أبيها ؟

– ذكر لها ذلك سنان نفسه وحدثها بما جرى بيننا وبين زياد .

– ولم تقل لكما انها ترغب في المجيء اليّ ؟

– بلى حتى انها ارادت ان تستأذن زياداً في ذلك ،

– ومنعها سنان .

– نعم ولم يشأ ان يجعلها هدفاً لغضبه .

قال : من هو زياد هذا فانا لا اعرفه .

– رجل، النمر خير منه . – اذن فاليتيمة تخافه .

– لم ترَ له وجهاً ولم يخطر له ان يراها .

– كان عليك ان تقول لها ولسنان كلمة عن الملك .

– لقد سبقني سنان الى ذلك فكأنه كان يعلم من قبل انك في خدمة مولاي .

– أجل ، قلت له قبل ان اترك المرغـاب اني سأبحث عن الملك ، وقد لا أعود اذا ساعدني الحظ في رؤيته .

فقال يزدجرد وهو لا يعلم ما يقول : آه لو عرفت الفتاة من هو الملك .

فقال برسي : يظهر انها ترغب في ان يظفر الملك باعدائه ويستعيد ملكه .

قال : كذبت .

– اقسم برأس مولاي انها قالت ذلك وعندما لفظت اسم الملك يزدجرد جالت في عينيها الدموع !

قال : ما هذا يا شهريار ؟

– هذا ما لا أعلمه يا مولاي فليسأل الملك قلبه .

فخرج من الخيمة وهو يقول : نخرج الان الى الفضاء وسنسأل هذا القلب في وقت آخر .

فهامس برمي شهريار قائلاً : رجعت لكي انقذك من الأسر فتهيأ . فأجابه وهو هادىء : عرفت ذلك قبل ان تذكره لي .

* * *

– ٤٩ –

سنجان ! ان الملك بحاجة الى رأيك الان .

– قل يا مولاي !

– لقد بعثنا برمي الخصي في مهمة .

– عرفت انك بعثت به ولكني لم اعلم ما هي مهمته ومتى يعود ؟

– انه هنا وقد تركناه في خيمتنا مع شهريار .

– وهل يريد الملك ان يحدثني بأمره ؟

– اجل من اجل هذه الغاية سألنا عنك ، ولكن اعلم ان السر الذي سنبوح لك به لا يعرفه غير اثنين ثالثهم انت .

– ليبح الملك بما يشاء وليس له ان يشك في اخلاصي له .

قال : لقد اكرهت الحادثات الملك ، على ان يشك في اقرب الناس اليه ،

ومع ذلك فنحن بحاجة الى رأيك كما قلنا ، ويخطر لنا ان نشاورك في الأمر قبل ان نزحف الى مرو .

ووضع يده على كتفه وجعل يقول : كنت تطلب الينا من قبل ان نقتل شهريار ونحن نأبى أليس كذلك ؟

– بلى يا مولاي !

– وتعلم لماذا ؟ – لا !

قال : ان الملك يحتاج الى رضى هذا الخراساني ، كما يحتاج الى رضى الجيش الذي يساعده في استرجاع المجد !

قال : عفوك يا مولاي فانا لا افهم ما تقول .

ولكنك ستعلم كل شيء عندما تعلم ان لمولاك فتاة تقيم بمنزل شهريار ، وان هذه الفتاة ، قطعت من هذا القلب .

- ابنتك ؟

– نعم ، للملك ابنة لا يعرفها وقد منعته الاقدار من ان يرى وجهها الضاحك وعينيها الساحرتين اللتين وصفتا له . وجعل يقص عليه حكاية جهان روز ، والكآبة على جبينه ، والالم على وجهه وفي عينيه ، ثم تنهد قائلاً : وقد رأينا ان نلمس بيدنا صدق هذا الخرساني فارسلنا برسي الى المرغاب وقد ثبت لنا الان انه صادق فيما رواه .

– اذن فقد رأى ابنة الملك .

– اجل ولكن لم يرها في المرغاب بل في مرو الروذ وفي منزل الاحنف بن قيس نفسه . واعاد عليه رواية طارق وغرامه كما سمعها من شهريار .

قال : أيأذن لي مولاي ان اقول ما يخطر لي ؟

– وماذا يخطر لك ؟

– يخطر لي ان هذه الفتاة ابنة شهريار وليست ابنة الملك .

– ويزعم الرجل انها ابنة مولاه ؟! – نعم !

– وما هي غايته من ذلك ؟

– ان يمثل بين يدي الملك ويخدعه باكاذيبه، ثم يقرأ من وراء الستار، جميع الاسرار خدمة للمسلمين ..

– ولكن قيل لنا ان لليتيمة عينين تشبهان عيني امها، وهي تحمل من ملامح ابيها الشيء الكثير .

– وما الذي منع شهريار من ان يحملها اليك ؟

– خوفه من طارق بن عبدالله الذي يعبد اليتيمة كما يعبد إلهه ، وخوفه من الفتاة نفسها التي لا توافقه في المجيء .

فاطرق ملياً ثم قال : أتعرف الفتاة انها ابنة اعظم رجل في هذا الشرق ؟

– لا بل تعلم انها ابنة الخراساني .

– ولم يأمر الملك الخصي ان يطلعها على السر ؟

– لم نفعل ذلك لان الفتاة لا تصدقه ، ولانه ليس من الرأي ان يبوح الملك لخصيانه ، بالاسرار التي تتعلق به .

– إذن لم يذهب برسي الا ليراها !

– وليأمرها باسم ابيها شهريار ان تجيء اليه .

– ولكنها لم ترضَ بالمجيء .

– ان القائم مقام الاحنف في الولاية لم يرضَ بذلك، وقد امر بجلد برسي حتى سال دمه ، ثم جعله أسير حرب .

وحدثه يزدجرد عندئذ بكل ما يعلم .

فقال : وفي أي شيء تفكر الان ؟

– في أمر واحد هو ان نبعث الى مروالروذ بشهريار نفسه فهو القادر وحده على احضار الفتاة .

قال : لا تنسَ يا مولاي انك ذاهب الى استرجاع عرشك .

– ولكن استرجاع العرش لا يمنع الملك من استرجاع ابنته .

– اما انا فلا أؤمن بوفاء هذا الخراساني ، ولا أطيق ان يؤمن الملك بوفائه ويثق به ..

– وماذا نصنع ؟
-. يصف لي برسي ذلك المنزل الذي تقيم به الفتاة .
– وبعد ان يصفه لك ؟
– اذهب انا اليه واستعين ببعض اهل مرو الروذ على اخراج الفتـــاة منه وحملها اليك !.

قال : لا نريد ان تترك الجيش الا بعد الاستيلاء على مرو الشاهجان .

– اجل يا مولاي ، اني لا أتركه الا بعد ان تدخل المدينة ظافراً ويخضع لك من حولها كما كانوا يخضعون لك وأنت على العرش .

– ويقوم في ذهنك انك ستبلغ الغاية ؟
– نعم ، واقسم لك اني سأجعل ابنتك بين يديك .

فابتسم الملك المسكين لوعد مستشاره الخلاب وجعل يقول : اصنع ما تشاء فقد وثقنا بكل ما تقول. ومشى يطوف بين الخيام وقد اضمحلت صورة اليتيمة من مخيلته ، وقامت مقامها صورة الحرب، وصورة الحرب والتاج. أما سنجان، فمشى يريد خيمته التي تجاور خيمة يزدجرد وهو يفكر في القضـــاء على شهريار الذي انتزع الولاية من يده .

* * *

– ٥٠ –

كان الاثنان يتهامسان .. برسي وشهريار، وهما في خيمة يزدجرد ، لم يجسرا على الخروج منها ، بعد خروج الملك ، لانه لم يأمرهما بذلك !

وكان برسي يقول : لو لم يكن سنجان حاضراً ، لخرجنا الآن نحن الاثنين ، من المعسكر ولم نبالِ ، ولكن هذا اللعين لا يغفل عن شيء .

– ومتى نستطيع الخروج ؟
– بعد ان يبلغ الجيش جبل الزهاد او بعد تركنا اياه .

قال : اخشى ان ينتهي الأمر بنا الى الفشل .

– اما انا فلا اخشى شيئاً وستعود بعد قليل الى مرو فترى ابنتك ، وتفعل ما يطيب لك .

قال : وتقسم لي مرة ثانية انك مخلص للاسلام ؟

– لقد اقسمت واقسم الان ان الموت لا يفصلني عنه ، وحسب الاسلام انه يقربني الى الله الذي لا اله الا هو وينقذني من هذا الاسر الدائم الذي لا اجد فيه غير العذاب والذل .

– ارجو ان نفر قبل الوصول الى الجبل .

– لماذ ؟

– لاني اريد ان ارى زياداً قبل ان ينتهي يزدجرد الى مرو .

قال : لقد عرفت غايتك . انك لا تريد ان يسترجع الملك هذه المدينه التي ذكرت .

– أصبت ، وهذا ما يفعله كل مسلم يخدم قومه .

وكانت هنالك ، في الخيمة الاخرى ، اذنان تسمعان ما يقولان ، هما اذنا سنجان ، الذي حبس انفاسه ليصغي الى ذلك الحديث العذب . !

ثم سمع شهريار يقول : لقد انصرف الملك ولم يأمرنا بالانصراف فانا ذاهب لأسأله ، فخطا سنجان بضع خطوات ووقف بباب الخيمة . وكانت عينا شهريار تبحثان عن الملك . ولكنه لم يره بل رأى سنجان ، وقد اصفرّ وجهه ، وارتجفت شفتاه ، وبدا الحقد بأفظع صوره على جبينه . ثم التقى النظران ، فابصر شهريار النار في عيني عدوه . فتراجع الى الداخل وجعل يقول : اعطني يا برسي رقاً فقد خطر لي الان ان اكتب بعض السطور . .

قال : الرقوق تحت وسادة الملك ولكن أتكتب في خيمته ؟

– اجل ، فقف بالباب وانتظر رجوعه . وتناول الرق وجعل يكتب ويده تضطرب حتى أتمّ عمله والملك لم يعد ، فطوى الكتاب وقال لبرسي : ألم ترَ احداً ؟

– رأيت سنجان يخرج من خيمته ويتعجل في مشيه .

قال : ان الموت الان بين شفتي هذا اللعين . .

ولم يشأ ان يبوح له بما رآه خوفاً من ان يستولي عليه الذعر .

فقال : أتخاف الرجل ؟

ـ كنت أخاف جميع من في المعسكر ، اما الان فلا أخاف أحداً .

ومدّ يده اليه قائلاً: كتبت هذا الكتاب وانا واثق بانك ستسلمه الى صاحبه اذا قتلت !.

قال : أراك تذكر لي الموت كأنك تراه .

– خيل اليّ اني رأيته .. عدني يا برسي بانك ستحمل هذا الرق بعد موتي ، الى صاحبه ..

– من هو صاحبه ؟

– الاحنف بن قيس ، فاذا هلك ، فعبدالله أخوه .. فـــاذا هلك ، فطارق ابن عبدالله ..!

– واذا هلك الثلاثة ؟

ـ تسلمه الى الفتاة التي عرفت ، وقد كتبت على ظاهره أسماء هؤلاء الاربعة كي لا تنسى احداً منها .

قال : ابقه في كمك ريثما اطلبه منك .

ـ بل تأخذه الآن وتضعه في مكان لاتراه العيون ولا تصل اليه الايدي لانك لا تعلم متى ينشب فيّ الموت مخالبه الدامية .

قال : انه خوف لا أعلم له سبباً يا شهريار ..

قال : خذه ولا تتردد فالمجال لا يتسع للكلام ولك ان تقرأه عندما تشاء على ان لا تبوح بما جاء فيه .. خذه فالموت يمشي اليّ بخطى واسعة وسيدخل من هذا الباب ...

قال ذلك وهو يبتسم كأنه يستلذ هذا الموت الذي يتحدث به ، فتحير برسي في أمره وجعل يتفرس فيه . ثم تنـــاول الكتاب وجعله في حزامه من الداخل وكان يقول : لا يذهب هذا الخوف الا بعد ان نخرج من المعسكر .. ولكنه لم يتم كلامه حتى أقبل الملك ، والسوط في يده، والغضب يلمع في عينيه المختلجتين. وراءه سنجان يبتسم ابتسامته الصفراء ، فقال شهريار في نفسه : لقـــد اتت

الساعة . ومشى يزدجرد الى وسائده فجلس بينها ثم التفت الى برسي قائلاً: ماذا فعلت ايها الخصي الخائن ؟

– انا يا مولاي .. وماذا فعلت ؟

فأومأ الى سنجان يقول له : اذكر لهذا اللعين ما سمعت .

فقال : ألم تقل لشهريار ان يتهيأ للفرار ؟

فتردد قليلاً ثم قال : بلى ، قلت ذلك لخاطر خطر لي .

– اذكر للملك ما خطر لك .

– أردت ان اتبين امر هذا الرجل واتلمس اخلاصه لمولاي .

– وماذا رأيت ؟

– رأيت ان هذا الاخلاص لا شك فيه !.

– والاسلام الذي اقسمت ان الموت لا يفصلك عنه ؟

فأحس المسكين انه عاجز عن الجواب ، فقال : أما الاسلام الذي ذكرت فله حكاية يقصها عليك شهريار ..

– بل تقصها انت ..

– لا اجسر على ذلك .

فأدرك شهريار ان قريحة برسي بخلت عليه بجواب يضمحل معه غضب يزدجرد فقال : أيأذن لي الملك في الكلام ؟

فأشار عليه بان يفعل فقال : سأذكر كل شيء كما جرى يا مولاي .

– وهذا ما نريده .

قال : طلب الي برسي ان يخرجني من المعسكر عندما يبلغ الجيش جبل جبل الزهاد فعرفت انه يهزأ بي وهو يريد ان يقرأ ما في الصدر ..

– ولكنك سألته ان يتعجل في إخراجك .

– بل سألته ان نخرج نحن الاثنين في ساعة واحدة ..

– ومعنى هذا ؟

– معناه يا مولاي اني كنت اهزأ به كما كان يهزأ بي ..

– بقي ان تذكر الحكاية التي لم يجسر هو على ذكرها .

– انها حكاية يغضب لها الملك وانا اخشى غضبه فقهقه ثم قال : اما الملك فقد غضب وانتهى الأمر .. اذكر كل شيء .

قال : عندما نقل برسي الى الملك خبر الفتاة ، ايقنت بان مولاي وثق بي ، وطاب لي عندئذ ان اداعب هذا الرجل الذي يتهمني بالخيانة واستخف به !.

واشار الى سنجان : قال : وكيف ذلك ؟

– رأيت سنجان يدخل خيمته ، فقلت لبرسي : هذا سنجان قد اقبل فساعدني في العبث به ، قال : بماذا ؟ قلت انه يبغضني ولا يطيق ان يقربني الملك اليه ، . قال : وماذا تصنع؟ قلت اسألك الآن عن الاسلام وارفع صوتي، فتظهر لي انك مسلم وقدعاهدت العرب على الوفاء لاسلامك.. فيضطرب هو في خيمته، وينقل حديثنا الى الملك ، فيضحك من جنونه .. ويكون له في هذا الحديث شيء من العزاء ..

وانت ماذا تقول يا برسي ؟

– هذا ما حدث يا مولاي ..

– ولم ترَ ما تسرّ به مولاك غير التحدث بالاسلام الذي هو عدو دينك ؟

– هذا ما فعله شهريار يا مولاي ولم يكن لي رأي فيه !

– ولكنك شاركته فيما فعل، واقسمت في خيمة الملك ان الموت احب اليك من ان تخون هؤلاء الفاتحين .

فجعل ينظر الى شهريار نظرات فيها العزيمة الصادقة ..
ثم قال : أتريد ان تعلم كل شيء ايها الملك ؟
– نعم فلا تتردّد في القول .
– إذن فأعلم اني مسلم فأعمد الى سيفك ان شئت !..

فمزق يزدجرد وسادةً كانت بين يديه وتمتم قائلاً : ويلك يا ملك فارس ! يستخف بك الخصيان وتعيش ؟!.

وكاد صوته يختنق في صدره وهو يقول لسنجان : ادعُ اربعة رجال من

حراس الملك ، فارتسمت دلائل الفرح الوحشي على وجه الرجل وخرج يدعو رجاله ، ثم عاد وهم وراءه والسيوف في الأيدي .

فقال يزدجرد وهو يطوي سوطه بيده: اصبغوا ارض هذه الخيمة بدماء هذا الخراساني .

فقال أحدهم : أنقتله يا مولانا ؟

فرفع صوته قائلاً : وهل دعوناك لتكون وصيفاً له ..؟ اقتلوه ..

فتظاهر شهريار بانه يحتمي ببرسي وقال له : لا تنسَ . ثم تراجع قليلاً وهو يقول : لي كلمة اقولها ايها الملك قبل ان اموت .

وكان جسم الملك يهتز من الغضب ، فقال :

بقي لك من العمر لحظة واحدة فقل ما تشاء ..

قال : اتذكر يا يزدجرد ذلك الفتى الخراساني ، الذي جثا على ركبتيه عند قدميك ، وانت في بلاطك في المدائن ، وطلب اليك ان تزف اليه جهان روز ابنة القائد ابان زرد الذي قتل في القادسية وهو يدافع عن عرشك ؟؟

أتذكر ان ذلك الفتى كان يقول لك : ان ابان زرد نفسه هو الذي اوصاه بان يتزوج ابنته وعهد اليه في ان ينقل وصيته اليك .. ولكن أتذكر ، انك احتفظت بالفتاة لنفسك ، وجلعتها حظية لك، لتنتهك حرمتها، وتجعلها مضغة في الافواه ثم لتقذف بهابعد ذلك يا ظالم الى القبر؟. انك تذكر كل ذلك ولكنك لا تعلم ان ذلك الخراساني الذي طردته من بلاطك وسلبته جهان‌روز هو شهريار نفسه الذي يخاطبك الان .! فأومأ الى الحراس بان يضربوه ، فمشى حتى حاذى يزدجرد وجعل يقول : اما وقد حكمت عليّ بالموت ، فاعلم اني لا اريد ان اموت الا بعد ان تعلم انت ويعلم من حولك ، اني أموت وأنا مسلم ، وانك لا تستطيع ان ترى اليتيمة المنكودة الحظ بعد موتي، وان أجلك قد دنا يايزدجرد الغدار..

فنهض الملك الثائر ودفعه الى الوراء ..

وهوت السيوف عندئذ ففصلت اعضاءه عضواً عضواً عن جسده، ثم جعلت تعلو وتسقط على عنقه ورأسه وكان قد أسلم الروح !!.

وسالت دماءه حتى صبغت ثياب يزدجرد ووسائده ..

ولكن برسي .. ذلك الخصي الضعيف الذي اشرق نور الايمان في قلبه ... والذي لم يكن يريد ان يخون ملكه ، لم يقع على الأرض من خوفه ، ولم يرتفع له صوت !!. لقد جعله الاسلام جباراً لا يلوي له عود .. وكان سنجان ينتظر حكم الملك الاخر بالقضاء على الرجل . ولكن يزدجرد كان أبعد نظراً منه فقد أراد ان يعذب الخصي حياته كلها ليتعلم الخصيان والمستشارون والقواد ، الخضوع للملكهم والاخلاص له حتى الموت !! فقال لسنجان : احتفظ بهـذا الخائن عمرك كله ، فاذا متّ فاوص بنيك بان يحتفظوا به ويعذبوه كل يوم !! وخرج قائلاً : اضربوا هذه الخيمة في مكان آخر كي لا تبصر عيناي دم مسلم ، واجعلوا في عنق هذا اللعين سلسلة يجر بها منذ الان !! وأحسّ عندئذ بان نفسه الظمآئة الى دماء المسلمين قد ارتوت ، وان الحقد الذي يتأجج في صدره قد خمدت ناره .. ولكن لم تمرّ ساعة حتى ذكر ابنته التي ستمسي زوجة لمسلم .. وعادت الكآبة والألم ينهشان فؤاده .

* * *

- ٥١ -

كان ماهويه قد بعث برجل من رجاله ، يتبين أمر الجيش الزاحف يزدجرد على رأسه الى مرو الشاهجان . ومرت الايام وهو ينتظر رجوعه حتى أقبل وماهويه في مجلسه ، وعنده ولده براز ووجوه قومه فقال للرجل : ما وراءك ؟

– ورائي يزدجرد وجنوده .

– وعددهم ؟

– الفان . نصفهم من ابناء الأمراء عليهم فرخزاذ .

– والنصف الاخر ؟

– رجال خراذمهر صاحب جبل الزهاد وسنجان ابن اخيك على المقدمة مع طائفة من الفتيان الذين جعلهم الأمراء رهائن لدى الملك .

قال : أتعرف نيزك صاحب الولاية التي هي وراء حدود المروين ؟

وكان نيزك بطلاً من ابطال فارس ، دخلت العرب ولايته صلحاً ، وآنست فيه الوفاء لها ، فاعترفت له بحقه ولم تعرض له بسوء .

فقال الرجل : اعرفه يا مولاي واعرف معظم رجاله .

قال : ارسلنا اليه كتاباً ندعوه فيه الى المجيء ولم يعد الغلام الذي ارسلناه وقد مرَّ شهر على ذهابه ..

– وماذا تريد الان ؟

– اريد ان تلحق به ..

قال : افعل يا مولاي ، أفتكتب كتاباً آخر ؟

– لا نكتب شيئاً بل نجعلك رسولاً تتكلم باسم مولاك وقد عرفت الغـاية وكان ماهويه قد كتب اليه : لقد انتهى اليَّ ان يزدجرد سيجيء الى مرو ، فهذا كتابي اعاهدك فيه على ان أفي لك كل يوم بألف درهم ، اذا انت أرحتني منه ، واني ادعوك الى القدوم مع جيشك لننظر في الأمر . وسأله في آخر كتابه ان يكتب هو الى يزدجرد ، ويخدعه بقوله : انه عوّل على ان يكون عوناً له عـلى عدوه من العرب حتى يقهر ذلك العدو ويطلب اليه ان ينحي عنه فرخزاذ وعامة الجند ..

فخرج الرجل واقبل ماهويه يهامس ولده واهل مشورته ، ويضع بالاشتراك معهم ذلك المنهاج الذين سيلجأون اليه بعد قدوم الملك ، كما سيجيء . ولم يلبث حتى اختار بضعة رجال من رجال الرأي، يرافقونه في المهمة الخطرة التي خطرت له. ثم عمد القوم الى اعداد العدة داخل الأسوار وأوصى ولده وقواده بالا ينسوا شيئاً مـا اوصاهم به.. وبعد ان انقضى ذلك اليوم خرج مع رجاله للقاء ملكه وهو يلبس لباس الوفي الطائع المخلص لمولاه . ومشوا ثلاثـة فراسخ ، فأبصروا مقدمة الجيش التي يقودها سنجان ، ولا لواء لهـا ، كأن الملك لا يريد ان تخفق اعلامه في الفضاء ، الا بعد ان يظفر بالمغتصبين .

فقال ماهويه لرفاقه : تنحوا عن الطريق الى المنحدر القريب فأنا اخشى ان يفاجئنا سنجان بالسيف قبل ان نمثل بين يدي يزدجرد. ومرّ سنجان في طليعته

وهو غافل عما حوله ، ثم أقبل الملك على فرس له وامامه فرخزاذ وخراذمهر ، وحوله كبار الامراء من الفتيان .. وعيناه تنظران الى الارض .

فجثا الوالي ورجاله على ركبهم ، وظلوا ساجدين وقد حنوا الرؤوس حتى داناهم الملك وهو يظن انهم من الصعاليك. فرفع ماهويه عندئذٍ رأسه قائلاً: لقد خدعوك بقولهم يا مولاي اني نسيت ملكي .. !

فأشرق جبينه قائلاً : من هذا ؟

فقال فرخزاذ : هذا ماهويه صاحب مرو يا مولاي .

– صاحب مرو الخاضع للعرب ؟!

فقال ماهويه : بل الخاضع لحفيد الأكاسرة العظيم الذي خانه الزمان ..

– ولكنك اشتريت الولاية بخضوعك للاحنف بن قيس وقد عاهدته على الوفاء للمسلمين ..

– ذلك ما قصّه عليك سنجان يا مولاي .

– ولم تفعل ذلك ؟؟

– بلى ، ولكن على رجاء ان اجعل جند مرو ومن حولها من رجال عوناً للملك على طرد العرب من بلاده !

– ومن اوحى اليك بانك سترى ملكك وتجعل رجالك جنوداً له ؟

– كنت ابحث عنه يا مولاي وقد بعثت برسلي الى جميع الاقاليم يسألون عنك حتى عادوا اخيراً يقولون لي : انك تركت جبل الزهاد مع جيشك تريد مرو .

فنزل عن فرسه وهو يقول : انهض ولينهض رجالك ، ثم قال : ألم تكن قادراً على خدمة الملك دون ان تلجأ الى الاحنف ؟

– لا يا مولاي !

– اذن فالأحنف نفسه هو الذي علمك الاخلاص لقومك !

– اما الاخلاص فلم يفارق هذا الصدر يا مولاي ، ولكني اردت أن أخدع العرب واحملهم على الوثوق بي ليسلموا اليّ امر مرو الشاهجان .

– كان عليك ان ترضى بولاية سنجان ابن اخيك وتشاركه في اعـداد العدة للدفاع عن عرش الفرس .

– لم يجعل لي سنجان سبيلاً الى ذلك .

– ألم يكن مخلصاً لنا ؟

– قد يكون مخلصاً يا مولاي ولكنه لم يشأ ان نكون نحن من المخلصين ..

– وكيف ذلك ؟

– منع عني جميع اسباب العيش وأحاطني برجاله !

– وهذا معناه انه كان يخشى ان تخرج عن الطاعة .

– بل كان يخشى ان اعرض لنفوذه في الولاية .

– وقد لقي اخيراً مـا كان يخشاه وتم لك الامر بفضل الاحنف كما اردت .

– اجـل يا مولاي ، لقد تم لي الأمر كما قلت ، ولكنني لم افعـل ذلك الا لأجل الدفاع عن نفسي .

– اي انك اردت ان تسترجع نفوذك في مرو ؟

– نعم !

– وماذا صنعت بالمال الذي ارسله الملك الى ابن اخيك ؟

– لم أرَ شيئاً من هذا المال يا مولاي .

– ألم تبح للاحنف بأمره ؟

– بحت له بذلك ليؤمن بوفائي وهذا مظهر من مظاهر الدهاء .

فقال : تضيّع مال الملك ليثق بك هذا العربي ؟

– أبذل هذا المال اليوم ، على امل ان استرجعه غداً بقوة السيف .

فقال لفرخزاذ : ماذا ترى ايها القائد ؟

فهامسه قائلاً : لا اثق بما يقوله لأني اقرأ الخيانة في عينيه ..

– وما هي غايته من خضوعه ؟

– لا اعلم يا مولاي فقد تكون له غاية لا تظهر الا بعد حين .

قال : خير للملك ان يأخذ منه ولا يعطيه .

– ليفعل الملك ما يشاء فالرأي رأيه .

قال : ماذا تطلب الآن يا ماهويه ؟

- لا أطلب شيئاً يا مولاي .. بلى .. اطلب ان يظفر الملك بأعدائه .

- لا يظفر الملك بمن ذكرت الا اذا مشت وراءه الجيوش من اهل فارس .. كم هو جيشك ؟

- في المدينة ثلاثة آلاف يا مولاي عدّتهم كاملة !!

- وخارج المدينة ؟

- جميع القوم خارج المدينة جنود الملك .

وتفعل الآن ما نأمرك به ؟

- لو لم تكن هذه غايتي لما قدمت .

قال : اسمع .. لقد ولينا قائدنا فرخزاذ امر مرو منذ الساعة !

ولم يكن ماهويه يخاف احداً مثلما يخاف فرخزاذ وسنجان .

هذا داهية ينصب له الشرك ولا يبالي بالدماء التي تهرق حوله ، والآخر بطل من ابطال فارس لا يتراجع الى الوراء .

وقد يحبط مسعاه اذا لم يتدبر امر الاثنين، فقال : رضيت بذلك يا مولاي .

- وتدفع اليه مفاتيح المدينة ؟

- نعم ولكني اخاف ان يسألك اهل المدينة غداً ان تبعد سنجان ابن اخي لأنهم لا يحبونه ولا يطيقون ان يروا وجهه .

- سننظر في امر سنجان عندما يسألوننا ذلك .. تـقدم الجيش الآن ومر الحراس بان يفتحوا لأبواب للملك .

- بل أسير في ركابك يا مولاي خوفاً من ان تقع عيني على عين ابن اخي ، فلسوء العاقبة . !

قال : تناسَ الآن ابن اخيك وكن عوناً له في خدمة مولاك .

- لا استطيـع ان اتناسى ما فعله يا مولاي .

- وماذا فعل ؟

- أحصى عليّ انفاسي وسلبني مالي وهو يزعم انه مال اهل فارس .

قال : ستلتقيه خارج السور بعد ساعة .

– التقيه والملك حاضر فلا تشهر السيوف .

قال : احذر ان تسيء اليه فالملك لا يأذن في ذلك .

– واذا خطر له هو ان يسيء اليّ ؟

– انه لا يقدم على هذا الا اذا امرناه به .

قال : سترى بعينيك يا مولاي اني لا اخالفك في شيء .

قال : اعط ماهويه فرساً يا خراذمهر .

فاعطوه ، فركب فرسه وراء يزدجرد ومشى رجاله وراءه مع الفتيان الأشراف الذين أتوا ليسترجعوا التاج !!!

* * *

- ٥٢ -

سار عبدالله بن عامر ، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس يريد اقليم نيسابور ، كما قرأت في الجزء الماضي فلما انتهى الى البسطين اللذين هما حصنا خراسان ، اقبل اهلها يصالحونه على ستمائة الف درهم ويعدونه بالخضوع الى الابد ، خضوعاً لا تعقبه خيانة ولا رياء فيه .

ولم يكن أهل البسطين رجال ثورة وشر . ولم يخطر لهم ان يحملوا لواء العصيان ، لو لم يخدعهم سنجان باكاذيبه ويدفعهم الى ذلك .

كان يقول لهم : ان الملك سيسترجع عرشه في هذا العام فالويل لمن تحدثه النفس بالبقاء على الولاء والطاعة للعرب .. وقد عرف والي البصرة ذلك، فرضي بالصلح واوصاهم بأن يقيدوا بالسلاسل كل فارسي ينفخ في صدورهم روح العداء . وبعث بطائفة من رجاله الى ولاية صغيرة من اعمال نيسابور يقال لها ولاية زام ، ففتحوها عنوة واخضعوا أهلها بالسيف. ثم فتح باخرز، وجوين ، وما حولهما ، وارسل الاسود بن كلثوم العدوي الى اقليم بيهق وامره بأن يهدم حصونه ، ويضرب اهله المتمردين ضربة لا يرتفع لهم بعدها صوت . وكان الاسود بطلاً

مغواراً يقتحم الصفوف وسيفه بيده لا يبالي بالرماح تلمع عن جانبيه ، والسهام ترسل إليه .

فجعل يعالج الاسوار ، والقوم في مدينتهم ، حتى فتح فيها ثلمة دخل منها ومعه طائفة من المسلمين . ولكن هذا الدخول كلفه حياته .. فان العدو اخذ عليه تلك الثلمة التي فتحها، وجعلته الرجال في الداخل، ضمن نطاق من الحراب والسيوف . فقاتل الاسود الجبار حتى قتل وهوت حوله الرجال الذين معه جثثاً مضرجة بالدماء وقام بأمر الناس بعده اخوه أدهم بن كلثوم . وكان الأسود يقول قبل موته : اللهمّ احشرني في بطون الطير والسباع !!

فلما خلفه اخوه ، امر رجاله بأن تهاجم المدينة ، من تلك الناحية التي قتل فيها الاسود وتقدمهم قائلاً : اما ان تهدموا الاسوار او تموتوا !! وكتب لأدهم الظفر ، ففتح البلد الحصين الذي لجأ اليه أهل بيهق ، واجرى في سوقه نهراً من الدماء . وكانت جثة اخيه ، وجثث رفاقه ، عند الجدار ، فدفن من استشهد من أصحابه ، ولم يحفر لأخيه حفرة بل اراد ان يجعل بطون السباع والطير قبراً له كما قال !!

وكان جيش ابن عامر قد افتتح بشست ، وخواف وارعيان ، وطوس ، ونسا وحمران ، وكل هذه الاقاليم والمدن من أعمال نيسابور . ثم مشى عبدالله الى نيسابور العاصمة ، بعدما افتتح أعمالها وأقاليمها ، فحصر اهلها شهراً حتى ضاقت صدور القوم . ولكنهم لم يستسلموا ولم يستطع ابن عامر ان يحطم الاسوار ..

وكان ولاة العاصمة اربعة رجال من مرازبة الفرس ، لكل واحد منهم ربع البلد لا يجاوزه الى سواه . فلما رأى احدهم ان المسلمين لا يتراجعون ، وانهم ان لم يفتحوا البلد اليوم فتحوه غداً، بعث الى عبدالله برجل يقول له: عدني بالامارة فيدخل المسلمون . فوعده بذلك ، ولم يجنّ الليل ، حتى دخل الجيش دخول الظافر يقتل ويسبي ويضع يده على كل شيء . وقد تحصن المرازبة الآخرون واستولى عليهم الذعر . على انهم لجأوا ، عندما طلع الصباح ، الى طلب الصلح فأجابهم امير البصرة الى ما طلبوه ، على ان يدفعوا اليه الف الف درهم .

وبعد ان استقام له الامر، ولّى قيس بن الهيثم السلمي امر نيسابور كلها ، وسير جيشاً الى سرخس ثم الى هراة ، بقيادة عبدالله بن خازم ، فامعن الرجل في الفتح حتى دانت للعرب ، تلك الناحية الواسعة الارجاء، من خراسان. ولم يبق غير تلك الناحية الاخرى ، التي تضم اقليم طخارستان واقليمين آخرين فيهما الجيش الكثير . وكان سعيد بن العاص والي الكوفة قد انتهى مع جيشه الى جرجان . فلما بلغه نزول ابن عامر عاصمة نيسابور ، رجع الى الكوفة وهو يقول لمن حوله : ان امر خراسان قد انتهى الان . وقد هم ابن عامر بارسال الجند الى الاقاليم التي ذكرنا . فبينا هو يسمّي القواد ويختار الرجال ، اقبل رسول زياد المازني يحمل كتاب مولاه الى الاحنف بن قيس .

وكان الاحنف عندئذ في مجلس عبدالله ، فقرأ كتاب زياد على مسمع من القوم وقد جاء فيه : خبرني احد خصيان الملك وقد دخل في الاسلام، ان هذا الملك زاحف الى مرو الشاهجان بألفي رجل وان القوم حولها سينضمون اليه حتى يمسي جيشه بضعة عشر الفاً فالرأي الرأي .

ولم ينته من القراءة ، حتى نهض ويده على سيفه وجعل يقول : لقد ظهر يزدجرد اخيراً فلم يبق الا ان اعود . فابتسم عبدالله قائلاً : الي اين ؟

– الى مرو الشاهجان لأقبض على يزدجرد وابعث به ، وعلى رأسه تاج فارس، الى أمير المؤمنين !

– اما انا فلم اصدق كلمة واحدة من كتاب زياد .

– وهل يخطر للرجل ان يخدع اميره ؟

– لا ، ولكني أظن انه هو المخدوع، وان ذلك الخصي الذي ذكره في كتابه تظاهر باعتناق الاسلام ليثق زياد بوفائه .

قال لا يجسر على ان يفعل هذا .

– بل يفعله اذا دفعوه اليه .

– ومن يدفعه ؟

– اولئك الذين اوقدوا نار الثورة والحرب في جميع الاقطار ، وعلى رأسهم يزدجرد نفسه الذي نبحث عنه ولا نعثر عليه .

– وما هي غايتهم من القول ان يزدجرد زاحف الى مرو ؟

– لهم من وراء ذلك غـاية يعرفها رجال الميادين، هي انهم ارادو ان تتفرق قوى المسلمين ويبعد هذا الجيش عن الجيش الآخر .

ثم قال : اسمع يا ابن قيس ، يقولون اليوم لأمير البصرة : ان الملك الفارسي خرج من وراء الجدران وحمل سيفه وهو يرغب في القتال فيعمد هذا الامير الى ارسال طائفة من جيشه الى الموضع الذي يصفونه له فلا تجد هذه الطائفة احداً . ثم يقولون له : لقد انتقل الملك الى بلد آخر فيبعث الامير بجنوده الى ذلك البلد ولكنهم لا يجدون احداً وعندما يرون ان القوى قد تفرقت ، يهاجمون المسلمين من كل ناحية ويمحونهم من الوجود . هذا ما يصنعه القوم يا ابن قيس ويخيل اليّ ان الرجل الذي نقل الى زياد خبر الملك واحد من هؤلاء .

– وتراهم يريـدون ان يخرج من نيسابور الى مرو ، فريق من الجيش الفاتح لتضعف قواه ؟ – نعم !

قال : اخشى ان يكون الأمر غير ماظننت .

– وأنا اخشى ان تؤمن بما قرأت ، ثم تذهب الى مرو فلا تجد فيها أثراً للملك.

– ومع ذلك فلا بد من المسير غـداً فقد يظفر المسلمون بالقبض على عدوهم الذي ضيـع نصف اهل فارس .

قال : إن امير الجيش لا يأذن لك في الذهاب . – لماذا ؟

– لان الفتح لم يتم كما يريد امير المؤمنين ونريد نحن .

قـال : في الجيش قواد تخفق فوق رؤوسهم كلما خرجوا الى القتال ، ألوية النصر .

– ولكني لا أبعث الى طخارستان واحداً من هؤلاء .

– وتريد ان تبعث بي اليها ؟

– اجل فافتحها وافعل بعد ذلك ما تشاء .

– ومتى تأمر بذلك ؟

– تقدر ان تسير غداً ولك ان تنصرف منها الى مرو عندما يخضع لك القوم ويعودون الى الطاعة .

قال : هب ان زياداً كان صادقاً فيما كتبه اليَّ .

– ليكن صادقاً ولا ابالي .

– واذا استولى يزدجرد على مرو ؟

– نسترجعها بالسيف ونحمل جثة يزدجرد على الاسنة . ان الجيش الذي يخلع حفيد كسرى عن عرشه ، ويخضع بلاد الفرس كلها لسيفه لا تستطيع مرو ان تثبت في وجهه .

– اذن ارحل غداً فليس لي ان اخالف الامير فيما يراه .

– وتقود الى تلك البلاد ثمانية آلاف من الرجال الاشداء ، فتقاتل عندما يطيب لك القتال ، وتعمد الى الصلح عندما يخطر لك .

قال : ستنتهي اليك اخبار الظفر بعد شهر إن شاء الله .

قال : لقد تعود الاحنف ان يشرف قومه فسر فالله ناصرك .

وبات القوم ليلتهم ، على ان يزحف جيش الاحنف عند الصباح الى ذلك الاقليم الذي قرأت ، ووراءه ابطال العرب خواضو الغمرات .

* * *

- ٥٣ -

هذا عملك ماهويه في الجيش ، وقد جاء يعرض علينا المدينة ويظهر خضوعه

فقال سنجان : لقد رأيته الآن يا مولاي فمثلت بين يديك لأسألك عن سبب وجوده واقول لك ما يخطر لي .

– والملك يعلم ما يخطر لك .

ماذا يا مولاي ؟

– أتيت لتسأل مولاك ان يقتله الساعة !

– أجل يا مولاي ، اني ارغب في ذلك واطلب اليك ان تنقذ نفسك وجيشك من شر هذا الغدار .

فابتسم قائلاً : لقد فكرنا فيما تقول ونحن من هذا الرأي .

– ومتى تفعل ذلك ؟

– بعد ان ندخل مرو ويستقيم لنا فيها الامر .

قال : قد لا تستطيع ان تفعل غداً ما تستطيع فعله اليوم .

– ان الرجل في يدنا كما ترى وهو غير قادر على النجاة من الموت .

– بل هو يقدر على كل شيء عندما يصبح في المدينة ، وقد يغدر بك وبقومك في ليلة يمد الظلام فيها رواقه . اني انصح لك يا مولاي بان تضرب عنقه في هذه اللحظة ليخلو لك الجو .

– ولكننا لا نستطيع بعد ذلك ان ندخل مرو ، وقد سكت الملك عنه الآن من اجل هذه الغاية .

فرأى سنجان ان الملك مصيب في رأيه ، فقال: اذن فماهويه سيقتل بعد ذلك.

– كما يقتل كل رجل يخون الملك .

– ووضعت خطة القتل ؟ – أجل !

قال : التمس من مولاي ان يصفها لي .

قال : ندخل المدينة ، فيضع الملك يده على المال والسلاح والجند ، ثم يدعو ماهويه وانصاره ويقول لهم : الموت جزاء كل فارسي يخون وطنه ويماشي العرب ونأمر عندئذ بأن تعلق اجسادهم على باب المدينة ثلاثة ايام ليراها كل مروي .

قال : هذا هو الرأي فليعش الملك. ولكن ارجو ان تتعجل في ذلك قبل ان يفسد الرجل عليك الامر .

قال : اتخافه ؟

– بل اخاف ان ينصب الشرك لمولاي . وقد بقيت لي كلمة اقولها لك .

– ما هي ؟

– هي ان تجعلني سيد القوم بعد دخولك ، فان لي خبرة بأهل مرو وانا اعلم ما لا يعلمه سواي .

– ستكون الولاية لك ولبنيك من بعدك . واما الان فقد وليت رجلاً آخر ولاية لا تدوم الا بضعة ايام .!

– من هو يا مولاي ؟ – فرخزاذ .

– ونسيت عبدك الذي انتهكت حرمته في مرو وسلبوه ماله ؟!

– لا . لم ننس . ولكنه دهاء لجأنا اليه ليثق ماهويه بالملك . ويقوم في ذهنه اننا لا نرغب في ان نوليك .

– وعرف ماهويه انك سلمت الولاية الى قائدك ؟

– نعم فقد فعلنا ذلك وهو موجود وقد رضي به .

– ومتى تدخل مرو ؟

– غداً عندما تطلع الشمس .

– وتركت عمي حراً يروح ويجيء بين صفوف الجيش ؟!

– انه حر ، ولكن بين طائفة من الحراس يحصون عليه أنفاسه ..

ثم قال : ألم تقل لنا يا سنجان ان القوم النازلين حول مرو سيكونون عوناً لنا على عدونا ؟

– بلى يا مولاي ، واقول ذلك الان .

– ومتى يجيئون ؟

– عندما يعلمون ان الملك دخل مرو دخول الظافر !

– ومن قال لك ذلك ؟

– بيني وبينهم عهد يا مولاي وقد رأيت الان رأيـاً هو ان نبعث رجلاً الى مرو الاخرى يتبين أمر المسلمين فيها من وراء الستار ، ويعد الجيش الذي فوض اليه الاحنف أمر الدفاع ..

قال : أصبت وليذهب الليلة فقد ينتقل الملك بعد ايام الى البلد الذي ذكرت اذا قضت الحاجة بذلك ..

وكانت مرو بلداً كبيراً، له سور ضخم كثير الابراج، وفي كل برج منها بضعة رجال. ويزدجرد يعرف ذلك ، وقد مرّ بمرو ، وهو فارٌ منذ بضعة أعـــوام ، ونظر الى حصونها نظرة ملك خلعته القوة من العرش. فلما فكّر في الانتقال الى مرو الروذ نهض قائلاً لسنجان : أتغيرت حصون المدينة ؟

– لا يا مولاي بل هي باقية على الحال التي رأيت .

قال : يخطر لنا ان نطوف ساعة حول السور في هذا الليل .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– ان ننظر الى مرامي الابراج فقد تكرهنا الاقدار على ان نقف في مرو موقف حصار . ! ثم فابعث الى مرو الروذ رجلاً كما قلت وارجع فنحن بانتظارك.

ففعل سنجان ما أمره به ثم عاد ، ولم يلبث الاثنان حتى خرجا ووراءهما حارسان من حراس الملك .

وقد خيل الى يزدجرد ان في الابراج أشباحاً تروح وتجيء .

فقال : ايقيم الرماة بأبراجهم ، في أيام السلم ؟

– لا يا مولاي .

– ولكننا نرى اشباحهم فيها والانوار الضعيفة تبدو وتختفي كما ترى .

فأرسل نظره قائلاً : ذلك امر جديد عمد اليه ماهويه بعد تركي مرو .. ان القوم في الداخل يتهيأون للحرب !

– اجل فهم يخشون ان تفاجئهم خيل العرب .

– بل يخشون ان يفاجئهم ملكهم فهم لا يريدون ان يعترفوا بسلطانه بعد نزوله عن العرش !!

فذعر وجعل يتفرس به وعيناه تختلجان ، ثم قال : ومن دلّك على ذلك ؟

– هذه الانوار في الابراج فقد أمر ماهويه الرماة بان يعدوا عدتهم عند وصول الملك !.

– يفعلون ذلك كما قلنا خوفاً من الأعداء ..

– بل يعدون عدتهم ليمنعوا ملكهم من دخول المدينة .

قال : لقد أملى عليك الحقد هذه الظنون ..

قال : سترى غداً بعينيك كل شيء يا مولاي .

فلم يطق يزدجرد ان يسمع فوق ما سمع ، فقال : ارجع فنحن نريد ان نستسلم الى النوم ليمرّ هذا الليل دون ان نشعر به !

قال : لم ينته طوافك يا مولاي .

– لقد عدلنا الان عن هذا الطواف الذي لا خير فيه .

وانثنى راجعاً الى خيمته ، وهو يفكر فيما قاله سنجان ويترنح في مشيه كما يترنح السكران !! واستلقى على فراشه يسأل سلطان الكرى ان ينقذه ولو لحظة واحدة من مخاوفه وتفكيره ، ولكن ذلك السلطان كان أصم لا يسمع .. فقد بات الملك المسكين على فراش الألم الذي يمزّق صدره حتى طلع الصبح ، ولم يغمض له جفن ..

* * *

– ٥٤ –

أندخل المدينة الان يا ماهويه ؟

– نعم يا مولاي ، فاركب ، وليركب الجيش، ليدخل الملك وهو على فرسه كما كان يدخل المدائن في ايام العز !!

فجعل يردد قائـــلا : في أيام العز .. في أيام العز .. ولا نعلم اذا كان هذا العز يعــود .

وسار وماهويه بين يديه، ومشى الجيش وراءهما وسنجان في آخر الصفوف، حتى انتهوا الى الباب الاكبر اللابس ثوباً جديداً من الحديد والفولاذ .. ولكنه كان مغلقاً والحراس خلفه . والجنود فوق الاسوار بينهم براز بن ماهويه .

فناداه أبوه قائلا : افتح يا بني فهذا ملك فـــارس .. وجعل يشد منطقته ويومىء اليه ان لا يفعل .. فرآه رجل من اصحاب يزدجرد فقال لمولاه هامساً : ان ماهويه يومىء الى ولده ان لا يفتح فاضرب عنقه . فنظر اليه وهو لا يجيب ، فقال : اضرب عنقه يا مولاي .. انـــك ان فعلت صفت لك الأمور من هذه الناحية من بلادك وظفرت بالمسلمين . فأجابه قائلا : اذا فعلنا ذلك خسرنا مرو

الى الأبد . وحول وجهه الى ماهويه وقال : اين ما وعدت ايها المرزبان ؟

فنادى ولده ثانية وجعل يقول : افتح يا براز ..

فقال : لا افعل إلا على شرط ..

– ما هو ؟

– ان يقتل الملك سنجان على مرأى من الجيش فنفتح له الابواب ونجثو عند قدميه ساعة دخوله !..

قال : لقد اوصيتك بان تخرج مع اهل المدينة لاستقبال الملك ووعدتني بذلك ووعدني القوم .

– ولكنهم رجعوا الان عن وعدهم لانهم يخافون ان يدخل سنجان ويبدأ بضرب الاعناق ..

قال : لا يجسر على ذلك والملك موجود !

– اما نحن فنخاف ان يحمل الملك نفسه سيف الجلاد !

قال : ألا تعترفون يا اهل مرو بيزدجرد بن شهريار ؟

– بلى ولا نعترف بسواه .

– وتكونون أعواناً له على العرب ؟

– بل نكون عبيداً لعرشه كما كنا من قبل .. ولكن ليقتل سنجان الساعة فنحن لا نطيق ان نراه في مرو .

فقال يزدجرد: قل له ان الملك سينظر فيما تسألونه اياه، عندما يدخل الجيش المدينة ، ويلجأ الى المنازل .

فأعاد ماهويه قوله ، فأجابه براز : لا نرضى بذلك .

قال : يكفي ان الملك يعاهدكم على هذا .

– ولكننا لا نثق بالعهود ، فالملك لا يفعل شيئا وسنجان حي .

قال : أتعمد الى القوة يا مولاي ؟

فقال فرخزاذ : لا ، بل نرجع الى الخيام لننظر في الأمر .. عد يا مولاي فلي ما أقوله لك اذا أردت .

وكان سنجان قد سمع ما ذكره براز ، فدانى الملك قائلا : اضرب عنقي يا مولاي اذا رأيت ان في ضربه يستقيم لك الأمر . والملك عندئذ مطرق مهموم ، فرفع رأسه وقال: الى الخيام .. امش يا ماهويه فقد نعدل عن الدخول . وساد الصمت الجيش الراجع الى خيامه، كأن موكبه موكب الموت . وبينا الملك يريد ان يستشير قواده ، أقبل رسول يحمل اليه كتاباً ، فقال له : من ارسلك ايهـا الغـلام ؟

– احد عبيد الملك ..

فتمتم قائلا : لم يبق للملك عبيد .. من هو ؟ – نيزك ..

– صاحب الولاية القائمة على الحدود ؟ – نعم !

– فتناوله وجعل يقرأ ..

ثم افترّ ثغره واشرق جبينه وأومأ الى سنجان ان يدنو منه. فسجد فرخزاذ بين يديه وقال : اقول كلمتي يا مولاي قبل ان تستشير القوم في امر كتابك .

قال : ما هي كلمتك ؟

قال : استصعبت عليك مرو وستأتيك العرب ..

– وما الرأي ؟

– الرأي ان نلحق ببلاد الترك ونقيم بهـا حتى يبين لنا امر العرب فانهم لا يدعون بلداً الا دخلوه ..

قال : لسنا نفعل .

– وماذا إذن ؟

– نرجع من حيث اتينا فملك فارس يكره ، بعد ان خبر الناس، ان يستعين بالملوك ، ولو كانوا حلفاءه .

ثم قال : اذكر لأهل المجلس ما قرأت يا سنجان .

فقال : يقول نيزك في كتابه ، انه آتٍ على رأس جيش ضخم ليساعد الملك في استرجاع مرو . قال هذا وسكت ، فقال الملك : أهذا كل ما قرأت ؟

– لا يا مولاي فنيزك يسأل الملك ان ينحي عنه فرخزاذ وعامة الجند .

فقال فرخزاذ : أنا !

– نعم فهل تعرف الرجل ؟

– اعرف اسمه ..

– إذن فهو لا يريد ان يرجع اليك الفضل في استرجاع العرش .. ليبد كل منكم الآن رأيه ..

فقال سنجان: لست أرى ان تنحيّ عنك جندك وفرخزاذ لشيء من الاشياء ولو كتبت اليك في ذلك ، فارس كلها .

– وانت يا ماهويه ؟

– اما انا فأرى ان تجيب نيزك الى ما طلب، فهو من كبار الفرس وابطالهم كما تعلم ، وستبلغ الغاية بقوة جيشه .

ففكر قليلاً ثم قال : وولدك براز ؟

– سنفتح المدينة على رغمه وانا اضمن ذلك ..

فأعمى القدر بصيرته فقال : قبلنا هذا الرأي !.

فصاح فرخزاذ : أتفرق جندك ايها الملك ؟ – اجل !

– وتنحيني عنك ؟

– نرغب اليك انت ان تتنحى ففي هذا التنحي رجوع ملكك الى عرشه .

– والى اين أذهب ؟

– الى اجمة سرخس فتمكث بها حتى ينتهي اليك امر آخر .

قال : خير لك ان ابقى يا مولاي .

فقال ماهويه: لا يستطيع الملك اغضاب نيزك وهو الذي سيسترجع التاج..

فشق فرخزاذ جيبه وتناول عموداً بين يديه يريد ضرب ماهويه به .

فوقف الملك بين الاثنين قائلاً : ماذا تصنع ايها القائد ؟

– اقتل هذا الرجل ثم انصرف .. ثم قال : يا قتلة الملوك .. قتلتم ملكين واظنكم قاتلي هذا .

والتفت الى الملك وجعل يقول : لا اذهب يا مولاي حتى تكتب لي عهداً اني بريء مما تصنع فكتب له يزدجرد كتاباً جاء فيه : « هذا كتاب لفرخزاذ انك قد سلمت يزدجرد واهله وولده وحاشيته ومـا معه الى ماهويه دهقان مرو » . ووضع خاتمه في ذيـل الكتاب ودفعه اليه، فقال : اني ذاهب ايها الملك فاذكر اني نصحت لك بأن ترفض هذا الرأي ، فلم تقبل .

وخرج دون ان ينظر الى احد .

فاكتفى الملك المسكين بان يشيعه بنظرات طائشة ليس فيها لون واحد من الوان العاطفة هي نظرات التائه الذاهل الذي خسر حكمته .. بـل نظرات المجنون الذي خسر عقله .. وقلب ماهويه يرقص في صدره من الفرح، وهو يقول في نفسه : بقي علينا سنجان وينتهي امره .. وبعد ساعة، خرج الملك من خيمته ينظر الى الفضاء ويستوحي الآلهة وكأنه لا يستطيع ان يصبر الى المساء لتنصرف عامة جنده مع خراذمهر القائد الآخر المخلص له .

وتبعه خراذمهر وسنجان وهما يقولان : نرجو من مولانا الملك ان يفكر في امره قبل ان يخيب الرجاء . فقال : لقد فكرّنا فيه وانتهى الآن كل شيء .

– ولكنك سلمت نفسك الى عدوك .

– من قال ان نيزك عدونا ؟؟ هذا امير من امراء فارس جاء يعرض سيفه على الملك دون ان يخطر لنا من قبل ان يجود بهذا السيف. أفيكافئه الملك على اخلاصه بان يدعوه عدواً له ؟

فقال سنجان : يخيل اليّ يا مولاي انه شريك ماهويه .

قال : سنجعل ماهويه وولده طعاماً للطير بعد ايام .

– اما انا فأقول لك انك لا تستطيع ان تفعل ذلك .

– لمـاذا ؟

– لان الرجل سيكون اسبق اليك ، منك اليه ، وسترى .

قال : كفى يا سنجان فلا خير في الحياة مع الذل .. اننا لنؤثر ان يقتلنا الخونة من اهل فارس ، على ان تقبض العرب علينا وتبعث بنا الى الحجاز لنمثل بين يدي اميرها كما يمثل العبد امام مولاه .

وكانت لهجة الملك هذه المرة لهجة يائس لم يبق له في عالمه ما يطمع به . بل كانت لهجة محتضر يلفظ كلماته مع روحه .

فقال : ارجع الى نفسك يا مولاي واسمع لقوادك ..

– وماذا يطلب هؤلاء القواد ؟

– ان تلحق بهم الى موضع يجاور مرو لنجمع فيه الجيش الذي وعدناك به ، ثم نعود على رأسه فندك الاسوار التي لم يفتحوها لك .

قال : اذا فعلنا ذلك جعلنا نيزك من الاعداء .

– ولكنه من هؤلاء يا مولاي .

فأومأ اليه بأن يسكت ، ثم جعل يروح ويجيء دون ان يكون له هدف أو غاية وهو لا ينظر الا الى الأرض والى السماء ..

واحسّ بعد ساعة انه بحاجة الى الراحة ، فعـاد الى خيمته ومنع الناس من الاستئذان عليه حتى اقبل المساء . فخطر له عندئذ ان يخاطب قائديه فقـال لحاجبه : ادعُ سنجان وخراذمهر ، واخذ يضرب ارض الخيمة بصوته منتظراً دخولهما . ومـا هي غير لحظة حتى رجع الحاجب وقال : لقد خرج الاثنان من المعسكر !!

قال : ويلك انهما لا يخرجان بدون ان نأذن لهما ، اسأل الحراس ..

– سألتهم يا مولاي .

– وهم الذين قالوا لك ذلك ؟

– نعم والجيش كله يعلم انهما تركا مرو .

– ورجال خراذمهر ؟

– انهم ينصرفون الساعة عملاً بأمر الملك ..

– اذن لا يبقى حول الملك في هذا الليل غير ابناء الامراء الذين لا قائد لهم !

قال : ذهب بعضهم يا مولاي .

فخنقه الدمع ، وأحس عندئذٍ بالندم يمزق صدره ، وكان عزة نفسه تمنعه من ان يبعث الرجال ليسألوا قائديه ان يرجعا . ولم يمر على يزدجرد ، ليلٌ أعظم أثراً في نفسه من ذلك الليل ..

***

- ٥٥ -

افتح الأبواب يا ماهويه فقد انصرف سنجان .

قال : لقد اقبل نيزك يا مولاي وستدخلها معه ولواء فارس يخفق فوق رأسك ، والأقدار تبسم لك !

– واين نيزك الآن ؟

– بعث رجلاً من رجاله ينقل الينا انه في موضع بين المروين يقال له ، جلبندان ، وقد رأيت رأياً .

– ما هو ؟

– ان يشتري الملك ولاءه ووفاءه بالقليل من الدهاء .

– ولكنه مقيم على الولاء كما جاء في كتابه .

– اجل ، غيران القواد الذين لم يخوضوا الميادين في سبيل استرجاع العرش ، يطيب لهم ان يخصهم الملك بمظهر من مظاهر الحب .

– وكيف ذلك ؟

- يخرج مولاي للقائه !

قال : لم يفعل ذلك من قبل ملك من ملوك الفرس .

- اصبت يا مولاي لم يفعلوا ذلك لأن النصر كان حليفاً لهم في كل زمان ومكان ، ولأن الاقدار لم تنته بهم الى مثل هذا الموقف الذي انتهيت انت اليه .

فهزّ رأسه قائلاً : صدقت يا ماهويه ان الملوك الذين جلسوا قبلنا على عرش فارس لم يجر عليهم الزمان ... اجـــل صدقت وانـّا سنخرج للقـاء صاحبك عندما تشاء .

- وأرى ان يلقاه مولاي بالسلاح فينفر عنه ويشك فيه .

- وماذا نصنع ؟

- تأمر الجيش فيحمل مزاميره وابواقه ويسير لاستقبـاله كما يسير لاستقبال قائد بعيد الصوت عظيم الشأن !

- تفعل هذا ايضاً ولا تبالِ بما يقال .

- ونخرج غداً قبل بزوغ الفجر ؟

- قبل بزوغ الفجر ..

قال : لم يبق اذن يا مولاي الا ان أعدّ للموكب عدته .

قال : اخرج .

فمضى ماهويه ولم يلبث حتى ارسل رجلاً من رجاله الأربعة الى نيزك ، يطلعه على ما جرى ، ويسأله تنفيذ خطة جديدة كتبها اليه . وقضى نهاره ينظم صفوفه حتى جاء الليل فبعث الى ولده يقول له : افتحوا أبوابكم فالملك راحل غداً . ولم يبزغ الفجر حتى خرج موكب الاستقبال يتقدمه الملك فكأن نيزك هو الملك ويزدجرد قائد من قواده . وقبل ان ينتهوا الى جليندان ، تراجع ماهويه وهو يتظاهر بان تراجعه لأمر من امور الجيش .

وكان نيزك قد عرف كل شيء ، بعد ان قرأ كتاب ابي براز فجعل اصحابه ، من نواحٍ ثلاث ، صفوفاً الواحد منها وراء الآخر ، وأقبل ماشياً يستقبل ملك

الملوك ، وهو ينظر الى الأرض والابتسامة لا تفارق شفتيه . وكان يزدجرد على فرس له ، فلما تدانيا ، مدّ الملك يده اليه وهو راكب ، ثم امر له بجنيبة من جنائبه فركبها وسار الاثنان بين الصفوف . وخيل الى حفيد الاكاسرة عندئذ ، انه يرى عرشه على عمد العاج تتلألأ الجواهر والذهب على جوانبه. بل خيل اليه انه في بلاطه على ذلك العرش ، وقد دانت العرب والفرس من جديد ! فلما توسطا الساحة ، تلاحمت صفوف نيزك ، وتأخر جيش الملك .. وكان القائد يحادث مولاه ويعلله بالوعود والامل ... والملك ينظر اليه نظرات الرضى والاعجاب ... ثم قال له : ان عدو الفرس قوي كما تعلم ، فهل تستطيع ان تظفر بـه ؟

قال : سيرى الملك ان هذا العدو اضعف من ان يحول معي جولة واحدة .. ان ورائي مئة الف يا مولاي !

- ولكننا لا نرى غير بضعة آلاف .

قال : لسنا الآن في ساحة القتال ..

- وأين هو الجيش الذي ذكرت ؟

- في كل بلد طوائف منه تحمل السيوف .

- وهو يعطيك ؟

- بل احركه عندما أشاء كما أحرك بيدي هذا السوط الذي تراه .

ثم خفض صوته قائلا : ولكني أسألك قضاء أمر يا مولاي .

فاستيقظت العظمة والكبرياء في نفس الملك المغرور وقال : لا يتردد الملك في قضاء الأمر الذي تسأله اياه .

قال : ان القائد الذي يسترجع عرش الاكاسرة يحتاج الى عطف خاص لم ينله من قبلُ الا الملوك .

قال : اذكر حاجتك .

قال : زوجني احدى بناتك فاقاتل معك عدوك الى الابد ..

فأطلت الكبرياء من عينيه وقال : وعليّ تجترىء ايها النذل ؟؟!

وهي كلمة دفعهـا القدر الى شفتي يزدجرد ، ليقذف به بعدها الى الهوة .. فتراجع نيزك الى الوراء ، ثم عمـد الى سوطه وجعـل يؤدب الملك به ! ذلك هو القدر الساخر الذي يذل الاعزاء ويحط الملوك عن العروش.. فصاح يزدجرد قائلاً : غدر الغادر . وركض فرسه ، فانفرجت له الصفوف ليفرّ .. ووضع اصحاب نيزك سيوفهم في اصحابه الفتيان فقتلوا من قتلوا منهم، ولجأت البقية الباقية الى الهرب .. وكان الناظر الى يزدجرد الفـار يرى رجلين يتبعانه على فرسيهما وهما يخافان ان يضيعاه ...

* * *

-٥٦-

انتهى يزدجرد في هزيمته الى مكان على المرغاب لا يبعد عن منزل شهريار غير فرسخ واحد . وكان هنالك بيت لطحان ، فنزل عن فرسه وقد أحس بالتعب والضعف ودخل قائلاً لصاحب المنزل : غريب نهك السفر قواه يسألك ان تقبله في بيتك ريثما يستعيد هـــذه القوى !! فجعل الطحان يتفرس فيه وقد أعجبه منظره ، وهاله اصفرار وجهه ، وآثار التعب البادية على جبينه ، ثم قال : من أنت ايها الرجل ؟!

– شقي كما ترى .

– وهل كنت في ساحة القتال ؟

– اجل واني قادم من نيسابور .

قال : يظهر ان المسلمين هم الظافرون .

– لم يظفروا بعد ولكني خفت ان يتم لهم الظفر .

قال : سمعت ان الملك في مرو الاولى لا يلبث حتى يجيء الى جليندان للقاء قائد يدعى نيزك .

قال : لا أعرف هذا الملك الذي نشقى من اجله وأجل عرشه .

– يكفي ان تعلم انه ملك خسر هذا العرش .. فتظاهر بأنه يشد منطقته وكان يقول بل خسر كل شيء ولم يبق له امل باسترجاع ماضيه ..

قال : أتعرفه أنت ؟

– رأيته منذ خمسة عشر عاماً في المدائن .

– يقولون انه جذاب الملامح حسن الوجه .

– كان كما تقول ، اما اليوم فقد نقلوا اليّ ان ذلك الحسن امسى قبيحاً .! ثم قال : اجعل لي في منزلك مكاناً اسند اليه رأسي ..

قال : ادخل هذه الحجرة ففيها فراش تستلقي عليه .

ولكن ماذا تصنع بهذه الفرس فهي تدل عليك .

– اذا اردت ان تخفيها عن العيون فافعل .

– سأجعلها في الفناء الصغير القائم على الشاطيء .. ادخل وانا اهتم لأمرها واذا اضطررت دفعتها الى النهر ..

قال : افعل ما تشاء .

ومشى الى الحجرة الصغيرة التي تحاذي الماء ، وكان فيها فرش كما قال الطحان ، ولها نافذة تطل على المرغاب . وجعل يبكي بكاء اليائس الذي يرى الموت ماثلا امام عينيه ، ثم استسلم الى النوم على رغم يأسه الذي لا علاج له . وانصرف الطحان الى عمله . وكان الرجلان اللذان لحقا به ، قد ضيعا أثره . على ان الاقدار لم تشأ ان ينجو ، فقد أقبل في ذلك اليوم على منزل الطحان رجل من اهل مرو ومن اصحاب ماهويه ، وكان راجعاً الى بلده ، من مهمة له ، وقد قضى يومه في ذلك المنزل ورأى يزدجرد عند المساء جالساً في فراشه وفي احد اصابع يده اليمنى خاتم وفي يده اليسرى سوار من ذهب . ولم يخطر ليزدجرد ،

عند دخوله المنزل ان ينزعها من يـــديه . كما ان الطحان لم يراهما ولم يرَ ذينك القرطين في اذنيه . فقال الرجل في نفسه : انه من عظماء فارس وقد احتجب في منزل الطحان ، خائفاً من عدو له ، ولم يسأل الطحان عنه الا عندمـــا اراد الانصراف ، ولكنه لم يعلم شيئاً مما اراد لان الطحان لم يكن يعلم من هو .

وكان ماهويه ، قد عتب الرجلين الذين ارسلها في اثر يزدجرد وهم بان يبعث رجلين آخرين يبحثان عنه . فلما انتهى الرجل الى مرو ، رأى مـــاهويه ونيزك راجعين من جليندان كأنهما راجعان مـــن ساحات الظفر . فصبر حتى دخلا المدينة ولجأ الى القصر . ثم مثل بين يدي ماهويه ، يستعيد عن فمه ، حكاية فرار الملك التي رواها له اهل مرو ، ويشاركه في فرحه . ولكن ماهويه لم يكن فرحاً كما ظن ، بل كان يقول : ان فرار الملك خيبة وفشل ، فقال اني لا أعرف الملك ايها الامير فهل تصفه لي .

فالتفت رجل من رجاله قائلاً : صفه له ؟

فقال رجل جعد ، حسن الثنايا ، ملح الوجه .

قال : ويلبس سوارا في احدى يديه ؟

– أجل ، وفي اذنيه قرطان .

فقال : هذا هو وقد رأيته .

فأشرق جبين ماهويه وقال : واين هو ؟

– في بيت طحان على المرغاب .

– أرأيته أمس ؟

– نعم أمس وهو على فرس له في حجرة صغيرة لا يخرج منها.

فنهض عندئـــذ وجعل يقول ؟ عليّ بفلان وفلان ، وسمىّ اربعة رجال . فحضروا ، فقال لأحدهم : تذهب الليلة الى بيت طحان يدلك عليه هذا الرجل وستجد يزدجرد الملك في ذلك البيت ، اتعلم ماذا تصنع ؟

– اقبض عليه واحمله اليك .

– بل تخنقه بوتر وتقذف بجثته الى النهر .

– وخاتمه وسواره ؟

– تجعل ما عليه حلى في جراب تسلمه اليّ عندما تعود .

فقام الرجل فخرج وخرج رفاقه وجعلوا يتعجلون في مسيرهم حتى بلغوا ذلك البيت ، وصاحبه عند الباب .

فقــال الدليل : يطلب اليك امير مرو ان تسلم الينا الرجل الذي رأيته في منزلـــك .

فذعر قائلاً : وأي رجل هذا ؟

قال : لا تخف فهو من رجال الجيش وقد فرّ بعد خيانة .

– ولكني لم أره كما تقول وقد يكون المنزل غير منزلي .

– بل هو في هذه الحجرة التي تطل على المرغاب .

وكان يزدجرد قد سمع كل شيء ، فجرّ نفسه جراً الى النافذة ، ثم تدلىّ منها الى المـــاء .

وتحت النافذة سرداب صغير ضيق لا يتسع لأكثر من رجل . فـــآثر الملك الاستخفاء فيه ، على ان يسلم نفسه الى التيار . ولم يلبث حتى انبطح واصطدم رأسه بالجدار من الداخل . وكانت الاصوات تنتهي الى اذنيه مضطربة . وقد ضرب القوم صاحب البيت واقتحموا بيته وجعلوا يبحثون فيه دون ان يبصروا ظلاً ليزدجرد فدب الشك في الصدور وقالوا للرجل : لقد كذبت .

فتردد في الجواب ثم قال : هذه رائحة المسك تملأ الحجرة .

وخطر له ان يدنو من النافذة ، ثم مدّ عنقه فرأى طرف ثوب من الديباج في الماء ، فقال لهم : هذا هو الملك فلينزل احدكم .

ووثب رجلان الى المــاء فــاجتذبا ملك الملوك ورفعاه بالايدي الى الاخرين فتناولوه وكان يقول : لا تقتلوني وانا اعطيكم كل ما املك . هذا خاتمي وسواري

ومنطقي فاقتسموها بينكم . ثم انتزع احد قرطيه ودفعه الى الطحان الوفي مكافأة له وفي هذا شيء من العاطفة العالية كما ترى .

على ان القوم لم يرضوا الا بان يقتلوه وطاب لأحدهم ان يذكر له ان ماهويه يريد قتله وهم رجاله .

فقال: ويحكم انا نجد في كتابنا ان من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في هذه الدنيا فلا تقتلوني ،

فأجابه كبيرهم قائلاً : لا نستطيع ان نفعل .

قال : ارسلوني الى اميركم وانا اسأله ان يعفو .

– ولكنه يأمر بقتلك عندما يراك .

قال : ارسلوني الى العرب فانهم يستحيون من الملوك .

– بل نفعل غير ذلك فليس علينا الا ان نطيع من ارسلنا الى هذا البيت . انزعوا هذه الحلى التي ترون .

فاخذوا حلاه ، ووضعوها في جراب كما امرهم مـاهويه . ثم عمدوا الى وتر قوس فجعلوه في عنقه وهـو يستغيث وليس فيهم من يسمع اصوات استغاثته . ولم تمرّ لحظه حتى كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، أعظم ملوك الشرق في ذلك الزمان ، جثة بلا روح . ثم حملت تلك الجثة وطرحت في النهر ، فجرى بها المـاء حتى انتهت الى فوهة يقال لها فوهة الزريق فتعلقت بعود . وبلغ الخبر بعد ايام اسقف مرو ، فسار الى ذلـك الموضع ولفّ جثة الملك في طيلسان نثر فيه المسك ثم جعلها في تابوت وحملها الى مكان يدعى بابان دفنها فيه . .

وكان ماهويه قد سأل رجاله عن القرط المفقود فقيل له : اخذه الطحان من يزدجرد . فدعا اليه ذلك الرجل المسكين وسأله ان يعيده اليه فلم يفعل بل لم يشأ ان يعترف بأنه موجود. فأمر بجلده حتى مات تحت السوط . ثم بعث بالحلى جميعها الى امير المؤمنين ، فغرّمه امير المؤمنين قيمة القرط الضائع وسدل الستار

على يزدجرد بن شهريار . بل سدل الستار في ذلك الزمان على العرش الفارسي ، وامسى المسلمون اصحاب فارس بدون منازع ..

* * *

- ٥٧ -

هذه نار الثورة ترسل السنتها في فضاء مرو الروذ فتحرق وتدمر كل شيء ا اجل في مرو الروذ نفسها ، وقد سعرها سنجان ، ذلك الرجل الذي لا يموت حقده .

ترك سنجان معسكر يزدجرد لاجئاً مع خراذمهر الى جبل الزهاد، كما خرج فراخزاذ لاجئاً الى بلاد قومه .. وكان برسي ، ذلك الخصي المسكين ، يجرّ بالسلاسل في ذلك الجبل ، والحراس حوله من كل ناحية ، كأنه هو نفسه قاتل الملك . وقد اقسم سنجان انه لا يقتله ، بل يبقى اسيراً في قفصه حتى يموت ، فيخرج عندئذ من ذلك القفص الى القبر. وقبل ان يخرج الى مرو ويشعل النار، فوض امره الى خراذمهر ، وسأله باسم الملك المنكود الحظ ، ان يبقي السلاسل في عنقه حتى يعود . ثم انصرف متنكراً الى مرو الروذ ، ولم تمر بضعة ايام ، حتى كان كل فارسي فيها قد عمد الى السيف . وحامية مرو ، لا تستطيع ، على قلتها ان تثبت في وجه الالوف من الرجال ، بل لا تستطيع ان تحتفظ بالمدينة ، وأهلها انفسهم يحملون لواء الثورة . كتب زياد المازني الى الاحنف يستغيث به ، والاحنف في سوانجرد التي لا تبعد كثيراً عن مرو ، ثم دافع مع رجاله دفاع الابطال ، حتى رأى اخيراً ان هذا الدفاع سينتهي به وبهم الى الموت . فآثر الخروج مع العرب الى الخلاء ، ليتسع له مجال القتال ، على ان يبقى في المدينة محصوراً داخل الجدران . وكان سنجان يبحث عن اليتيمة فلا يجدها ، ويسأل الفرس فيقولون له ، لا نعرف فتاة تحمل هذا الاسم ، حتى عرف اخيراً انها بين نساء الاحنف، وقد خرجت معهنّ في ظلام الليل ، الى حيث اراد زياد . فاهتمّ اولاً لأمر مرو، بعد ان استولى عليها اصحابه، ثم همّ بأن يلحق بالحامية الهاربة،

فيقضي على من بقي من رجالها ، ويسبي النساء واليتيمة معهن . ولم تكن له ، من وراء فكرته ، غير غاية واحدة ، هي ان يجثو عند قدميها ويقول لها : انك ابنة يزدجرد وانت تقيمين بين العرب الذي سلبوه عرشه وملكه ثم قتلوه .. فتستسلم عندئذ اليه ، وتحمل في صدرها حقداً لكل عربي ! وفي ذلك ما يقهر الاحنف وابن اخيه ! ثم يطوف بها في البلاد داعياً الى الثورة من جديد . وكانت الرسل قد نقلت الى ماهويه خبر الحرب في مرو ، فركب هذا الفارسي المخلص للعرب مع فريق من جيشه يريـد اخماد النار . وركب الاحنف من الناحية الاخرى ، بعد ان دانت له نواحي سوانجرد، يريد ان يسترجع ما اخذه العدو.

وبينا سنجان وكبير مرو ، يهمان بان يلحقا بجيش زياد اقبلت طلائع جيش الاحنف ، والرماح في الأيدي ، والاهازيج اهازيج الظفر تملأ الفضاء .

فرجع ماهويه الى مدينته قبل ان يصل الى مرو الروذ ، وهو واثق بان الاحنف سيدخل فاتحاً ، بعد تحطيم الاسوار .

ولجأ اهل مرو الى الابواب فأغلقوها ولم يبق امامهم الا ان يدافعوا من وراء اسوارهم دفاعاً يطيب لهم بعده الموت .

وخطر لسنجان ان يفرّ راجعاً الى جبله، ولكنه خاف ان يقوده هذا الفرار الى ايدي العرب فيخسر حياته .

فتظاهر بالدفاع والوثوق بقوة الرجال ، ولكن الذعر كان قـد استولى عليه حتى انه كان يرى الموت ماثلاً امام عينيه .

على ان تلك الاسوار الضخمة لم تثبت ، ان العرب تعودت ان تحطم الصخر الاصم وتمزق الحديد والفولاذ .

نعم ، ان الاحنف دخل ظافراً ، وعندما كان جيشه يمشي على جثث القتلى ، كان القوم في مرو يسألونه ان يرضى بالصلح ، وبينهم سنجان الذي ضيّع جاهه ولم يقدر ان يفرّ .

وكان الاحنف يرغب في الصلح لسبب واحد هو ان كبير مرو نسيب لباذان الفارسي ، صاحب اليمن ، الذي اعتنق الاسلام .

والمسلمون لا يريدون ان يغضبوا ذلك الفارسي المسلم .

غير انه اراد ان يسأل ماهويه رأيه فيا يفعل ، فبعث اليه يدعوه الى المجيء وجعل اركان الثورة في منزل قريب من منزله ريثما يجيء ماهويه .

وأقبل سنان بن سليم في ذلك الحين يدل على سنجان ويقول :

هذا اصل البلاء وموقد النار .

فنظر اليه الاحنف نظرة غضب اضطرب لها الفارسي ، ثم حــوّل وجهه عنه ، ومشى الى قصر الامارة ليجلس للناس بعد تلك الحرب .

ولم يكن يريد ان يقول كلمة الا بحضور ماهويه .

فلما جاء الرجل ، دعا الاحنف رجال الثورة الى مجلسه وقال له :

قبل ان يسألك امير المروين عما يخطر له ، يطيب له ان يعترف باخلاصك للعرب ووفائك لهم .

قال : لم اصنع ايها الامير ما استحق معه هذا الثناء .

– بل تستحق اكثر من ذلك فقد عرفنا بعض ما صنعت وسنسألك عن كل شيء .. قل الآن أتعرف هؤلاء ؟

فأخفى سنجان وجهه بيديه خوفاً من ان يلتقي النظران ..

وكان ماهويه يتفرس فيه باستخفاف ، وعلى شفتيه ابتسامة النصر ، ويرسل نظرة الى وجه كل واحد من القوم ثم قال :

أعرفهم جميعاً .

– وأي رجل منهم حمل لواء العصيان ؟

– أي ان الأمير يسألني عن الرجل الذي اوغر الصدور .

– نعم هذا ما نريد ان نعرفه .

قال : لا اعرف بينهم من يسعر النار غير هذا ..

وأشار الى ابن اخيه .

قال : أليس هو صاحبك بالامس ؟

– بلى ايها الأمير، انه صاحبي الذي تآمر على العرب من قبل، وصاحبي الذي

ملأ خراسان حرباً وصبغ ارضها بالدماء ، بـــل هو صاحبي الذي دفع يزدجرد وجيشه الى غزو مرو الشاهجان .

فابتسم قائلا :

قل انه الرجل الذي له على القلوب فضل لا تنساه.. ألم يقتل الملك في غزوته التي ارادها هذا ؟ ان هذا يكفي وامير المروين مدين لابن اخيك ..

ثم جعل يقول :

سنجان .. كنا قد نسيناك ولم يخطر لنا قط اننا سنلتقي في مرو وأنت على رأس الجيش الذي يحارب المسلمين .. عفونا عنك من قبل فطمعت، ثم تماديت في الغرور فطاب لك ان تطرد العرب من بلادك وهم الذين احسنوا اليك وجعلوك والياً، أفيقوم في ذهنك الآن ان تخرج حياً من مرو لتطوف في الاقاليم داعياً الى الثورة نافخاً في بوق العصيان ؟

فقال الرجل في نفسه : اذا كان لا بدّ من الموت، فخير لي ان أموت شريفاً، ثم قال :

وهل كنت تريد ايها الأمير ان اخون قومي وأخدم العرب كما فعل مـاهويه الخائن الذي قرّبته اليك، اني نشأت في ظل ملوك فارس وسأموت وانا على عهدهم لا اخونهم ولا اذلُّ نفسي وبلادي ..

قال : كان عليك ان تتنحى عن خدمة العرب ليقوم بهـذه الخدمة سواك ، واما ان تظهر لنا الطاعة لتجلس على مقاعد العز ثم لتتآمر في ظـلام الليل على المسلمين فهذا ما لا نرضاه ..

وخطر للاحنف عندئذ خاطر فقال :

لقد مات الملك الآن ولم يبق ما تخشاه انت ونخشاه نحن وانا لنسألك سؤالاً عنـه .

فاختلجت عيناه ولم يجب ، فقال الاحنف :

– في أي بلد وجدت الملك بعد فرارك ؟

– في كرمان .

قال : كرمان العاصية المتمردة على العرب : لقد انتهى امرهـا الآن ولم يبق بين رجالها من يرفع رأسه .. ومن هم الامراء الذين رأيتهم عند الملك ؟

– تعرفهم انت ويعرفهم ماهويه .

– وكان بينهم رجل خراساني يدعى شهريار ؟

فمدّ طارق عنقه وحبس انفاسه ليسمع جوابه ، فقال :

اجل كان بين يدي الملك ..

وابتسم ابتسامة الازدراء ، ثم حجبت هذه الابتسامة دلائل الحقد الهائل الذي لا يفارق صدره .

قال : وكنت تعرفه من قبل ؟

– وهل نسيت انه هو الذي طلب اليك ان تعزلني عن الولاية لتوليّ ماهويه وكنا جميعاً في هذا المجلس ؟

قال : صدقت فقد ذكرت ذلك الان وماذا كان يفعل ؟

فأملى عليه شيطان حقده ان يقول :

كان يقص على الملك اخبار المسلمين في المروين ..

وهنالك شيء آخر لا يطيب لي ان اقوله الان ..

– إذن كان يخون المسلمين مثلك ..

– اما انا فقد خنتهم لأحاربهم بالسيف ..

– وهو ؟؟

– اما هو فكان يخونهم في أمر لا يخطر لفارسي ..

فاصفر جبين طارق وخفق فؤاده .

وكانت شفتا الاحنف ترتجفان وهو يقول :

اذكر هذا الأمر ولا تتردد .

قال : كان لشهريار فتاة في عامها الخامس عشر وهي احسن النساء وأحبها كما كان يقول ..

– وأي شأن لهذه الفتاة بخيانته ؟

– شأنها انها ليست ابنته !!

فنظر الاحنف الى اخيه وابن اخيه نظرة عرف معناها الاثنان ثم قـال : وابنة من هي ؟

– ابنة حسناء كانت زوجة لأحد الخدم في المدائن وخليلة لشهريار !!

– ابنة زانية ؟!

– نعم !

قال : كانت لشهريار زوجة ماتت في حلوان ..

قال : لم يتزوج الرجل قط !!

فهمّ طارق بأن يتكلم فأسكته عمه قائلاً :

وماذا قال للملك عن فتاته ؟

– خبره ان جمالها استهوى ابن اخ لك وسيزفها اليه ولكن أتعلم ما هي غايته من ذلك ؟

– ما هي ؟

– هي ان يجعلها في هذا الزواج عيناً على العرب تنقل اليه أخبارهم قبل ان تظهر لينقلها هو بدوره الى الملك !!

فصاح طارق قائلاً :

كذبت يا لعين فهي تحب الفتى الذي ستزف اليه ..

قال : لا أعلم شيئاً من هذا ولكني أعيد على الأمير ما سمعته من ذلـك الخراساني وانا اعلم اني سأموت .

فقال الاحنف : نأمرك يا طارق بان تسكت ..

ثم قال لسنجان : وهل تعلم الفتاة ان اباها يريد ان يستغل هذا الزواج ؟

– اجل، وكانت تعلم امراً آخر هو انها ستخدم الملك، بعد زواجها، عامين اثنين ثم يحملها ابوها الى مقر هذا الملك ليجعلها بين جواريه الى الأبد ..!

فتمتم قائلاً : ابنة زانية ..

فسأله ماهويه ان يأذن له في الكلام ، ثم قـال : ليس من الحكمة ان يصغي الأمير الى ما يقوله هذا الرجل فهو كاذب وأنا أعرف اي رجل هو ..

قال : بينك وبين الموت يا سنجان قيد فتر فلا تكذب .

قال : لو لم أعلم اني سأموت لما بحت بالسر ..

فقال ماهويه : لو استطاع هذا اللعين ان يكذب بعد الموت لفعل .. اني انصح لك ايها الأمير بان تنسى مـــا يقوله فشهريار أصدق فارسي في اخلاصه للمسلمين ...

– وانت يا عمّ ألست صادقاً في اخلاصك لمن ذكرت ؟

– لو لم اكن صادقاً لماقتلت الملك الذي حاولت انت ان تسترجع له العرش..

– والذي حاول شهريار ان يساعدني في ذلك ..

– لم تكن للرجل يدٌ فيا فعلت ايها الغدار .

– اقسم انه هو الذي اشار على الملك بان يهاجم مرو .

– فعل ذلك ليخرج ملكك من وراء الجدران فتقبض عليه العرب .

– وكيف طاب له ان يحارب في صفوفه ويفرّ بعد ذلك الى حيث لا تعلم ؟ انه لو كان مخلصاً لرجع الى هذا البلد حاملاً نبأ موت يزدجرد .

قال : قضيت بضعة أيام في صفوف الملك فلم أره ، ومع ذلك فالأمير يعلم ان الرجل ذو اليد الواحدة لا تطيب له الحرب .

قال : يظهر ان الاقدار تدفعني الى ان ابوح بكل شيء .. اسمع ايها الأمير ، ان شهريار كان يريد ان يقتلك ويقتل اخاك وولده وجميع القواد الذين حولك.

فدبّ الشك في صدر الاحنف فجعل يقول :

انه أعجز عن ان يفعل ذلك وانا بين قومي ..

– ولكنه كان يريد ان يجعل السّم سلاحاً له ..

– لو اراد ذلك لما تردد فيه الى اليوم .

– كان يريد ان يتم الزواج فتعمد الفتاة الى القتل كما قلت .

– وسلـّم اليها السم ؟

– لا ، لان الملك عدل عن هذا الرأي واحب ان يرى الفتاة قبل الزواج ، فأمر شهريار بان يدعوها اليه .. من هو زياد المازني الذي جعلته خليفة لك على مرو بعد خروجك الى الحرب ؟

– هذا هو .

وأومأ اليه ، فقال :

اسأل هذا الرجل ، ألم يقدم عليه رسول شهريار طالباً اليه ان يبعث بالفتاة معه الى أبيها ؟

قال : ماذا تقول يا زياد ؟

– نعم ايها الأمير ، قرأت كتاباً مع سنان بن سليم يسأله فيه مولاه ان يتعجل في ارسال ابنته .

– وبعد ذلك ؟

– رفضت طلبه لسببين احدهما ان اليتيمة لا تخرج من مرو الا بعد خروجي الى القبر .

– والسبب الآخر ؟

– اما الآخر فقد اعترف الرسول ، بعد ان جُـلد ، بأن شهريار اسير لدى الملك في وادي خواست وانه كتب كتابه والسيف فوق رأسه .

– وكتبت الينا في ذلك الحين تسألنا الرجوع الى مرو لنحارب يزدجرد .

– أجل !

وجعل يقص عليه خبر اسلام برسي ورجوعه الى ذلك الوادي لينقذ شهريار من الأسر ..

– ولكن أين هو شهريار وأين برسي ؟

فقال سنجان: فرّ الاثنان من الجيش لأن اسلام برسي كان كاذباً وقد لجأ إليه وهو في هذا البلد لينجو من الموت ..

– ولماذا عمدا الى الفرار ؟

– لأنهما رأيا ان الملك ضيـع امله بالرجوع الى العرش .

فقال ماهويه : يخيل الي ان الملك قتل الرجلين وان هـذا اللعين اوغر عليهما صدره ففعل ..

قال : ليظن الامير ما يشاء وليفعل ما يشاء فقد بحت بما أعلم .

فقال الاحنف لمن حوله :

ماذا ترون ، أيستحق هذا الرجل ان نعفو عنه ؟

فصاحوا جميعهم قائلين : بل يستحق الموت فهو عدو العرب .

قال : نستشير امير المؤمنين في أمره ..

- بل تقتله الساعة ونحن نضمن رضى أمير المؤمنين .

فاطرق ملياً ثم قال :

لقد علمت الآن انك ستموت فتهياً ..

قال : اموت ولا ابالي فلا خير في الحياة بعد زوال العز .

- ولا تغير شيئاً مما قلت ؟

- لو كنت كاذباً لفعلت ..

قال : اقتلوه في ساحة مرو ليراه قومه .

فقام طارق فقال : بل يعترف بانه كاذب وانا اسأل له العفو .

فهمّ بالكلام ثم سكت ،

فجعل الفتى العاشق يستعطفه وهو ساكت ، ثم قال :

اقتلني يا ابن قيس ولكن لا تنسَ ان الفتاة التي سترفها الى ابن اخيك ، ابنة زانية !!!

ومشى، بخطى ثابته امام جلاديه، وعندما لفظ روحه، كان القوم في الداخل يعالجون طارقاً الذي اغمي عليه ...

وكان الاحنف يقول لعبدالله :

لقد صدقت الظنون فاليتيمة ليست ابنة شهريار .

* * *

- ٥٨ -

انهض ، فالفتى الذي يحارب الاعداء ويخرج ظافراً من الساحة لا يبكي كما تبكي النساء !..

قالها الاحنف لطارق ابن اخيه ، وهو في منزله يبكي غرامه ويندب سوء حظّه وكان عبدالله حاضراً فقال :

وانك لتستطيع ان تختار لك فتاة من حسان العرب ، تنسى معها اليتيمة التي لا تعرف ابنة من هي ..

قال : قل يا ابي ما يطيب لك ولكن لا تذكر هذا النسيان فالقلب لا يسلم به وليس على الأرض قوة تمحو هذا الحب ..

– ولكنك سمعت حديث سنجان ..

– سمعته يقول ان اليتيمة ابنة زانية ، وانهـا تتآمر مع أبيها على العرب وستعمد الى قتلنا جميعاً بالسم . افتصدق يا أبي كل هـذا وانت قد خبرت الفتـاة ولمست بيدك شعورها العالي ورغبتها في ان يظفر المسلمون في كل قطر ؟!

– وهل تريد ان نصدق شهريار الذي خرج من مرو ولم يرجع ؟

– ان في الأمر سراً فمن الرأي ان نلجأ الى الصبر .

فتبادل الاميران النظرات ثم قال عبدالله :

وماذا يفعل الصبر يا بني في مثل هذه الحال ؟

من يعلم فقد يعود شهريار بعد ايام فنعرف كل شيء .

– اجل ويعود برمي الذي بعثوا به لينقذه من الاسر ..

قال : لقد مات الملك الآن فلا بـد لشهريار من ان يعود ولو كان خائناً .

– بل يذهب الى أقصى خراسان كي لا تقع عينه على عربي .

قـال : ألم يذكر لكما سنجان ان زوجة ذلك الخـادم الفارسي كانت خليلة لشهريار ؟

– بلى !

– اذن فاليتيمة ابنة تلك الزوجة وشهريار أبوها ..

– واذا كان هذا ؟

– اذا كان هذا فالوالد لا يهجر ولده ولا بد من ان يجيء .

قال : قد يأمرنا امير المؤمنين غـداً بان نرحل عن مرو الى بلد آخر نشهر فيه الحرب ..

– يأمرنا بالرحيل فنرحل .

– والفتاة ؟

– ترحل معنا، فهي لا تطيق ان تخرج من معسكر المسلمين .

قال : لقد رأيت ورأى عمك رأياً .

قال : ما هو ؟

– هو ان تتزوج أنت وتتزوج هي !!

فابتسم ابتسامة اليائس قائلاً :

ومن تختار لي ؟

– تطوف انت في جميع احياء العرب النازلة في فارس.ثم تنتقل الى البصرة والكوفة حتى تجد زوجتك .

– ومن تختار لها ؟

– فتى من الفتيان الأبطال ينتمي الى نسب معروف .

قال : لو قيل لي الآن ان ليزدجرد ملك الملوك فتاة هي اجمل نساء الانس والجنّ يحجب نورها نور القمر والشمس، لما خطر لي ان انظر اليها نظرة واحدة واليتيمة حية !! انظر يا ابي في الامر فقد يكون لك رأي آخر .

– اذن نختار فتى فتتزوج هي وينتهي الامر .

– لتفعل ذلك وانا راض .

– وتتزوج انت بعد ذلك ؟

– لا اعلم فقد ينقضي العمر كله دون ان افكر في الزواج .

قال : اسألك سؤالاً آخر يا بني ، افيطيب لك ان تكون الفتاة التي تزف اليك ابنة زنى ؟

– اذا ثبت لي انها كما تقول قتلتها بيدي أو هجرتها الى الأبد .

وحكاية سنجان ؟؟

– لا تعد الى ذكر حكايته فالرجل الذي يخون العرب وينفخ في صدور الناس روح الثورة لا يصدقونه ..

– ومن اين لك ان تعلم ما ترغب فيه ؟

– من شهريار نفسه فقد كان له سرّ وسيبوح به بعد رجوعه .

– والمؤآمرة ؟

– سأسألها انا عن المؤآمرة بل اسألها عن كل شيء .

– اليوم ؟

– بل الآن فهذا الغرام الذي لا حدّ له سيقودني الى القبر .

فقال الاحنف : انها تقيم بالغرفة التي تحاذي حجرة ام عامر أليس كذلك ؟

– بلى وبين الحجرتين باب صغير يحجبه ستر .

قال : نجلس نحن وراء الباب الذي ذكرت وتحدثها انت بما يطيب لك .

– وسأرفع صوتي لتسمعا كل شيء .

وكان طارق قد رأى الفتــــاة عند وصولها الى مرو ولكنهما لم يتحادثا الا بلغة العيون ..

فلما دخل حجرتها ، ابتسم الاثنــان ابتسامة الحب .. ورأت هي في عينيه سطوراً لم ترها من قبل ، فقالت له :

أين ابي يا الحبيب

– أتيت الآن اسألك عنه .

– وهل قدم مرو

– لا أعلم فقد غادرت مرو وهو بعيد ولم أره بعد ذلك !

فصاحت قائلة : ألم يكن في كرمان

– لا وقد بحثت عنه كثيراً فلم اسمع كلمة واحدة عنه .

– مع انه كان في جيش الاحنف وكنتما تقيمان بخيمة واحدة .

– ومن قال لك هذا ؟

– سنان ..

– مولى ابيك ؟

– نعم !

– لقد كذب فأنا لم أرَ له في كرمان وجهاً ..

فبكت قائلة : لقد قتل ابي فلا حول ولا قوة الا بالله .

فأجابه وهو هادىء :

اما العرب فلم يقتلوه ، وامــا الفرس فلا أظن فيهم رجلاً يجسر على ان يمد اليه يد سوء .

– لماذا ؟

– لأنه من انصار الملك ! وأهل فارس يعرفون ذلك .
– ابي ؟
– نعم وقد سمعتهم يقولون انه من اقرب المقربين اليه ..
– ولكن الملك قد قتل .
– اجل وكان على شهريار ان يعود بعد مقتله .
فجفّ دمعها ، وجعلت تنظر الى الأرض وهي ذاهلة .
فقال : هـذا مـا سمعته فقد يكون الذي رواه كاذباً ، وله غاية خاصة من وراء قوله !.
فخفضت صوتها وجعلت تقول :
ابي من انصار يزدجرد وهـو العامل على قتله ؟! انها لهجة غريبة تحملها اليّ من ساحة الحرب .. وكيف يكون من انصاره وهو لا يراه ؟
– ألا تذكرين انـــه كان يغيب عن منزله بضعة ايام كل شهر، ثم بضعة عشر يوماً ، ثم يعود وهو لا يقول كلمة عن سبب غيبته .
– وما معنى قولك ؟
– معناه في نظر الذين يتهمونه ، انـه كان يعلم مقرّ الملك ويقضي ايام غيبته في المنزل الذي يقيم مولاه به !
– والذي قصّ عليك ذلك .. عربي ام فارسي ؟
– فارسي ، وهو من قواد يزدجرد المخلصين له .
فجعلت تردد قوله وهي لا تصدقه .. ولكن الريب كان يتمشى في قلبها الخفاق الذي استولى عليه الألم .
ثم قالت : وصدقت انت يا طارق ما قيل لك ؟
– فتشت عن شهريار لأسمع الحكاية منه فلم اعثر عليه ، فـأنا متردد كما ترين وقد جئت اسألك عن ذلك كما قلت فاستحلفك بالله ان تبوحي لي بكل شيء .
– وبماذا ابوح لك وأنا لا أعلم شيئا ؟
– أكان أبوك يحدثك بأمر الملك ؟

– كنتما انتما الاثنين تحدثاني بأمره ، وكنت أقرأ على جبين أبي وفي عينيه ، كما كنت تقرأ انت، سطور الحقد الذي لا يزول .

– وكنت انت من الناحية الأخرى ، تـدافعين عن الملك ، وتسألينا باسم المروءة والرحمة ، ان نرفق به .

– أجل كنت افعل ذلك لأسباب ، أهمها ان هذا القلب يذوب اشفاقاً كلما ذكر يزدجرد ولا أعلم لماذا .

بكيته دماً ، وسأبكيه ما بقيت ، وأنا لا أعرف له وجها ،

فهامس الاحنف اخاه عبدالله ، وهما في حجرة ام عامر ، قـائلاً له : والله لم أسمع في كل ما سمعت أغرب من هذا ، تعترف الفتاة بان أباها يبغض يزدجرد ثم تعترف بانها تحبه ، فلم يبقَ الا ان ادخل الساعة واهددهـــا بالقتل لتعترف بكل ما تعلم .

فقال له : خير لنا ان نصبر الى النهاية .

وكان طارق يقول :

أمسى ابوك الان بريئا وانت المتهمة .

قالت : يتهمونني باني احببت يزدجرد ? اني اعترف لك مرة ثانية بان في هذا الصدر عاطفة تخفق على ذكره وليس لي حيلة في ذلك ، فالذنب ذنب هذا الشعور الخفي الذي أحس به .

فوضع يده على جبينه قائلاً :

هنالك اقاويل كثيرة ايتها الحبيبة .

– وهل تذكرها لي ?

– نعم اذكرها فهم يقولون انك عين لأبيك على المسلمين في مرو !!

فتراجعت مذعورة وهي تقول :

طارق نفسه يذكر لي هذا وهو لا يبالي ?

– انقل اليك ما سمعت وأنا لا اصدق شيئا منه .

فتساقط الدمع من عينيها ثم رفعت صوتها قائلة :

هذا هو الفتى الذي وهبت له نفسي وقلبي وكدت أنسى ابي من اجله يتهمني

بالخيانة !! انه حب صادق تظهره لي يا ابن عبدالله ، ووفاء لا ينطبق صدر من صدور المحبين على مثله !!

فدنا منها قائلاً :

اقسم لك براس ابي وراس امير المؤمنين اني لم اصدق كلمة مما اقوله لك الان . ولكني اردت ان تعلمي ما يقوله ذلك القائد الذي ذكرت .

– ولا يقولون غير ذلك ؟

– بلى ! – ماذا ؟

قال : اخشى ان تظني الظنون بي .

– بل تقول وانا لا اظن شيئاً .

قال : لقد نقل القائد الكاذب اخباراً كثيرة منها انك رضيت بان تزفي الى طارق بن عبدالله على ان تهجريه بعد عامين !

فقالت وقد عاد اليها الهدوء : ولماذا اهجره ؟

– لتنضمي الى جواري الملك الذي يطيب له ان يجعل حسان فارس كلها في المنزل الذي يختاره له !

فابتسمت قائلة : الحمد لله ثم الحمد لله فقد مات ولم يبق هنالك ما تخشاه ...! وماذا ايضاً ؟

– ترتفع اصوات البكاء والنواح في المعسكر العربي بعد ان تهجري طارقا وتتركي بيته !

قالت :

ما قولك هذا فلم افهمه .

ا – عنيت ان طارق وعمه واباه سيموتون بعد خروجك من مرو !

– وما هو هذا الموت الذي يحصدهم جميعا ؟؟

– يموتون بالسم الذي تجعلينه في شرابهم وطعامهم قبل ان تنصرفي الى مقر يزدجرد !!!

وبكى طارق عندئذ بكاء مراً ، فقد احسّ انه طعن حبيبته في وفائها ، وجار عليها بل امعن في الجور !!

ولكنه كان يعلم ان عمه واباه يسمعان حديثه ، فهو مكره على الافضاء اليها بكل شيء ، ليزول الشك الذي دبّ في صدريها .

ثم جعل يمسح دموعه ويقول :

هذه هي الحكاية الغريبة التي سمعتها من فم ذلك الفارسي الكاذب الذي كان يدفع يزدجرد بيديه الى العرش .

فقالت : عار عليّ وعليك ان نستسلم الى البكاء في موقف التهمة .. اين هو هذا الفارسي فانا أريد ان اراه .

– لا تستطيعين ذلك .

– أليس هو في مرو ؟

– كان فيها منذ ساعة .

– الى اين ذهب ؟

– الى دار الآخرة فقد أمر الاحنف بقتله لأنه عدو المسلمين .

– عدو المسلمين وتثقون باقواله ؟

– لم يثق به احد ولكنها قصة اردت ان تسمعيها كما قلت .

– قالت : لي حاجه اسألك قضاءها اليوم .

وكانت تبتسم كأنها لم تسمع شيئا ، فقال :

بل اقضيها الساعة .

– اريد ان تستأذن لي على الاحنف !

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– كلمة خطر لي الآن ان اقولها له .

قال : خير لك ان انقلها انا اليه فمجلس الاحنف يغص بوفود الناس في النهار والليل وليس من الرأي ان يراك القوم في مجلسه .

– ولكنها كلمة لا تقال لك لانها تتعلق به !

ثم قالت : اما اذا كنت خائفاً من ان اسقيه السم فذلك شيء آخر !

قال : كفى فقد ندمت على ما قلت .

فلمعت عيناها لفكرة غريبة خطرت لها وجعلت تقول : أما وقد ندمت ،

فقد انتهى كل شيء وعدلت عن رؤية عمك ، ولكن لي رجاء آخر أطلب اليك أن لا تتردد فيه .   – ما هو ؟

– هو ان تذهب غداً فتبحث عن أبي في النواحي التي تجاور مرو الشاهجان والتي أقام بها جيش الملك .

فقال دون أن يتردد : سأغادر مرو عند الصباح من اجل هذه الغاية ..

– ولا تنسَ ان تسأل عنه ماهويه، فهو يعرفه، ويعلم من امره ما لا يعلمه سواه ..

– وهل بقي لك ما تقولينه ؟

– بقي امر واحد هو ان تتعجل في الرجوع ..

وحولت وجهها لتمسح الدمع الذي حاولت عبثاً ان تخفيه، فقال : اني اشد رغبة منك في هذا .. فانسي مـــا سمعت واعلمي ان الله معنا وان العالم كله لا يستطيع ان يفصل بين هذين القلبين.. ورفع صوته ليسمع عمه وأبوه .. ثم خرج وهو يحس ان يد القدر ستمتد اليه بسوء .

وكان الاحنف وعبدالله قد انتهيا الى الرواق فقال له الاحنف: ماذا رأيت؟

قال: رأيت ان اذهب الساعة الى الحفرة التي دفن فيها سنجان اللعين، فاحمل جثته الى السوق ثم امزقها واجعل اجزاءها تحت الاقدام .

– اما انا فقد رأيت ان في الامر ما فيه ؛ وخير لنا ولك ان نلجأ الى الصبر ريثما تبدي لنا الأيام ما لا نعلم فقد تكون الفتاة بريئة مما اتهمت به ..

وكانت الظنون تتراحم في صدره وهو لا يريـد ان يبوح بها لأحد ممن حوله خوفاً من ان تكذب الأيام ما يفكر فيه، ثم قال: وعولت على الرحيل غداً يا بني؟

– اجل، فالسر في فم شهريار وسأطلبه ولو قضيت العمر كله بعيداً عمن احب.

قال : لا امنعك من ذلك ولكني اريد ان يرافقك في رحيلك ، اثنان من فتيان قومك تختارهما انت .   – سأختار اربعة ممن ذكرت .

– واتمنى ان تعود وقد اضمحل الريب من الصدور .

فتلألأت الدموع في عينيه وجعل يقول: سيخسر عبدالله بن قيس ولده طارقاً اذا لم يضمحل هذا الريب . وانصرف دون ان يسمع جواباً. وانثنى ابوه ليختار له رفاقه الأربعة من الفتيان المخلصين ..

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين